

محلّ قطب

في النفس
والمجتمع

دار الشروق

في النفس والمجتمع

الطبعة الخامسة

١٤٠٠م - ١٩٨٠م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق

بيروت، ص. ٨٠٦٤ - ملف: ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١١١ - بوقيا دشروق - تلكن SHOROK 20175 L.E
القاهرة، ١٦ شارع جواد حني - ملف: ٧٥٤٣١٤ - بوقيا، تروق - تلكن. SHROK UN 93091

محمد قطب

في النفس والمحبة

دار الشروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ
حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» .

«صدق الله العظيم»

مقدمة الطبعة الثانية

هذه المجموعة من الخواطر مكتوبة قبل سنوات . . .
وقد لاحظت عند مراجعتها لإعادة الطبع ، أن بعضها قد نما وتبلور ، وأخذ
امتداده في الكتب التي تلت هذا الكتاب : « قبسات من الرسول » ، و « معركة
التقاليد » ، و « منهج التربية الإسلامية » ، و « هل نحن مسلمون ؟ » ، و « منهج الفن
الإسلامي » . . . وبعضها الآخر قد بقي على صورته التي كتب بها في هذا الكتاب ،
لأنه لم يأخذ في نفسى امتدادا آخر ، ولم تضاف تجاربي الشعورية والفكرية
جديدا إليه .

وقد أقيمت هذه وتلك بترتيبها وألفاظها ، لأنها تمثل حلقة من حلقات
التفكير والاتجاه . . . ١

محمد قطب

مقدمة

لهذا الكتاب قصة . . .

فمنذ بضع سنوات كنت أكتب مؤلفي الأول عن نظرية الإسلام في النفس الإنسانية في مجالها الفردى والاجتماعى، وسميته « الإنسان بين المادية والإسلام ». وأشهد أنني حتى اللحظة التي بدأت فيها الكتابة بالفعل لم أكن أتصور أن نظرة الإسلام إلى النفس الإنسانية هي بهذه الدقة والشمول في كل اتجاه ! لقد كنت - بطبيعة الحال - قد كونت فكرة عامة بدأت الكتابة على أساسها؛ هذه الفكرة مبنية على أن « التوازن » هو أساس نظرة الإسلام إلى الحياة وإلى الإنسان . وأن الإسلام هو النظام الذي يوازن بشكل دقيق ملحوظ بين مختلف القوى الإنسانية : يوازن بين الروح والجسد، بين الأشواق العليا ونزعات الغريزة، بين الخضوع لضرورات الحياة، والتسامي إلى طلاقة الآفاق الأعلى . . . كما أن الإسلام يقع في نقطة الوسط بين أفكار البشرية المتطرفة . يقع بين السكبت الذي تفرضه بعض النظم والعقائد، والانطلاق الحيوانى الذى توحى به بعض آراء علماء النفس من أمثال فرويد . ويقع بين الفردية المتطرفة التي تقوم في العالم الرأسمالى، والجماعية المتطرفة التي تقوم في العالم الشيوعى . ويقع بين المادية المفرقة التي تحدد الحياة بما يقع في محيط الحواس، والروحانية المفرقة التي تهمل عالم المادة لتتعلق بسبعات الروح وأطياف الخيال .

تلك هي الفكرة العامة التي كنت قد كونتها من دراستي انظرة الإسلام إلى الحياة والإنسان . ولكن فيضاً عجيباً من الخواطر المتلاحقة كان يرد في خاطري أثناء الكتابة، كأنه يخطر لي لأول مرة، وكأنما أكتشفه اكتشافاً في أثناء الطريق ! هذه الخواطر سجلت بعضاً منها في كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام »،

لأنها تدخل بصفة مباشرة في موضوع البحث ، ولأنها لازمة لتوضيح الفكرة الأساسية للكتاب . . ولكن بقية من هذه الخواطر كانت تملأ ذهني في وقتها فأبعدها عن خاطري إبعاداً ، حتى لا يتضخم الكتاب من جهة ، وحتى يمكن من جهة أخرى الإمام بفكرة عامة عن سيكولوجية الإسلام ، دون أن تتوزع في كثير من التفاصيل .

وظلت هذه الخواطر حبيسة لا أجد الفرصة لتسجيلها . . حتى سجلتها أخيراً في هذا الكتاب .

لأنه مجموعة من الخواطر يربطها كلها رباط واحد ، هو أنها عرض للفكرة الإسلامية في الفرد والمجتمع ، يشمل نواحي مختلفة من النفس الإنسانية والنشاط الفردي والاجتماعي .

وقد يلحظ القارئ نوعاً من التسلسل في موضوعات الكتاب ، أو يلحظ على الأقل نوعاً من الترابط بين مجموعات مختلفة من العناوانات التي جاء بعضها على إثر بعض .

وعلى أي حال فالرباط الأكبر هو أنها كلها مأخوذة من زاوية العقيدة ، وأثرها في الحياة البشرية .

وهي مادة تصلح بذوراً لتكوين نظرية إسلامية نفسية ، لأزعم أنني وصلت فيها إلى شيء قاطع ، ولكن حسبي منها أن أفتح بها الباب للباحثين يستخلصون منها ومن غيرها نظرية تفصيلية تشمل كل ميدان النفس ، وتصلح أن توضع في ميدان البحث العالمي في مقابل النظريات الغربية ، تتلافى ما فيها من انحرافات وعيوب ، وتساهم في إنشاء عالم أفضل ، يقوم على هدى واضح واتجاه سليم ^(١) .

نرجو الله أن يوفقنا إلى ما فيه الخير ، إنه سميع مجيب الدعاء .

(١) ين بدي الآن بحث أرجو أن أقدمه للقراء قريباً باسم « دراسات في النفس الإنسانية » .

العقيدة

عقيدة . أو لا عقيدة ؟

سؤال حائر في أفكار الشباب وفي ضمائرهم . .

ما قيمة العقيدة ؟ مادورها في الحياة ؟ هل يمكن أن يكون لها اليوم دور في عصر الآلة والإنتاج الكبير ؟

وما غرض العقيدة ؟ أو ليس هدفها إقامة الحياة البشرية على أسس صالحة ؟ لقد تولى ذلك عنها العلم في العصر الحديث ، فأقام نظماً اقتصادية واجتماعية من شأنها تنظيم العلاقات بين الناس على أسس الاشتراكية والتعاون ، بحيث تجعلها جزءاً من النظام العام ، تشرف عليه الدولة ، وتضع له التشريعات والقوانين .

فماذا بقي إذن من مهام العقيدة لم تقم به « الدولة » الحديثة ؟ لقد كان للعقيدة دور هام تؤديه يوم كانت الدولة في طفولتها ، وعلاقات الناس شخصية أكثر منها جماعية ونظامية . أما اليوم فقد صيغت العواطف نظماً والنوايا الطيبة أعمالاً منظورة . وتحول العدل الاجتماعي من دعوة ووعظ ، إلى نظريات علمية وتطبيقات عملية . فما شأن العقيدة في العالم الحديث ؟

ثم إن العقيدة وما حولها من روحانيات وطقوس كانت مفهومة قبل أن يفسر العلم ظواهر الحياة تفسيراً « واقعياً » ؛ فكان الجهل بما وراء هذه الظواهر هو الذي يدفع الناس إلى افتراض قوة خفية تسيّر السكون . وإذا كانوا لا يرونها ، وهم في الوقت ذاته يخشونها ، فقد أقاموا العبادات لاسترضائها واستمطار رحمتها . واليوم ذهب ذلك كله . فقد « قهر » الإنسان الطبيعة ، وانتزع أسرار السكون واحداً إثر واحد . فجسّر الذرة واستخلص منها طاقة هائلة يمكن أن تدمر وجه الأرض . واكتشف أعماق البحار المجهولة وأغوار السماء . وقتش في كل مكان

حتى عرف القوة الخفية أو كاد ! فما معنى القشبت بما كان أيام الضعف والجهالة ؟
اليوم يعبد الناس إلههم الجديد الذى وصلهم إلى الأسرار . وهو العلم . أو يعبد
الإنسان نفسه ، فهو القوة الفعالة على ظهر الأرض ! (١)

كذلك يتحدث الشباب عن العقيدة . . مخاضا حيناً ، ومستمعاً حيناً إلى غواية
الشياطين ينفثون فى فكره ، ويجرونه من خيوط الرغبة الهائجة والشهوة المجنونة .
والشباب دفعة الحياة الجارفة وطاقتها المذخورة . ولكنه كذلك ذخيرة
خطرة حين ينحرف عن طريقه ويضل عن الهدف المنشود .

والضلال الأكبر الذى يشمل هذا الجيل من البشرية هو استغلاق روحه
عن العقيدة ، وانطاس بصيرته أن تستمتع بنورها الشفيف .
« ويحسبون أنهم مهتدون » . .

كذلك كان الناس فى الجاهلية . كانوا يتبعون باطلهم المضحك مخلصين حيناً ،
ومستمعين حيناً إلى غواية الشياطين . . . « ويحسبون أنهم مهتدون » ،

والجاهلية الجديدة أشد عتواً لأنها أشد قوة ! إنها تملك من وسائل التحطيم
مالم يخطر من قبل على ذهن بشر . لذلك فهى أشد اعتزازاً بباطلها المضحك ،
وأشد ضللاً به من السابقين .

كانت الجاهلية الأولى تعبد أصناماً بفة الصنع أو بفة العقيدة . لذلك انهارت
فى يسر . وإن كان هذا اليسر الذى قد استغرق بضعة قرون من الكفاح ، وبضعة
آلاف من أرواح البشر استشهدوا فى الطريق .

والجاهلية الثانية تعبد أصناماً لاسبيل إلى كفاحها فى يسر أو تحطيمها
فى هواة ، لأنها لا تقوم على باطل مطلق كأوثان الفراعنة والبدو ، والإغريق
والفرس ، بل تقوم على ركيزة هائلة من « الحق » ، هى ركيزة العلم .
ولكنه حق يراد به باطل .

(١) انظر الفصل التالى : « العلم والعقيدة » .

العلم حقيقة محايدة ، لا تؤدي بذاتها إلى الخير أو الشر ، ولا تؤدي بذاتها إلى الهدى أو الضلال . ولكن القلب الذي يستخدم هذه الحقيقة هو الخير أو الشرير ، هو الذي يتجه بها إلى طريق الهدى أو طريق الضلال . ومن الناس من « أضله الله على علم » . وهو أخطر ممن ضل على جهالة . لأنه يملك ومن وسائل المعرفة ما يقدر به على الشر . وهذا الجيل من البشرية ربما كان أبعد أجيالها في الضلال ، لأنه أشدها ضلالاً ، على علم ، وأقدها على استخدام العلم في طريق الشر . وما هذه الحروب المدمرة التي تهدد العالم بالفناء ؟ اثنان في ربع قرن والثالثة على الأبواب ؟

يقولون لك إنه « الصراع » . . صراع الحياة ، أو صراع البقاء . نعم . ولكنه في الواقع هو الضلال الذي يؤدي إلى الصراع . لو أفلت نظام الكون . . لو انحلت الرابطة التي تربط كوكباً بكوكب ، وتسير الأفلاك في الكون العريض . . كيف يحدث ؟ ولو أفلت نظام الذرة ، وهي البنية التي يقوم عليها الكون ، لو تفتت نواة الذرة التي تمسك حولها الكهارب المنطلقة في نشاط دائم . . كيف يحدث ؟ هل يحدث إلا الفوضى المدمرة والضلال الرهيب . . ؟ ذلك ما حدث لهذا الجيل من البشرية . تفتت نواته . وانطلقت كهاربه المجنونة تصطدم وتتحطم ، وتدمر كل ما تصادفه في الطريق . وهل يمكن أن تكون النواة في الكيان البشري غير العقيدة ؟ النواة هي الطاقة الموجبة في بناء الذرة . وهي التي تمسك الكهارب المنطلقة أن ينحل عقدها ، وتنفلت إلى غير رجوع . هي التي تمسك البناء كله وتشده بعضه إلى بعض . هي التي تحفظ التوازن وتسير النظام . هي المركز الذي يدور كل شيء حوله ، ويظل أبداً منجذباً إليه في رباط خفي ولكنه وثيق .

وحين تتحطم الذرة يحدث الخراب. تنطلق القوى التي كانت خبيثة منذ لحظة ، لأنها كانت - وهي مشدودة إلى النواة - تمثل النشاط الدائب الذي يعمل للبناء . تنطلق هذه القوى بلا ضابط ، فتصبح هي قوى الشر وعوامل التدمير ! وكذلك الإنسان بلا عقيدة !

كتلة هائلة من النشاط المجنون . نشاط مدمر لأنه فقد المركز الذي يدور حوله ، وفقد كذلك الرباط الوثيق بين أجزائه .
أو . . ميوعة وانحلال . نفسك ورخاوة . تفاهة سلبية ، كالكهرب السالب بلا نواة تشده إليها وتحركه إلى هدف معلوم .

وهذا وذاك هو الواقع الذي يعيش فيه البشر في القرن العشرين . فهل رأت البشرية في تاريخها الطويل من دواعي القلق والفرع ما تراه اليوم من الحرب الذرية ؟

هل رأت من دواعي الصراع المجنون - حتى أيام الغابات والكهوف - ما تراه اليوم من الصراع العنيف من أجل الغلبة والسلطان ، والإهلاك والتدمير ؟

وهل رأت من الانحلال الخلقى والتفاهة المشرقة ما تراه اليوم في المراقص والحانات، والغابات والطرق، والصحف العارية والسينما المتبدلة والفن، الخليع ؟ نعم . مر على البشرية من كل ذلك ألوان . ولكنها لم تبلغ قط في حدتها وضراوتها ما بلغته في هذا الجيل .

يقولون لك : هذه ضريبة العلم .

كذبوا : إنها نتيجة الضلال .

ليس العلم شريراً في ذاته . وليس من الضروري أن تكون ضريبته هي هذا الشر الضارب في الآفاق .

ولكنه هو هكذا المخلوق البشرى حين ينحل رباطه ويختل توازنه. هو هكذا يصبح قطعة من الشر ، وصنوا للشيطان .

تذكر الإحصاءات أن ما أنفق في الحربين الأخيرتين كان كفيلاً بأن يمنع كل فرد على ظهر الأرض بيتاً حديثاً مجهزاً بأفنى الأدوات، ودخلاً أعلى من المتوسط اليوم. يقولونها للتسلية والتندر . .

ليس هناك دافع جدى يقول للناس : ويحكم ! ماذا تصنعون !
ليس هناك شعور حقيقى بوحدة الإنسانية وأخوتها .
ليس هناك ضابط حقيقى يمنع شهوة الإلبادة والتخريب .
ليس هناك عقيدة .

وتذكر الإحصاءات أن ما ينفق في المواخير ونواذى الميسر ووسائل الهبوط المختلفة، من ساعات العمر ومن الأموال التى تمثل السكد البشرى ، هو مئات الملايين. يقولونها للتسلية والتندر .

ليس هناك إحساس حقيقى بكرامة البشرية أن تهبط إلى هذا المستوى من التفاهة والانحلال .

ليس هناك استخسار حقيقى للطاقة البشرية الضائعة فى لاشى ، المنحدرة إلى الهاوية .

ليس هناك تقدير حقيقى لتلك الخامة العجيبة التى صنع منها المخلوق البشرى . الخامة القادرة على الرفة بقدر ما هى قادرة على الهبوط .

ليس هناك معرفة حقيقية بهذا الجوهر الفذ الذى نفخ فيه الله من روحه وخلق على صورته .

ليس هناك عقيدة .

وحين يفقد الإنسان العقيدة فهكذا يصير .. ضراوة الوحش وتفاهة الانحلال.



هل معنى ذلك أن نغمض أعيننا عن كل ما أحرزته البشرية فى العصر الحديث من تقدم ؟ ونلغى من حسابنا كل ما يسره العلم من الخدمات ؟

كلا ما قصدنا إلى شيء من ذلك ، وإنه لضرب من المستحيل .
وإنما نقصد فقط أن نراجع الوسائل والأهداف .

لاى معنى نعيش ؟

هل كل همننا أن نبدد طاقتنا الحيوية فى متاع الجسد ، أو نتصارع كالوحوش
على الغلبة والسلطان ؟

أو لشيء أعلى من ذلك نعيش ؟

نستمتع بمتعة الجسد ، ونتطلع مع ذلك إلى آفاق أخرى ، آفاق تربط
بين البشر برباط الأخوة وتهدف إلى الجمال ؟ الجمال فى كل شيء . جمال التعبير ،
وجمال الشعور . لا فى عالم الفن المحدود وحده ولكن فى نطاق الحياة كله . . .
وهل أجمل شعوراً فى النفس من الحب ؟ وأجمل تعبيراً من الخير فى الحياة ؟
والوسيلة هى العقيدة . . .

والمخلوق البشرى كسكل شيء فى بنية هذا الكون الأعظم . ما ترى فى خلق
الرحمن من تفاوت ، .

نواة موجبة الطاقة وكهارب سالبة تستمد منها الحركة الدائبة والهدف المحدد الاتجاه .
هذا .. أو الفوضى الضاربة الأطناب .

والعقيدة هى الرباط الذى يربط كيان الإنسان ويوحد اتجاهه . هى العقدة
الصلبة التى تمنع انحلاله . هى التى تنظم غدوه ورواحه . وتوازن بين دفعاته
المتشعبة الأهداف .

ولا شيء . يستطيع أن يغنى فى ذلك غناء العقيدة . لا العلم . ولا الدولة
ولا التنظيم الاجتماعى . ولا تنظيم الاقتصاد^(١) .

كأما جزئيات تشمل أجزاء من الكيان البشرى ولا تجمعهم كله . والويل لها
إن لم يكن بينها ترابط يجمع شتاتها ويوازن بين دفعاتها المتشعبة الأهداف . فعند

(١) أنظر الفصل التالى عن « العلم والعقيدة » .

ذلك تمزق المخلوق البشرى بين الشد والجذب ، وتفسد أعضائه ، وتدفع به إلى الجنون .

الجنون الذى يسمونه الحرب . أو الجنون الذى يسمونه صراع الحياة .

أو فى القليل جنون التبكالب على المتاع الجسدى المسعور .

والعقيدة هى الرقية من هذا الجنون .

إنها ليست بديلا من العلم . أو الدولة . أو التنظيم الاجتماعى .

أو تنظيم الاقتصاد .

ولست فى موضع التقابل من ذلك كله . (١)

وإنما هى الرباط الذى يربط كل ذلك ، ويوجهه إلى طريق الخير . هى النواة

التي تمسك كيان الذرة وتنظم ما فيها من النشاط .

والنواة وهى ثابتة راکزة - لاتصيق نشاط الكهارب ولا تمنعها من الانطلاق .

تمنعها فقط من الفوضى والتصادم . تمنعها من الانفلات بلا غاية ولا دليل .

لأنها عندئذ تفقد معناها . تفقد وظيفتها الحقة ، وتصبح أداة للهدم فوق أنها

هى ذاتها تضيع .

والعقيدة لا تمنع الاستمتاع بالطيبات من الرزق ولا تحرم زينة الله التى أخرج

لعباده . ولا تمنع كذلك تقدم العلم وتنظيم المجتمع . (٢)

وإنما نجعل لكل ذلك غاية . غاية غير الصراع المجنون والتدمير الرهيب .

غاية هى الشعور الجميل والتعبير الجميل . غاية هى الحب وهى الخير .

والحب هو الله .

والخير هو الله .

والله جميل يحب الجمال .

العلم والعقيدة

أعجب ما في هذا المخلوق البشري أن أداة الهدى يمكن أن تكون بذاتها أداة الضلال ! وأداة الخير يمكن أن تكون أداة للشر سواء . (١) .

ومن هنا ضلت البشرية بالعلم في هذا القرن العشرين ، بدل أن يقودها العلم إلى الهدى واليقين .

وانتخذ العلم سلاحاً لمحاربة العقيدة ومطارقتها في نفوس المؤمنين . وانتخذت الحرب طريقتين تلتقيان في النهاية . . تلتقيان عند الجاهلية الكبرى التي يصنعها الناس لأنفسهم ، وتباركها من ورائهم الشياطين . الطريق الأول نظريات « علمية » تقول إن الدين نشأ من الضعف ومن الجهل اللذين سيطرا على طفولة البشرية ، فينبغي أن يترك اليوم مكانه للعلم . . وكفى ما كان من خرافة وأساطير !

والطريق الثاني نظريات علمية كذلك ! تقول إن « الدولة » في العالم الحديث تقوم بالتنظيمات الاقتصادية والاجتماعية على أسس علمية . فلم يعد هناك مجال للتنظيمات التي كانت تقوم على الوجدان الديني الذي قد يخطئ وقد يصيب . وهو وجدان فردي على أي حال ، لا يصلح لتنظيم الجماعات الراقية في عصر الذرة والصاروخ !

* * *

نشأ الدين من الضعف ومن الجهل . . . كان الإنسان الأول يرى البرق ويسمع الرعد فيرتجف فرقا ، ولا يعرف السر وراء هذه الأشياء . وكان ظلام الغابة وعويل الرياح فيها وحفيف

(١) انظر فصل « الطاقة البشرية المحايدة » .

الأشجار يفرعه ويخيّل إليه أن هناك أرواحا شريرة تريد أن تفتك به .
ومن هذا وذاك نشأ اعتقاده بوجود آلهة مختلفة بعضها للخير وبعضها للشر . بعضها
من ظواهر الطبيعة وبعضها من حيوانات الأرض .. ثم ظل عليه بالاشياء يزداد
وفكرته عن الإله ترتقى حتى وصل آخر الأمر إلى عقيدة التوحيد . وكانت
تلك مرتبة عالية في الفكر البشرى . ولكنها هي الأخرى استنفدت أغراضها
وأخلت مكانها للعرفة الواقعية والعلم الصحيح .

ذلك حديث أوربا عن الدين . بضاعة أرضية بحثة من صنع الإنسان ،
ترتقى معه ، وتتطور بتطوره . ولكنه ليس كما يفهم المسلمون حقيقة علوية
قائمة بذاتها ، ظل الإنسان ينهل منها بحسب طاقته واستعداده ، حتى وصل على
يد الرسل إلى أوضح فهم لها في عقيدة التوحيد .

ولمترك عقيدة المسلمين في الله لحظة ، ولنتجرد من كل قداسة الدين لنواجه
هذه « الحقيقة العلمية » بلا ستار !

الضعف والجهل هما أساس العقيدة . .

فإذا نال الإنسان من القوة ومن العلم ليستغنى عن العقيدة في القرن العشرين ؟
فجّر الذرة واكتشف الأفلاك ؟ ركب الطائرة الصاروخية ؟ صار يسمع
ويرى ما يحدث على بعد مئات الألوف من الأميال ؟ صار يستخدم الإشعاع
الذري في تشويبه صنع الله في الطبيعة والأحياء ؟

نعم . ولكن ذلك لم يكن مشكله الأول . بل جاء ذلك كله في الطريق وهو
يبحث في مشكله الأول !

« قال : ما هنا كاربكما عن تلكا الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا
من الخالدين » !

تلك قصة الشيطان مع آدم . وقد استزله بهذا الإغراء الغنيف الذي لم يطق
الوقوف إزاءه . أن يكون ملكا يعرف كل شيء . أو يكون من الخالدين .

المعرفة والخلود . . هما مشكلة الإنسان الأول . فكيف يقف منهما اليوم الإنسان الأخير ؟

ماذا وصل في طريق المعرفة ؟ وماذا حقق في طريق الخلود ؟

العلم ! هذا الساحر السكاذب الذى يبهر العيون . أو هذا المارد الجبار كما تراه أوربا في غمرة السحر . . ماذا كشف من حقائق الأشياء ؟ إنه ما زال مشغولا بظواهر ، الأشياء لا يجرؤ على تفسير « كنهها » ، لأنه اضطر كارها أن يترك كنهها لما وراء الطبيعة ! إنه يتحدث عن « أثر » الكهرباء ولكنه لا يقول « ما هي » الكهرباء . وقد تحدث كثيرا عن قوانين الطبيعة . وقال إن الأشياء تتصرف على نحو معين في ظروف معينة ، ولكنه لم يستطع أن يقول لم تتصرف بهذه الطريقة ، ولماذا لم يكن تصرفها في تلك الظروف على نحو آخر . ما زال « السر » الذى استغلق على الإنسان الأول مستغلقا على الإنسان الأخير ، على الرغم من كل الظواهر التى اكتشفها وعرف قوانينها .

والغيب المجهول ؟ ماذا صنع فيه العلم ؟ وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت . .

هل كشف العلم عن الغيب ؟ هل يستطيع عالم مهما بلغ من علمه أن يعرف ماذا يكسب غدا ؟ بل هل يستطيع أن يعلم غيب اللحظة القادمة القرينة الماثلة على الأبواب ؟ اللحظة التى لا يكاد يفصلها عنه زمن ، ومع ذلك تفصلها عن « علمه » الآماد والآباد ؟

والخلود ؟ كيف صنع فيه ؟ رد الحياة إلى القلوب الميتة ، فعاشت بعد موتها الظاهري دقائق أو ساعات أو سنوات ؟ ليست هذه هي مشكلة الإنسانية ! المشكلة هي الخلود . . الخلود الذى لا ينتهى أبدا ولا يموت الإنسان منه أبدا ! فكم وصل العلم يا ترى لهذا الخلود ؟

تلك مشاكل الإنسانية الأولى التى ألجأتها إلى الدين والعقيدة في الله . أليس كذلك ؟

نقول بلى توفيراً للجدل والنقاش ! فإذا تم فيها لنستغنى عن الدين والعقيدة ؟
إن العلم سلاح جبار دون شك . وهو أحد وسائل البشرية للمعرفة . ولكنها
الخرافة العظمى التى يعيش فيها هذا الجيل من البشرية ، هى التى تخيّل إليهم أنه
الوسيلة الوحيدة للمعرفة ، وأن كل ما عداه خرافة ساقطة من الحساب .
ما أصدق العالم الفيلسوف المعاصر جيمس جينز وهو يقول بعد دراسة علمية
استمرت نصف قرن :

« إن مشاكل العلم الكبرى لا يحلها إلا وجود إله ، »

وما أصدق سومرست موم وهو يقول « إن أوروبا قد نبذت اليوم لإلهها
وآمنت بإله جديد هو العلم . ولكن العلم كائن متقلب ، فهو ينفى اليوم
ما أثبتته بالأمس ، ويثبت غداً ما نفاه اليوم ، ولذلك تجد عباده فى قلق
دائم لا يستقرون ، »

* * *

تلك قصة العلم فى الطبيعة والكيمياء والفلك وعلم الأحياء .
أما قصته فى تنظيم المجتمع ، والاستغناء بهذا التنظيم عن العقيدة ، فلا تقل
قصوراً عن القصة الأولى !
إن أوروبا نظمت المجتمع . تلك حقيقة كبرى لا سبيل إلى إنكارها .
ومع ذلك فإننا نلاحظ هنا ملاحظتين :

إن أوروبا فى سبيل هذا التنظيم قد جففت منابع الإنسانية فى نفوس البشر ،
وحولتها إلى قوالب جافة قد تكون مفيدة ولكنها ليست حية . كالكيمياء
الجاهزة . كالفيتامينات التى تناولها فى أقراص ولكن جسمك لا يفيد منها كما
يفيد من الغذاء الحى الذى تهضمه وتمثله و « تتعامل » معه .

إن هذا الإنجليزى السائر فى الطريق ليبادرك بقوله « Sorry » ، (أنا آسف !)
إذا همت كتفه من بعيد أن تمس كتفك . جميل . ولكنه لا يتعاطف معك .
لا يقف ويعطل نفسه عن عمله ليحل لك مشكلة من مشكلاتك ، إلا أن يكون

هذا جزء آ من عمله الرسمي كرجل البوليس ا أو طمعاً في زيادة حصيلة الدولة من نفودك إذا كنت من السواح ا وفوق كل شيء لا يمكن أن يتحمل من أجلك خسارة مادية ا إنه يتقبل طائعاً أن تأخذ الدولة فضول أمواله في صورة ضرائب أو استقطاعات ، لتردها على الفقراء في صورة خدمات . ولكنه لا يعطف على هؤلاء الفقراء . لا يعرفهم بأعيانهم ، ولا يحب أن يعرفهم أو يعنى نفسه بهمومهم . يكفي أنه أدى واجبه الرسمي نحوهم دون تذر ، أو على الأقل دون إبداء لهذا التذر ا

والحياة على هذا النحو قد تكون أروح في ظاهرها . ولكنها تقطع الصلات بين البشر ، وتجعل كل إنسان جزيرة وحده ، لا تتصل بغيرها من الجزر في الخضم العريض . وإن الله لم يخلق الناس ليعيشوا على هذا النحو . لم يخلقهم ليتعارفوا بقوة القانون وهم في دخيلة أنفسهم متكارهون متنافرون ، أو على الأقل مقطوعو الصلة غير متعارفين . فإله يقول : « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » . وهو يريد أن تقوم العلاقة بينهم على الحب الحى الذى ينفذ إلى القلوب فيلين جفافها ، ويربطها بعضها ببعض .

والأمر الثانى : أن العقيدة لا تمنع التنظيم الاجتماعى على أسس علمية ا وقد قام الفصل بين الدين والدولة ، وبين الدين والعلم في أوروبا للملابسات خاصة هناك . فقد اضطرت المسيحية أن تدع ما لله الله ، وما لقيصر لقيصر ، فيفصل الدين عن الدولة ، ويختص الدين بتهديب المشاعر وتنظيف النفوس ، ويترك الدولة تضجع التشريعات اللازمة للحياة اليومية أو « الواقعية » كما يسميها الأوربيون ، بسبب نشأتها في ركن صغير من الدولة الرومانية لا قبل له . يومذاك - بمحاربة تلك الدولة الغائلة والاستقلال عن سلطانها . ثم إن موقف الكنيسة الأوربية من العلم ، وتحريقها العلماء وتعذيبها للذين جرؤوا على نشر بعض الحقائق العلمية من أمثال كوبرنيكوس وجاليليو ،

هو الذى فصل بين الدين والعلم ، بل أقام بينهما عداوة لا يطفئها مرور السنوات . ولم يحدث هذا وذاك فى الإسلام .

فالدين والدولة فى الإسلام شىء واحد . كان الرسول عليه الصلاة والسلام نبيا ورئيساً للدولة فى ذات الوقت . ثم كان خلفاؤه رؤساء للدولة وقائمين على الدين فى آن واحد . والقرآن — وهو دستور الحكم الإسلامى — يشتمل على الجانبين معا : جانب التشريع وجانب التهذيب . ويشتمل عليهما بمتزجين لا ينفصل أحدهما عن الآخر . ما من تشريع فى القرآن كله قد خلا من توجيه القلب لله وتذكيره بسلطانه وعزته ، أو رحمته ومغفرته : حسبما يقتضى السياق .

ولم يفهم الرسول وخلفاؤه من بعده أن العقيدة عواطف ووجدانات فحسب ، منفصلة عن الملابس اليومية والتشريعات الاجتماعية والاقتصادية . ولا فهموا أن تنظيم الملابس اليومية يجوز أن يتم بمعزل عن العقيدة وعن الصلة الدائمة التى تربط بين الناس والله . لذلك كان الدين بروحه ونصوصه وتشريعانه وتوجيهاته ، يحكم كل كبيرة وصغيرة فى المجتمع . كان الحاكم يصدر الأمر أو القانون ، ويضع السلطة اللازمة لتنفيذه على الوجه الأكمل ، ثم يزوج بين هذا وبين التهذيب الروحى والحقاقى الذى يجعل لإطاعة القوانين منبعثة من أعماق النفس ، برغبة إيجابية فى عمل الخير ، بدل أن تكون إطاعة سلبية ينفذها الناس وهم كارهون أو خائفون .

والمزية الكبرى فى هذه السياسة البارعة هى ربط القلوب بعضها ببعض فى شعور إنسانى كريم ، وإزالة الجفوة التى تثيرها إطاعة القانون بغبر وازع داخل . ومزيتها كذلك ألا يقف الناس عند حدود القانون ، بل يتطوعوا بمحض إرادتهم بأكثر مما طلب منهم . وتلك هى الوسيلة العملية لرفع المجتمع إلى الآفاق الإنسانية العليا . ذلك أن القانون دائماً يضمن الحد الأدنى الذى لا تسير بدونه الحياة ، ولكنه لا يستطيع أن يفرض الحد الأعلى الذى لا يقدر

عليه كل إنسان ، وإلا أصبح قانوننا نظريا لا رصيده من الواقع . وإنما يترك الحد الأعلى للتطوع النبيل يحاوله كل إنسان على قدر طاقته ، ولكل درجات عما عملوا ، و لا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

وهكذا نجد أن التنظيم العلى لشئون المجتمع داخل بأجمعه في نطاق العقيدة ، ولكنه حين يترك وحده لا يقوم مقامها في شد البنيان وربط لبناته بعضها ببعض . وإن موقف العلم هنا أشبهه بموقفه هناك في العلوم البحتة ، يبحث الظواهر ويرتبها ، ولكنه لا ينفذ إلى القلوب وجواهر الأشياء !

* * *

والمسألة الخلقية . . .

إن الناس يقبلون الخضوع للدولة في الشئون الاقتصادية والاجتماعية ، لأنهم قد يصلون لدرجة من الوعي يستطيعون معها إدراك هذه الحقيقة : وهي أنهم حين يتنازلون عن بعض امتيازاتهم في هذه الشئون للمحرومين منها فإن ذلك سيعود عليهم بالخير في النهاية . أو على الأقل يخضعون لها بحكم السلطة التي تملك بها إخضاعهم لأوامرها . ولكن الشأن يختلف في المسألة الخلقية . فالناس لا يتنازلون عن متاعهم ولذائهم من أجل الدولة وحدها . وقد يدرك الفلاسفة والمشتغلون بالقضايا الفكرية أن التحلل الخلقي شر على الإنسانية يعود عليها بالبوار ، ويبعد طاقتها في محيط حيواني هابط ، فلا تتطلع إلى الارتفاع ، ولا تجد الطاقة اللازمة له ، لو اتجهت إليه . ولكن غمار الناس لن يدركوا ذلك ، لأنه قد لا يقع في جيلهم . فقد تظل الأمة سليمة - من الظاهر - جيلا أو جيلين أو ثلاثة ، بينما التحلل الخلقي يسرى في كيائها خفيا كالسوس . فيتعذر على الشخص العادي ، أو الشخص المنجرف بطبعه وراء اللذات ، أن يصدق أن تحلله هو - وهو فرد واحد - أو أن الجريمة العابرة التي يرتكبها خلصة في الظلام ، يمكن أن تؤثر في خط سير المجتمع وتؤدي إلى انهياره . وحتى إذا صدق بذهنه ، فإنه - بغير

تهذيب ديني - لا يستطيع أن يمتنع عن اللذة العارمة التي يحسها من أجل خطر لا يرى أنه سيقع عليه مباشرة ، حتى إذا وقع في نفس الجليل .

فإذا فرضنا أن الدولة من عندها - أي بالقوانين الأرضية وحدها - تعاقب على الجرائم الخلقية حين تضبطها ، فهي لن تستطيع أن ترى كل جريمة ، ولا أن تتعقب كل مجرم . وسيفلت منها كثير من الجرائم بلا إثبات ولا عقاب . ومع ذلك فهذا فرض نظري في الوقت الحاضر ، فدول الغرب و المتحضر ، كلها لا تكاد تعاقب على هذه الجرائم إلا حين تقع كرها أو على القاصرين ١

ولأنما يحتاج الامتناع عن الجريمة الخلقية إلى الارتباط بالله . وذلك وحده هو الضمان .

الارتباط بالله هو الذي يهذب النفس فلا تندفع وراء الجريمة .

وهو الذي يقيم أهدافا أعلى من أهداف الأرض تستنفد الطاقة الجسدية والنفسية الفائضة فتصرفها عن عالم الشهوات .

وهو الذي يقيم في داخل النفس حسيبا يراقب كل عمل لا اتصل إليه يد القانون ولا تبصره عين الدولة .

وهو الذي يعوض الإنسان عن لذائذه الموقوتة التي يتركها في الأرض ، أملا في النعيم الدائم في السماء .

وهو الذي يحدث في نهاية الأمر رهبة من الجريمة أقوى من رهبة الدولة والقانون .

وبهذه العوامل كلها مجتمعة وبنزجة في العقيدة ، يمتنع الناس عن ارتكاب الجريمة . فإذا أضيف إلى ذلك أن تكون القيود التي تفرضها العقيدة معقولة في ذاتها لا تحرم إلا المتاع الزائد عن الحد ، ولا تكبت الشهوات من منبتها ، فقد استوت لها العدالة مع القدرة على التهذيب . وذلك ما يتحقق في العقيدة الإسلامية التي تعترف بالشهوات على أنها الأمر الواقع بالنسبة للبشر : و زين للناس حب الشهوات

من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة .. ، ولكنها فقط تهذب التنفيذ العمل لهذه الشهور ، فتقف بها عند الحد الذي لا يؤذى الفرد ولا المجتمع ، ويتيح في الوقت ذاته قسطا معقولا من المتاع .

* * *

والمسألة الإنسانية ...

لقد أفلحت النظم الأوربية في حدودها الإقليمية الضيقة ، حيث يمكن أن يسود القانون الذي وضعته الدولة وجهات تهذيب الناس في حدوده ولكنها لم تفلح قط على أساس إنسانى واسع يشمل أكثر من إقليم . وإنما حلت محلها فيما بين إقليم وإقليم روح الكراهية والبغضاء والصراع ، وهى النتائج الطبيعية لهذا اللون من التهذيب ، وكانت النتيجة هى الحروب المستمرة ، آخرها هاتان الحربان العالميتان في ربيع قرن ، والثالثة على الأبواب .

وحق الشيوعية التى زعمت أنها قائمة على أسس عالمية لم تستطع أن تحل هذه المشكلة . لأنها قامت على أساس الاقتصاد والمادة ، ونفرت من العقيدة فى الله وسخرت منها . ثم أباحتها - حين أباحتها - على أنها هواية شخصية لبعض الناس لم يفلح فى القضاء عليها الوعظ والإلحاد .

لذلك لم تستطع روسيا فى مبدأ الأمر أن تحس بالآخوة الحقيقية فى الإنسانية نحو العرب المسلمين فى فلسطين ، وساعدت عليهم اليهود ، لأنها فى ذلك الحين كانت تطمع أن تكون الدولة اليهودية قدما شيوعية لها فى الشرق الأوسط . فلما يئست من ذلك عادت فاضطهدت اليهود ، بما كشف عنه ما لنكوف بعد وفاة ستالين . وكذلك لم تستطع أن تغفر لبولندا والمجر رغبتهما فى التحرر من التبعية لروسيا ، ولم يشفع لهما أنهما شيوعيتان تهديان بهدى الشيوعية ، فراحا تقتل منهما مئات الآلاف .

كلا ! إن الآخوة الإنسانية شئ لم يمكن الوصول إليه أبدا بغير عقيدة فى الله .

يستطيع الناس أن يلتقوا في لغة ، أو وطن ، أو جنس ، أو لون ، أو مصلحة قريبة ، دون أن يحسوا حاجة مباشرة إلى العقيدة في هذا اللقاء . ولكنهم حيث تختلف اللغة أو الوطن أو الجنس أو اللون أو المصلحة القريبة لا يستطيعون — بغير عقيدة — أن يلتقوا إلا على الحرب والنزاع .

بينما استطاع الإسلام - وحده في تاريخ الأرض - أن يضرب مثلاً إنسانية عليها استمدتها من شعوره العميق بوحدة الإنسانية ، المستمد بدوره من العقيدة في الله : « اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة » . « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » . فعامل البلاد المفتوحة التي لم تعتنق دينه ولا لغته معاملة إنسانية كريمة شهد بها المؤرخون غير المسلمين على أنها حادث فذ في تاريخ البشرية (١) . وعامل أعداءه الصليبيين - حتى وهم يحاربونه على العقيدة - معاملة مثالية لم يقدر عليها شعب آخر ولا دولة ممن يعيشون في واقع الأرض الضيق ، ولا يربطون عواطفهم ووجدانهم بالله خالق الحياة والأحياء .

* * *

ويضرب الناس في الأرض مضارب شتى . . . فينشأ الصراع .
صراع في عالم العواطف . وصراع في عالم المادة . وصراع في عالم السياسة .
وصراع في عالم الاقتصاد .
صراع مع الزميل في العمل . أو مع الرئيس والمرءوس . أو مع الزوج والأقارب والأصدقاء .
صراع مع الرغبات الواعية أو المكبوتة . صراع مع الشهوات الجاححة .
صراع مع نظريات الفكر المتعارضة . صراع مع المرض . صراع مع العجز البشري والرغبة في التغلب عليه .

(١) انظر كتاب ت . و . أرنولد «الدعوة إلى الإسلام» ص ٥١ - ٥٣ - ٥٤
ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين .

فمن يسند الناس في هذا الصراع ويكسر من حدته حين يزيد عن الحد المعقول؟
الدولة؟ المجتمع؟ القانون؟ القوة العضلية؟ التنظيم الاقتصادي الذي
تجاوله الشيوعية؟

نعم اكل أولئك يسندون في هذا الصراع الجبار . ولكن إلى أمد محدود .
ويبقى بعد ذلك من ألوان الصراع ما لا تستطيع كل قوى الأرض أن تسند فيه .
لأنه أكبر من كل قوى الأرض ، أو لأنه من طبيعة أخرى غير ما تستطيع
كل قوى الأرض أن تتدخل فيه .

عندئذ من يسند الناس وهم يصارعون؟ من غير القوة الكبرى الخالدة
التي خلقت الأرض والسماء ، وهي تتصرف في شئون الأرض والسماء؟ لمن يلجأ
الناس في صراعهم غير هذه القوة التي تنتهي عندها جميع القوى ، ويقف الكل
عندها صاعرين؟

ولقد قطع الناس في الغرب صلتهم بهذه القوة العظمى ، وجعلوا كل مهمهم
في الأرض ، وكل اتكالهم على أنفسهم في الصراع الجبار . ونشأ من ذلك تعمير
الأرض ، ونشاط الناس فيها ، وسعيهم الحديث لإصلاح أحوالها والاستمتاع
بطبيعتها إلى أبعد حد مستطاع .

وذلك كسب لا شك فيه .

ثم نشأ من ذلك أيضاً سعى الشعوب بنفسها لإقامة العدل في الأرض ، لأنها
لا تلتظر عون السماء ولا تتكل عليه .

وذلك كسب آخر .

ولكن هذا الوجه المشرق الذي يفتن السذج والبسطاء فيدعون إلى الاستغناء
عن العقيدة ، بل إلى التخلص منها رجاء التقدم والعمل المنتج . . هذا الوجه
المشرق ليس الوجه الوحيد للمساءلة . هناك وجه آخر كالح كئيب . هنالك البشرية
التي لا تعرف السلام أبداً ولا تهدأ ولا تستريح . هناك القلق الدائم الذي لا ينتهي ،

والاضطراب النفسى والعصبى الذى يودى إلى أمراض ضغط الدم والهستيريا والجنون والجريمة . وهناك الحروب المدمرة التى تفسد الأعصاب والنفوس ، وتلف فى لحظات ما عمرته البشرية فى قرون !

وهذا الوجه نتيجة ملازمة لذاك . لا يوجد الأول دون أن يوجد الأخير . وفى العقيدة الإسلامية لا يمتنع الناس عن تعمير الأرض وعن إقامة العدل فيها . ولكنهم يقتصدون فى الصراع لأنهم يستندون إلى القوة الكبرى التى تستير الحياة والأحياء . وينظفون وسائله حين لا يكون بد من الصراع .

وفرة صدر الإسلام خير شاهد على هذه الحقيقة . فإن النشاط الذى قام به المسلمون الأوائل فى سنوات معدودة ، فى السياسة والاقتصاد والاجتماع وعالم الفكر وعالم الضمير ليعد معجزة فى تاريخ البشرية . ومع ذلك كانت الحياة الإسلامية فى مجموعها أنظف صورة للحياة البشرية على سطح الأرض .

وهكذا نجد أن العقيدة لا تتعارض مع الأهداف التى وصلت إليها أوربا بمعزل عن العقيدة . وإنما تضيف إليها العنصر الذى ينقص القوم هناك فى معاملاتهم كلها . . عنصر الإنسانية !

* * *

وتقع المظالم فى الأرض فلا ترفعها العدالة الأرضية المحدودة . . .
وهل تستطيع عدالة الأرض مهما سمحت ، ومهما اتسعت آفاقها أن تزيل كل مظالم الأحياء ؟

كان الرسول يقول : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلىّ ، ولعل بعضكم أن يكون أشحنَ بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه ، فن قضيت له من حق أخيه بشئ فلا يأخذ منه شيئاً ، فإنما أقطع له قطعة من النار ، !

ذلك وهو رسول والوحى ينزل عليه ، فكيف بالبشر المحجوبة بصائرهم عن غيب الله وغيب النفوس ؟

هذا فى المظالم الفردية . أما فى المظالم الجماعية ، فليس فى الأرض نظام

- مهما كان من عدالة - يمكن أن يكون عادلا لجميع البشر وفي جميع الحالات ، على الأقل لأن تطبيقه في يد البشر المعرضين دائماً للخطأ والانحراف . وحسب أى نظام أن يسمى إلى العدالة لا أكبر مجموعة من الأمة . . أما كلها . . فليس في وسع البشر أن يحققوا ذلك على الأرض !

فكيف يكون حين يفقد الناس ثقتهم باليوم الآخر ؛ وبعدالة الله المطلقة تعويضهم في ذلك اليوم عن ظلم الأرض وتنتقم لهم من الظالمين ؟

ليس التواكل . . وليس تخدير الشعوب لتسكت عن حقوقها المسلوقة (١) .

كلا ! لا نقصد إلى شيء من ذلك . ولا يرضى الإسلام بهذا المنكر الخطير .

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين في الأرض . . . فأولئك ما أوامهم جهنم وساءت مصيرا ، « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يغيروا عليه أو شك الله أن يعذبهم بعقاب ، .
ليس السكوت عن الظلم هو ما يقصد إليه الإسلام .

ولكنها المظالم التي لا تدركها عدالة الأرض ولو قصدت إلى ذلك وانخذت إليه كل سبيل . وألوان الحرمان التي لا تملك الدولة ولا المجتمع أن تزيلها : الضعيف المحروم من القوة . المريض المحروم من الشفاء . الطموح المحروم من المواهب . الفتاة العاطلة من الجمال . الأم المحرومة من الأبناء . . .

فكيف يعيش المظلومون وهم لا يرجون ثواب الآخرة ولا يثقون في عدالة الله ؟ وكيف يعيش المحرومون وهم لا يأملون في عطاء الله السابغ ، وتعويضه الكريم لهم عن الحرمان الذي صبروا عليه ؟

هل يمكن أن تكون حياتهم سوى أحقاد مريضة وشقاء مرير ؟ أو جرائم يضطرب لها وجه الأرض ؟

وهل يملك « العلم ، لهم من علاج إلا العقيدة التي تبعث في نفوسهم الأمل وتطلق في ظلماتهم شعاعا من النور ؟

* * *

(١) انظر فصل « الدين أفيون الشعب » في كتاب « شبهات حول الإسلام » .

وتفسد الأمور في الأرض ، من ظلم الحكام واستهتارهم ، وجهالة الشعوب واستكاثتها ، أو من استغراق الناس في شهوات تستعبد لهم لأنفسهم ولغيرهم . . فيقوم المصلحون ينشدون الإصلاح . وتدفعهم إلى ذلك دوافع شتى .

فريق يؤمن بالله واليوم الآخر ، وفريق لا يؤمن إلا بواقع الأرض المحدود . ولسنا نعتقد أن هذا الفريق الأخير خلو من الشعور الإنساني ، ومن الإحساس النبيل بالآلام البشرية . ولكن أحاسيسهم الشخصية تغلب عليهم . بعضهم يحب البروز إلى حيث تسلط عليه الأنوار . وبعضهم يحقد على الأوضاع الظالمة التي حاولت إيذاؤه أو تحطيمه . ومن كلا الشعورين يمكن أن تنبع رغبة حقيقية في الإصلاح ، ولكنها موقوتة بدوافعها أو متأثرة بانحرافاتهما .

فالذي يصلح لكي يبرز ، يحس أن مهمته قد انتهت في اللحظة التي تهتف باسمه الجماهير وتحمله على الأعناق . وتستعبده شهوة البروز فيسعى أحيانا إلى استرضاء الجماهير على حساب الإصلاح الحق . والناس يستفيدون في الطريق . ولكنها خائفة محدودة ، لا ترتفع بهم كثيراً إلى حيث ينبغي أن يكون الإنسان الكريم . والمهرجون السياسيون كثير في التاريخ . . وهم مثال لما نقول !

والذي يحقد على الأوضاع الظالمة يعمل برغبة حقيقية لتحطيم هذه الأوضاع ، ويشعر بلذة حقيقية في مكافأة الظلم والصمود له وتحمل العذاب في سبيل القضاء عليه . ولكن الحق قد شعور منحرف . ولا يمكن أن يؤدي إلى فلسفة سليمة ولا نظام صحيح . وأبرز مثال لذلك الشيوعية . فهي رغبة مغلصة في الإصلاح ، ولكنها تجمع كل أحقاد البشرية وتجعلها وقودا للكفاح وأساسا للنظام ! فالحق قد يطبق يتمثل في إزالة ، جميع الطبقات وإبقاء طبقة واحدة تعمل بالعنف وتحكم بالديكتاتورية (وهم يعترفون بذلك علانية إذ يسمون حكمهم دكتاتورية البروليتاريا ،) . والحق قد على الملاك يتمثل في نزع الملكية الفردية جميعا وحرمان الجميع من الملكية والحق قد على الممتازين يتمثل في التسوية بين جميع الناس

موهوبهم وعاملهم — في الأساس الفلسفي على الأقل وإن كانوا قد اضطروا إلى ألوان من التمييز عند التطبيق . والذي يجذب الشيوعيين إلى الشيوعية في كل أقطار الأرض ليس هو حب الخير للبشرية بقدر ما هو الحقد العنيف من المحرومين على الواجدين . وبصرف النظر عن المبررات المكشوفة لهذا الحقد ، فإن أثره لا يخفى في بنية النظام القائم على أساسه . فهذه الدكتاتورية التي تتحكم في كل شأن من شئون كل فرد بحجة استتباب النظام ، وبحجة أن الدولة أدرى من الناس بمصالحهم ومواهبهم وميولهم ، فهي تعين لهم أعمالهم ، وتحدد لهم المسكن الذي يعملون فيه ، وهي تصنع لهم أفكارهم ومشاعرهم . . . هذه الدكتاتورية التي لا يخفف من انحرافها أن تسمى دكتاتورية الطبقة العاملة ، ليست نظاما طبيعيا يمكن أن تحكم به الإنسانية الراقية إلى الأبد ، ولا حتى مدى أجيال . وذلك فضلا عن نضوبها الروحي وتحديدها بحال الإنسان بالواقع الصغير الذي تدركه الحواس فحسب ، وحصرها مطالبه في الغذاء والمسكن والجنس . . أى في مطالب الحيوان .

تلك دوافع الذين « يصلحون » دون إيمان حقيقي بالله وبالיום الآخر . وذلك مدى ما فيها من خير في نهاية المطاف .

ولكن الإصلاح الحق يحتاج إلى الحب الصادق العميق . الحب لمن تريد أن تصلحهم ولولم يتبعوك على الفور ويصفقوا لكلماتك . الحب للطفاة أن يهتدوا وللظلمين أن يرتفع عنهم الظلم . الحب للناس أن يكون العدل ملكهم جميعا كأنه ملك كل واحد بمفرده ، والخير ملكهم جميعا كأنه ملك كل واحد بمفرده . الحب للبشرية أن تقوم علاقتها على التعاون والود ، لا على الصراع والبغضاء .

وعلى قدر الإخلاص في هذا الحب ، وتحمل المشقات في سبيله ، ومصارعة الشر من أجله وليس حقا على الشر فحسب ، يكون نجاح الدعوة ، وتكون فائدة البشرية . ولذلك كان الأنبياء أعظم قادة البشرية ، وكانت رسالاتهم أعمق الرسالات تأثيراً في النفوس .

ويتلوهم من سار في طريقهم ، واحتمل قبسة من إيمانهم المخالص العميق .
ولن يستطيع ذلك شخص لا يؤمن بالله واليوم الآخر .
لحين نسقط من حسابنا دوافع البروز الشخصى أو الحقن الشخصى ، فما الذى
يمكن أن يدفع للإصلاح ؟ لمن يتحمل الإنسان المصاعب وهو لا يرجو بها نفعاً
قريباً ولا يطنى بها غلة ؟ وما الذى يغريه على احتمال العذاب حين يتنكر له حتى
أولئك الذين يدعو من أجلهم ويحتمل العذاب ؟ أو من يغريه بدعوة يعلم علم
اليقين أنها لن تؤتى ثمارها فى الجليل الذى يعيش فيه ؟
هل يمكن أن يدفعه إلى ذلك شىء غير الحب الخالص لله ، وابتغاء مرضاته
والإيمان بحسن الجزاء عنده للحسنين ؟
وتلك — وحدها — هى الدعوات التى يغلب فيها الخير على الشر ، وتصمد
لكثير من انحرافات البشرية !

* * *

ومن الناس من يريد عقيدة بلا تكاليف .
عقيدة سلبية كامنة فى داخل الضمير ، لا أثر لها فى واقع الحياة .
فما قيمة هذه العقيدة ؟ وكى تكسب الإنسانية من اعتناقها ؟
يقولون لك تارة إن « العلم » . . علم النفس ، يكره القيود التى تفرضها
العقيدة على السلوك ، ويعدّها كوابت للنشاط الحيوى .
ويقولون تارة « إن ربك رب قلوب » ، وما دام الضمير نظيفاً من الداخل ،
فقد تحقّق الهدف المطلوب من وراء العبادة ، وإذن فلا ضرورة لتأدية العبادة !
وهذه وتلك دعاوى براقة تفنّن بعض الناس . . على الأقل أولئك الذين
يتشبّهون بها ليبروا مسلكهم !

أما العلم النفسى فقد بحثنا شأنه بالتفصيل فى غير هذا الكتاب ، ورأينا
أن العقيدة الإسلامية لا تكبت النشاط البشرى ، وإنما تسير الفطرة أجمل المسيرة

لنخلص منها بأفضل النتائج الممكنة في عالم الإنسان (١) .

ومن هذه المسائرة للفطرة كذلك كانت التكليف في العقيدة الإسلامية ، فالإسلام لا يأخذ الكائن البشري أجزاء وتفاريق . لا يأخذ روحه ويترك جسمه وعقله . لا يأخذ عالمه النظري ويترك عالم الواقع . لا يأخذ ضميره ويترك سلوكه . لا يتركه حالة مبهم لا تفصح عن الطريق . والحياة البشرية في واقع الأرض لا تسكتني بالنوايا الطيبة ، ولا تستغني بها عن التطبيق .

فلنفرض أن شخصاً يؤمن بما يسمونه « الديمقراطية » ، ثم لم يشأ أن يشترك في انتخاب ، ولم يهتم بتفضيل مرشح على مرشح ، ولا حكومة على حكومة ، فما مكسب الديمقراطية منه ، وما مكسبه هو من الديمقراطية ؟ ولنفرض أن شخصاً يؤمن بالشيوعية ، ثم لم يجعل في باله أن يقاتل في سبيلها أو يحتمل السجن والعسف والتشريد ، ولم يشترك في اجتماع ولم يقرأ كتاباً ولم ينفذ التعليمات الصادرة إليه في النشرات . فكم يكسب منه « المذهب » ، وكيف يستطيع هو وأمثاله أن ينشئوا نظاماً ويدفعوا عنه ؟ وكذلك كل عقيدة . .

هؤلاء المؤمنون السليبيون الذين يعتقدون أنهم وصلوا إلى لب العقيدة وتركوا قشورها . . مخدوعون يخادعون أنفسهم . لأنهم يؤمنون في « السلم » . يؤمنون طالما كانت العقيدة لا تكلفهم شيئاً ولا تعرضهم لخطر . إيمان الراحة والترف والاسترخاء . أما حين يتعرضون للتكليف ، في الأنفس أو الأموال . أو في الجهد والمشقة . أو في الحرمان من بعض اللذائذ . . فسرعان ما يضيقون بهذه التكليف . وينزويون بأنفسهم عن ميدان الصراع .

(١) انظر كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » فصل « نظرة الإسلام » وكتاب « منهج التربية الإسلامية » .

ذلك أنهم لم يعودوا أنفسهم على احتمال التكاليف . لم يشاءوا أن يتعودوا التكاليف البسيطة التي تؤهلهم لما هو أكبر .

رفضوا أن يقيدوا أنفسهم بمواعيد محددة وأعمال بسيطة يؤدون بها الصلاة ، ورفضوا أن يمنعوا أنفسهم عن بعض الملهيات ساعات معدودة أثناء الصيام . فلا يمكن أن ينقلبوا في لحظة واحدة قادرين على التكاليف الكبرى التي تلزم لكل عقيدة . إنهم كالجندي الذي يذهب إلى الميدان بغير تدريب . أقرب شيء إليه أن يفِر من الميدان لا أن يصبر على الصراع .
والحياة عادة . .

قالذي يعود على أن يترك نفسه على سجيته لإبائه عن تحمل المشقة ، أو اطمئنانا عادة إلى أنه يستطيع حين يريد أن يحدد نفسه بغير تدريب سابق . . ذلك ان يستطيع شيئاً في واقع الأمر .

وهل كان الشيوعيون يستطيعون أن يصمدوا كما صمدوا في ستالينجراد لو لم يكونوا قد درّبوا من قبل تدريباً قاسياً على احتمال العذاب في الثلوج الباردة والشمس الحارقة والامتناع عن الطعام والشراب فترات طويلة ؟
وليس الكفاح من أجل تقرير العقيدة أو الدفاع عن كيانه هو الكفاح الوحيد في الحياة . وإن كان هذا في حاجة إلى إعداد دائم تقوم به جميع الأجيال .
ولنما الحياة كلها كفاح . . .

والمعركة الكبرى ليست هي الحرب التي تستغرق لحظات من حياة البشرية ،
لنما هي الحياة ذاتها على الانساع !

ولذلك فالتدريب ضرورة لازمة لكل فرد في كل جيل . ضرورة لازمة لهذا الفرد ذاته . وإلا فكيف يكون حال شخص لا يستطيع أن يمتنع عن شهوة أو يتحمل بتكليف ، والحياة تلزم الناس رضوا أو كرهوا ، بالامتناع عن كثير من الشهوات والتحمل بكثير من التكاليف ؟
والإسلام عقيدة حياة . .

عقيدة الحياة الشاملة للنشاط كله ولجميع الأهداف .

ومن ثم كانت عباداته منظوراً فيها إلى التدريب بمعناه الواسع . التدريب على الحياة . وذلك فضلاً على ربط القلوب بالله ، وهو كما رأينا الضمان الأكبر لنظافة الحياة . ومن ثم كذلك اتسع معنى العبادة في الإسلام حتى شمل كل عمل يأتيه الإنسان وهو متوجه به إلى الله (١) .

* * *

ويقولون لك إن كثيراً ممن يقومون بتكاليف العقيدة بل ينتظعون فيها ، هم في حياتهم الخاصة من الفساق الذين لا ذمة لهم ولا ضمير ، أو من الجبناء الذين يهربون من الكفاح ، أو من الذين يقول القرآن فيهم : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، . . أي حياة »

نعم ! ذلك حق !

فكثير من الناس منافقون ومخادعون ، وكثير منهم منحرفون عن سواء السبيل . لا تؤتي الترية في نفوسهم ثمارها المنظورة .

ولكن هل يعني ذلك أن نلغى العقيدة من حياتنا ، أو نلغى تكاليفها الظاهرة ونكتفي بها كأمثة في الضمير ؟

كلا ! فالمنافقون في كل مكان على الأرض . في كل مذهب وكل فكرة . في الشيوعية والديمقراطية والملكية والجمهورية ! ومع ذلك لا نلغى الأفكار والمذاهب من أجل أولئك المنافقين والمنحرفين وهم الكثرة الغالبة في البشرية ! وكذلك لا نلغى العقيدة أو نهمل مراسمها وتكاليفها من أجل المنحرفين والمنافقين ! وإنما يظل بابها مفتوحاً لكل فرد في كل جيل ، ليطلبه ، ويرتفع ، ويرفع معه من يستطيع من أفراد البشرية .

ولا ضير على البشرية من الملايين الزائفة حين يهتدى المئات والآلاف . فهؤلاء هم الذين يكافون حقاً ، ثم يمسون في أيديهم الزمام !

العلم وحيرة البشرية

قسم فرويد تاريخ البشرية إلى ثلاث مراحل ، عصر الحرافة ، وعصر التدين ، وعصر العلم .

ثم حمد الله كثيراً ، أو حمد الشيطان ، على أننا نخلصنا من المرحلتين الأوليين إلى الأبد ، ودخلنا المرحلة الثالثة التي يظللنا فيها العلم ، وتتفتح لنا أضواء المعرفة فتنير لنا الطريق .

وحمد الله مثله أو حمد الشيطان مئات الملايين من الأحياء اليوم على ظهر الأرض في الغرب ، المتحضر ، والشرق ، المتأخر ، سواء . وانطلقوا ينسلخون من الدين ، وينفعلون من ذلك القيد الذي قيدتهم به جهالة الأزمان الغابرة ، ولم يعد يليق اليوم بكرامة العقل البشري الجبار أن يظل مقيداً به ، وقد وصل إلى أسرار المعرفة ، وحطم الذرة ، وأطلق طاقتها لتحدث الفناء المدمر الرهيب !

وقد أشرت في كتاب « شبهات حول الإسلام » ، إلى الرواسب اللاشعورية التي رسبت في نفوس الأوروبيين من عهد اليونان القديمة ، والتي كانت تمثل الحياة صراعاً جباراً بين الآلهة والعباقرة من البشر ، يحاول الآلهة أن يكبتوا أولئك العباقرة ، وهؤلاء يحاولون أن يغتصبوا من الآلهة أسباب القوة والمعرفة والنجاح . وقلت إن هذه الرواسب جعلت الأوروبيين يحسون أن الضعف - وحده - هو الذي يخضعهم لله ، فإذا تقورا ، إذا وصلوا إلى أسرار المعرفة ، فلم يعد للإله كلمة عليهم وصاروا هم في نهاية المطاف آلهة !!

لذلك تطغى عليهم المعرفة ، وتبعدهم عن طريق الله : « إن الإنسان ليطنى ، أن رآه استغنى ، بدلاً من أن يهديهم المنطق السليم إلى القوة المعجزة وراء العلوم والأسرار . ولكن أوربا إذ نبذت إلهها قد أصبحت كما قال سمرست يوم في قلق دائم لا تستقر (١) .

(١) أشرنا إلى قوله هذه في فصل « العلم والمقيدة » .

ولست حيرتها ناشئة من تقلب العلم بين النفي والإثبات كما أشار سومرست
هوم لحسب ، بل إن تقدم العلوم ذاته قد أنشأ حيرة جديدة !

* * *

كان الناس في عهد الخرافة يفسرون الحياة كلها بمجاهيل .
البرق إله ، والمطر إله ، والظلام إله ، والنور إله ، وبعض الحيوانات
المرهوبة آلهة . وبعض البشر المزودون بقوة خارقة آلهة أو متصلون بالآلهة
يتلقون عنهم أسرار الحياة .

وكان السكون ذا طبيعة « تليثائية » ، على حد تعبير فرويد وبعض علماء
الاجتماع ، أى أن الإنسان كان يعتقد أنه حين يفكر فى شيء أو شخص فإنه يتصل
به مباشرة بصرف النظر عن الحواجز والأبعاد ، وأنه إذا أراد أن يوصل إليه
خيرا أو يلحقه بضرر فما عليه إلا أن ينوى ذلك ، أو يقوم بحركات تمثل
هذا الخير أو الشر ، أو ترمز إليه ، ثم يتوجه بها - فى خاطره - إلى من يريد
إبصالها إليه ، فتصل بمجرد النية أو العزيمة . ومن هنا كان السحر ، وكانت
الرموز التى تستعمل فيه . فإذا اغتاط إنسان من عدوه فليصنع دمية تمثله ،
ثم ليطن الدمية بالسيف ، فإن السيف لن يقتل الدمية وحدها ، ولكن مفعوله
السحري سيصل كذلك - فى ذات الوقت - إلى العدو الأصيل . وإذا عبد إلهما ،
وأراد أن يتقرب إليه بالقرايين ، فليقم له تمثالا وليضع القرايين عنده ،
فإنها ستصل إلى الإله الرموز له بالصنم المعبود .

ثم ارتقى الناس فى عهد التدين فعرفوا أن هناك إلهما خالقا هو الذى خلق
الناس والأشياء ، وأن قوى الطبيعة ليست آلهة متعددة ، وإنما هى مظاهر مختلفة
لقوة الله الواحد ، تخضع لمشيئته ، وهو الذى يسيّرهما وفق القانون الذى ارتضاه
وكان العلم قدينا أن يستمر فى تقدمه فى ظل هذه العقيدة .

ولكن ظروفنا محلية فى أوروبا أفسدت العلاقة بين الدين والعلم . وأوجدت

بينهما النفور والشقاق . ذلك حين تدخلت الكنيسة فيما لا يعنهما ، وفرضت
لنفسها رقابة على أفكار الناس وعقولهم . وقامت تحرق العلماء وتعذبهم
حين يصلون إلى بعض نظريات العلم وحقائقه ، كما حدث لسكوپرنيكوس ،
وجاليليو ، وغيرهما من العلماء .

عند ذلك نشأ جيل من العلماء يعادى الكنيسة ، ويكره الدين ، ويظن
أن الحقائق العلمية تسير في خط مضاد للفكرة الدينية بحيث لا يمكن أن يوجد
معا في نفس الإنسان ولا في واقع الحياة . وأنه إما الدين وأما العلم .
إما الدين في صورته البشعة التي تمثلها الكنيسة : تحرق وتعذب ، وتفرض
الإتاوات ، وتلاحق الناس بالشر حيثما ذهبوا ، وإما العلم الذي لا يخضع لسيطرة
بشر ، وليست له كذلك قيود يفرضها على البشر ، وإنما هو يبحث ويجرب ،
ويحدث الناس بما وصل إليه البحث والتجريب ، ويهدف - فيما يهدف إليه -
إلى منفعة الناس : يوفر عليهم الجهد البدني ، ويقمهم المرض والأخطار .

ولم يكن ثمة مجال للتردد حين توضع المسألة على هذا النحو . .

واختار الناس العلم ونبذوا الدين والكنيسة . . والله .

وزاد الأمر سوءاً أن هذه الأزمة الفكرية الروحية لم تسكن قد هدأت بعد
حين أضيفت إليها أزمة أخرى اجتماعية واقتصادية نشأت من الثورة الصناعية
بعد اختراع الآلة .

لقد تحطم الإقطاع في غرب أوروبا ونشأت الرأسمالية . وكانت في بدء عهدها
نوراً جديداً يبشر بالخير ، ولكن سرعان ما تحولت إلى استغلال منكر يمتص
دماء العمال ليزيد في الثراء الفاجر يتكدس في يد الرأسماليين . أما في شرق أوروبا
فقد بقي الإقطاع في أبشع صورة وعاه له التاريخ .

وثارت الطبقة الكادحة في الشرق والغرب . فقام رجال الدين يهددونهم

بغضب الله ! غضب الله لأنهم يقاومون ظلاماً ما أنزل الله به من سلطان . . !

وكفر الناس . . . وحق لهم أن يكفروا . كفروا بكل القيم الأرضية والسموية . كفروا بالدين والكنيسة فوق كفرهم السابق . وتطلعوا إلى الإله الجديد لعله ينقذهم بما هم فيه من هوان .
وأحس الأوربيون أنهم دخلوا في مرحلة ثالثة من تاريخهم . هي مرحلة العلم .

* * *

ومضى العلم في طريقه قدماً يحقق ما يشبه المعجزات . . .
إن الناس ليفركون عيونهم من العجب في بادية الأمر ، ولا يكادون يصدقون . ولكن حقائق العلم لا تدع لهم سبيلاً إلى التشكك . وكيف يتشككون وهم يرون أمامهم القطار والسيارة والآلة الضخمة . . ثم يرون السكهرباء تنير منازلهم وشوارعهم وتدير المصانع والآلات . . ثم يجدون الراديو يعمل بلا سلك والصور تنقل بالتليفزيون بعد أن كان التليفون البسيط من قبل معجزة لا تحتمل التصديق ؟
وقال لهم العلماء : هلم أيها الناس إلى الإله الجديد . هلموا اتركوا خيالات الماضي المبهمة التي تحدتكم عن أمور لا نستطيع حواسكم أن تدركها ، ولا يمكن أن تدخل في نطاق تجاربكم . هلموا اتركوا الدين الذي يفسر لكم الأشياء بإرادة الله - وهي لا تفسر شيئاً - وتعالوا إلى العلم الذي يفسر لكم كل شيء بقوانين مفهومة يدركها العقل ويستطيع أن يقين فيها الخطأ والصواب .

يحدثونكم عن الله الذي أنشأ كل شيء من العدم . . هل يمكن عقلاً أن ينشأ شيء من لا شيء ؟
إن الخلية الحية الأولى لم تنشأ من العدم . . والحياة التي دبت فيها إنما هي عمالية كيميائية طبيعية تمت في ظروف تاريخية معينة لم تتكرر مرة أخرى . لماذا ؟ أوه !! لا تهتموا بهذه الأسئلة التي لا مدلول لها في واقع الحياة واصرفوا نشاطكم فيما هو أفيد لكم وأنفع !!

ولقد راطوا لكم بفكرة الله مجموعة من الحرافات التي لا تخضع لمنطق العلم .
يحدثونكم عن النبوات والمعجزات . ما معنى أن « يُبعث » نبي ؟ وما معنى أن ينزل

عليه « وحي » ؟ كيف يتم هذا الإيجاء ؟ هل هذا معقول ؟ إنها « تهيموات »
لا أكثر ولا أقل . . . وهذه المعجزات لا يمكن أن قوانين الطبيعة لا يمكن
أن تخرق أبدا . . . لا يمكن أن ينشق البحر . ولا . . . ولا . . .

ويحدثونكم عن الروح . ما الروح ؟ كيف تثبتون وجودها لإثباتا عليها ؟
ما الدور الذي تقوم به في واقع الأشياء ؟ هل تجعل المواد تتمدد كما تصنع الحرارة ،
أو تتقلص كما تصنع البرودة ؟ هل تنعكس على المرايا ، أو الألواح الحساسة
كالضوء والأشعة السينية وما إليها ؟

ويحدثونكم عن العالم الآخر . ما هو ؟ هل رأيتموه ؟ هل يمكن أن يدخل
في تصوركم ؟ هل يمكن تصويره بالكاميرا ؟ أو التحسس عليه بالرادار ؟
خرافات . . . كلها خرافات أيها البشر . . . لا تشغلوا بها عقولكم . ووجهوا
تفكيركم إلى النشاط العمل الذي ينتج ويفيد !

* * *

ونصرف النظر مؤقتا عن أن هذه الملابس المحلية وحدها هي التي أوجدت
الفرقة بين الدين والعلم ، وأنه لو أتيتحت لأوروبا فكرة أخرى - كالفكرة
الإسلامية - لا تعادى العلم والعلماء ، ونظام اجتماعى واقتصادى عادل - كالنظام
الإسلامى - يحرم تركيز الأموال في يد فئة قليلة من الأمة ، ويجعل الربح شركة
بين العامل وصاحب العمل ، ويسكفل لكل فرد حياة نظيفة تنهيا فيها المطالب
الأساسية للإنسان ، ويجعل الدولة مسئولة عن أقوات الناس وصحتهم
وحرمانهم وكراماتهم . . .

لو أتيتحت للناس في أوروبا هذه الفكرة وهذا النظام لا يمكن أن يسير العلم
سيرة سوية في ظلال العقيدة ، لا يصادمها ولا يحتاج إلى معاداتها .

ونصرف النظر عن ذلك مؤقتا ، للسير مع العلم في خطواته الجبارة . . .

* * *

كانت قضية العلم الأولى أن ينقذ الناس من الغموض والإبهام الذى يصاحب العقائد ! ينقذهم من المجاهيل التى لا تقبل التفسير . ويعطيهم د معلومات ، معلومات ثابتة يقوم عليها البرهان المادى المحسوس .

وفى وسط الحيرة والفرع اللذين سادا أوروبا فى القرون الوسطى ، لأسباب مختلفة كانت الكنيسة واحدا منها ، بدا للناس أن العلم مخلص حقيقى من الحيرة والاضطراب .

واطمأنوا إلى أنهم يقفون على أرض صلبة لا تهتز تحت أرجلهم . أرض العلم . أرض الأبحاث التجريبية التى لا تخطئ . ولا يمكن أن تخطئ .

وتنازلوا فى سبيل هذه الطمأنينة عن حاجتهم البشرية الطبيعية إلى العقيدة ، والاتصال بالله ، والاستعانة بقوته فى صراع الأرض الجبار . خاصة والله - كما صورته لهم الكنيسة - يبلبل أفكارهم بقضية التثليث ، ولا يسعفهم فى صراع الأرض لأنه يقول لهم : د من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ، ومن أراد أن يأخذ رداك فأعط له الثوب أيضاً .

ومضى العلم فى خطواته المرسومة يفتح كل يوم عالما جديدا من المجهول . ووصل إلى ميادين لم يكن يتصور أحد أو يصدق أنه يستطيع أن يصل إليها . فى أغوار السماء وأغوار الأرض . . وأغوار النفس البشرية .

وملأت البهرة والإعجاب قلوب الناس بهذا الإله الجديد الجبار . . . الإله المفهوم . الذى يمكن إدراكه بالحواس ، وقياسه بالآلات ، وحسابه بالأرقام ! ولكن الفرحة الغامرة لم تدم طويلا فى نفوس الأوربيين !

وجاء اليوم الذى ناقض العلم فيه نظرياته ، الثابتة ، التى لا تقبل الجدل . كان كشف نيوتن لقوانين الجاذبية معجزة لا يفرق بينها وبين معجزات الأنبياء د الموهومة ! ، إلا أنها داخلة فى نطاق المعقول ، قابلة للحساب الدقيق . .

ثم . .

جاء إينشتين ليقول إن قوانين نيوتن محلية بحتة . لا تفسر إلا هبادة صغيرة من كيان هذا الكون . وإنها تؤدي إلى نتائج خاطئة حين تطبق على الكون الكبير . وقال علماء الطبيعة إن الضوء ينطلق دائماً في خط مستقيم . .

ثم عاد علماء الطبيعة يقولون إن الضوء ينحرف بتأثير الجاذبية فلا ينطلق في خط مستقيم !

وقالوا إن الزمن حقيقة مطلقة . .

ثم عادوا يقولون إن الزمن حقيقة نسبية . وإن الشيء الواحد أو الحدث الواحد يكون حاضراً بالنسبة لك في هذا الكوكب ، وماضياً بالنسبة لكوكب آخر ، ومستقبلاً بالنسبة لكوكب ثالث !

وقال الكيميائيون إن العناصر والمركبات تسلك سلوكاً واحداً في جميع الظروف المتماثلة .

ثم عاد الكيميائيون يقولون إن بعض العناصر والمركبات المنتجة في المعمل تسلك سلوكاً مخالفاً للتوقع منها حسب « حتمية » القوانين الطبيعية !

وقال الأطباء : لا نأكلوا إذا مرضتم بالمرض الفلاني واكتفوا بالسوائل لأن الأكل في هذه الحالة خطر محقق على الصحة .

ثم عاد الأطباء يقولون : كلوا إذا مرضتم بهذا المرض . فالأكل إحدى وسائل الشفاء !

وبدأت الحيرة التي أشار إليها سومرست موم .

ولكنها لم تكن الحيرة الوحيدة . .

لقد كانت الحيرة العظمى هي ما نتج عن أخطر فتح في ميدان العلم الحديث :

تفجير الذرة !

كان العلماء قد قالوا للناس إن « المادة » هي أساس الحياة والكون . حتى لقد وصلوا في ذلك إلى حد الانحراف والتهوس . إلى حد تفسير كل شيء في نطاق

المادة . ولو كانت النفس الإنسانية هي موضوع التفسير ، وإلى حد نكران كل ما ليس بمادة . فأنسكروا الروح لغير شيء سوى أنها ليست مادة تسمى أو تُفحص ! كانوا يقولون : هذه هي « الحقيقة » . حقيقة ملبوسة واضحة المعالم والحدود . حقيقة لا غيبات فيها ، ولا إلهام ولا غموض . حقيقة لا تلجئنا لقوة أخرى خفية لا نراها ، ولا تدركها الحواس .

ولجأة . . اهتزت الأرض الصلبة ، وزلزلت زلزالا شديدا ، وتناثرت سحب الغبار تملأ الآفاق ، وتسد طريق النور . .

وانتظر الناس . انتظر العلماء حتى يهدأ الغبار النائر وتستقر الأرض من زلزالها العنيف .

ونظروا . . . فإذا الأرض الصلبة التي يقفون عليها قد انداحت من تحت أرجلهم ، وإذا هم معلقون في الفضاء . . فوق السحب الضالة التي دفعتها قوة الانفجار في طريق غير محدود !
« المادة » لم تعد مادة !

لقد انفجرت وانطلقت فإذا هي « طاقة » ،
ووقعت الحيرة الكبرى . إن كل حقائق العلم السابقة عرضة للتغير على هذا الأساس الجديد : وهو أن السكون كله والحياة كلها طاقة . وأنه ليس ثمة مادة إلا للنظرة السطحية التي لا ترى غير ظواهر الأشياء . وأن الفواصل بين المادى وغير المادى أصبحت غير ذات موضوع !

وانطلقت السحابة الشاردة في دفعة من دفعات الانفجار العنيف ، فانتقلت لجأة من ميدان « الطبيعة » إلى « ما وراء الطبيعة » . وإذا الفرق بينهما ليس بالضخامة التي تخيلها العلماء وهم يعيشون في عالم المادة ! ويحسبون أن هناك فارقا جوهريا بين المادة المحسوسة والضوء المنطلق في الفضاء والطاقة التي لا تراها العيون . وزلزلت الأرض كرة أخرى ، فإذا العلماء في حيرة كبرى . .

« الحقائق ، التي توصلوا إليها من قبل .. ما هي اليوم في ضوء الحقائق الذرية ؟
« المعرفة ، التي عرفوها .. ما نصيبها اليوم من المقدرة على تفسير الأشياء ؟
ما هذه الطاقة ؟ ما سرها ؟ ما كنهها ؟ ما حقيقتها ؟
يستطيع العلم أن يشهد ظواهرها ويسجل مظاهرها ، ولكن « هي »
في جوهرها . ما هي ؟

كان الناس والعلماء قد استقروا حين حسبوا أنفسهم وصلوا إلى حقيقة الكون
أو حقيقة المادة . فما الحقيقة اليوم في العصر الذري الجديد ؟ أهى « معلوم »
يعلمه الناس ويستطيعون أن يلبوا بجوهره ؟ أم « مجهول » ، خفى لا تُشاهد
إلا مظاهره الخارجية ، وتظل حقيقته عميقة في أغوار المجهول لا تصل إليها العقول ؟
قصة الصبي الذي أعطى مفتاح القصر المسحور ... ففتحه غرفة غرفة ، وبهره
ما لقيه هناك من عجائب وأسرار ، كل غرفة تحوى أشياء أعجب من سابقتها .
حتى وصل إلى الغرفة الأخيرة ، وهناك قرأ تحذيراً من الدخول ! ولكنه لا يتردد
إلا هنيهة ؛ إنه يريد أن يزداد معرفة وعلماً . وماذا يخشى اليوم وقد تمرس بكل
أنواع المعلومات في الغرف السابقة ؟
وأخيراً أقدم وفتح الباب المحظور ..

وهناك .. تقول القصة إنه وجد ما أذهله عن معرفته السابقة ، وأنساء كل
العالم المنظور ، وغاب في الملكوت !

* * *

لقد أدرك العلماء اليوم أنهم ضلّوا الناس حين زعموا لهم أنهم يستطيعون
تفسير كل شيء في الكون بقانون مفهوم !
أدركوا أن دعواهم بأن العلم يستطيع أن يفسر المجاهيل كلها لم يكن سوى خرافة !
وأن العصر الذهبي للعلم - في نظرهم - العصر الذي سيطر فيه الإله الجديد فجعل
يثبت ما يدخل في إدراكه وينفى ما لا يقع في نطاقه ..

هذا العصر كان عصر الخرافة الكبرى ا

وأن الخرافة التي سيطرت على عقول البشرية في فجر التاريخ - قبل عصر التدين - لم تكن الخرافة الوحيدة في تاريخها . وأن الخرافة الجديدة - التي تزعم أن العلم يفسر وحده كل شيء - ربما كانت أخطر من الأولى وأخبت في إفساد المدركات ، وإفساد العلاقات بين البشر ، لأنها تعطل - أو تسقط من حسابها - جوانب من الكون ومن النفس البشرية ، ربما كانت أعمق وأفضل ، وأنفع ، للناس من كل ما يقع في نطاق المعلوم !

وبدأ هؤلاء العلماء - بعضهم على الأقل - يكفرون عن خطيئتهم السابقة في تضليل البشرية ، وجرها إلى خرافة أخطر على كيائها من خرافة ما قبل التاريخ . بدأوا يقولون للناس : نحن لا نعلم ! وما أوتينا من العلم إلا قليلا ! بدأوا يقولون لهم : إن هذا المارد البشرى الجبار ، الذي استطال في الأرض وحسب أنه قادر على كل شيء ، قد تضائل فجأة . تضائل بشدة ، حين فتح باب الغرفة المحظورة ، فانفتحت أمامه كوة على المجهول !

وكما خرج الناس من الخرافة الأولى إلى النور الحق الذي يضع الأشياء في مواضعها ، ويفتح مغاليق النفس لتتصل بالقوة الكبرى ، فتدرك ببصيرتها ما تعجز عن إدراكه بأفهامها . .

كذلك يخرج العلماء واحداً تلو الآخر من الخرافة الثانية - خرافة أن العلم يفسر كل شيء - فيدخلون إلى النور الحق . . نور العقيدة المشرق المضى . العقيدة - فيما يظهر - هي الملجأ الوحيد من الخرافة . هي النور الوحيد الذي يكشف المجهول .

قال جيمس جينز ، العالم الفلكي الذي بدأ حياته ملحداً شاكاً : إن مشاكل العلم الكبرى لا يحلها إلا وجود إله .

وقال ألدوس هكسلي ، العالم الطبيعي والفيلسوف الأديب : إنه لم يعد لنا

مناص من الاعتراف بأن بعض البشر مزودون بالقدرة على استشفاف المجهول بطريقة خارجة عن نطاق الحواس. وإن جهلنا بالطريقة التي يتم بها هذا الاستشفاف لا يبرر إنكارنا له . فإنه لا يزيد على جهلنا بالطريقة التي تتم بها عملية الإدراك وعملية التذكر. من منا يستطيع أن يعرف كيف تتم معجزة التذكر؟ أو الإدراك؟ كذلك نحن لا نعلم كيف يتم الاستشفاف ، ولكن رغم ذلك حقيقة عليية . . ثم استشهد في نهاية مقاله بالدكتور راين أحد العلماء المشتغلين في هذه الأبحاث ، حيث قال : إن هذه الحقائق تدخلنا رويدا رويدا إلى عالم الدين !

وقال أ. كريسي موريسون، رئيس الأكاديمية الأمريكية للعلوم بنيويورك في كتابه «العلم يدعو للإيمان (الإنسان لا يقوم وحده Man does not stand alone): «إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لانهاية لها ، تكون الحياة بدونها مستحيلة . وإن وجود الإنسان على ظهر الأرض ، والمظاهر الضخمة لذكائه ، إنما هي جزء من برنامج ينفذه باري الكون .

«إن الإنسان ليكسب مزيداً لا حده من التقدم في كل وحدة من وحدات العلم . غير أن تحطيم ذرة دالتون - التي كانت تعد أصغر قالب في بناء الكون - إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب وإلكترونات طائرة ، قد فتح مجالاً لتبديل فكرتنا عن الكون والحقيقة تبديلاً جوهرياً . ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادي . وإن المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم لتفتح مجالاً للإيمان بوجود مدبر جبار وراء ظواهر الطبيعة . . . والبقية ما تزال في الطريق . . .

ولن يكون الهدف هو القضاء على العلم ولا نبذ النتائج العلمية التي توصل إليها ، والتي نتحقق كثيراً من الخير . وإنما الهدف تصحيح الأوضاع في الأرض وإطلاق العلم في طريقه السوي في ظلال العقيدة .

ولكن الناس ، لا يريدون بعد أن يصدقوا ! لا يريدون أن يخرجوا من عالم

الخرافة الذى يعبدون فيه ! وتعز عليهم معبوداتهم التى يحسبونها حقيقة ،
ويأنسون إليها كما كانوا يأنسون من قبل إلى الأصنام والأوثان !
وتبدو لهم العقيدة أمراً عجيباً بعيداً عن التصديق ! كيف يتركون الصنم
المحسوس الذى يرونه رأى العين ، ليعبدوا لها بعيداً عن أنظارهم لا تمبدى
ذاته للحس القريب ؟

ولكن النتيجة الأخيرة ليست موضع ارتياب .

فسوف يتبع الناس أنبياءهم المحدثين - علماء اليوم - وهم يدخلون بهم
إلى الساحة الكبرى التى يغمرها النور . . النور الحق . . نور العقيدة المشرق
الماضى . . وإلا فسوف يظل الشيطان يضلهم كما ضلهم من قبل ، ويدفع بهم
إلى الحيرة والاضطراب .

الصِّراع

هل الصراع ضرورة بشرية ؟ بحيث لو خلت منه النفس الإنسانية والحياة البشرية لنقصت كل منهما عنصراً أساسياً في كيانها ؟ أم هو مرض يصيب النفس والمجتمع ، ونشاط ضار كالأورام الخبيثة التي تصيب الجسم فتفسد كيانه ، وتقضى عليه في النهاية ؟

يحلم الشيوعيون بعالم خلا من الصراع .
ومن قبل كانت « اليوتوبيات » - أو العوالم المثالية الخيالية - تحلم هذا الحلم ، وترسم له صوراً مبدعة من صنع الخيال . .
ولكن الصراع مع ذلك حقيقة !

وأنا أحسب أنه قائم في طبيعة الكون كله ، وليس في طبيعة الإنسان لحسب .
انظر إلى الأفلاك كلها في الكون العريض . . كل فلك يقع بين الشد والجذب لمجموعة من الأفلاك الأخرى ، وهو لا يأخذ مساره المنتظم المتوازن إلا بوجوده بين هذه الأفلاك ، وتعرضه لشدّها وجذبها جميعاً القوة تجذب عن يمين وقوة تجذب عن شمال ، ثم ينتظم الكوكب في مداره المرسوم . ولو بطل الشد والجذب لهُوى الكوكب في الفضاء إلى حيث لا يعلم أحد ، ولا يستطيع أن يتصور أحد !

كل ما هناك أن هذا الشد والجذب قائم بمقدار ، حسبما قدرته القوة المعجزة التي أنشأت هذا الكون من العدم ، والتي تدبر أمره وأشرف عليه . وهدفه المرسوم هو إيجاد التوازن في الكون ، وليس هدفه الإفناء والتحطيم . فكل كوكب يتعرض منه للقدر الذي يحفظ توازنه في النهاية ، ولا يعرضه للتناثر والتفكك ، إلا حين تكون تلك هي المشيئة العليا للقوة التي تدبر أمر هذا الكون العريض .
ثم انظر إلى الحياة على الأرض . .

إنها مثل من أمثلة الصراع الأزلى الدائم الذى لا يفتر ولا يضعف ولا يهن .
كل نبات له آفة . وكل حيوان له عدو . .
والمد والجزر بين الفريقين دائماً متناوبان .
كل ما هناك أن حركة الصراع الدائمة بين هذه المتناقضات تهدف إلى إيجاد
التوازن الدائم بين قوى الأرض ، فلا تطفى قوة على الأخرى ، ولا تنفرد
وحدها بالسلطان !
وعالم الإنسان كذلك . . الصراع عنصر من عناصره الأصلية ، وضرورة
لا نستقيم بدونها الحياة .
ضرورة يشير إليها تركيب الإنسان ذاته من جسم وعقل وروح ، مختلفة
المطالب متباينة الاتجاه .
وتشير إليها رغبات الإنسان التى لا تقف عند حد ، وطاقته المحدودة
التي لا تستطيع تلبية الرغبات كلها ، سواء رغبات الجسد أو العقل أو الروح .
يشير إليها تطلع الإنسان الحسى والمعنوى إلى السماء ، إلى الطيران والتحليق ،
والجاذبية الحسية والمعنوية التى تثقله إلى الأرض ، وتشده إليها شداً .
يشير إليها اضطراب الإنسان إلى مقاومة كثير من الآفات والأمراض والقوى
الطبيعية لكي يعيش ، فضلاً عن أن يرتفع بحياته إلى حيث يرجو من الارتفاع .
ويشير إليها أخيراً وجود الشر فى الأرض كحقيقة واقعة ، واضطرار الخير
أن يصارع الشر لكي يثبت وجوده ، فضلاً عن الغلبة عليه فى نهاية المطاف .

* * *

ونبدأ بهذا العنصر الأخير .

هل أمكن فى الواقع العمل القضاء على الشر ومحوه من الوجود ؟
تلك هى الشيوعية التى زعمت أنها أمت وسائل الإنتاج لتبطل الصراع - الذى
لا منشأ له فى زعمهم إلا السعى لتلك وسائل الإنتاج - تلك هى الشيوعية تنهم برها

بالسعى إلى السلطان ، وتحاكمه وتعدمه - لثبوت النعمة في نظرها - رغم أنه تربى في ظل النظام الشيوعى وارتفع في ظله من القاعدة إلى القمة .

وهذا هو ستالين - بعد أن مات - يُتهم في روسيا بالدكتاتورية والطغيان ، والانحراف عن مبادئ الشيوعية ، والآثرة والآنانية ، وارتكاب الجرائم بلا وازع ولا ضمير !

فما معنى ذلك ؟

معناه أن إبطال الملكية الفردية لم يبطل نوازع الشر في النفوس ، وأن هذه النوازع - في بعض النفوس على الأقل - أعمق كثيراً من وسائل الإنتاج ! ولا نحتاج أن نذهب إلى المدى الذى ذهب إليه فرويد حين افترض أن بذرة الشر - مقترنة بعقدة أوديب - موجودة في كل نفس .. كل نفس في هذا الوجود . ويكفي أن نقول إن بعض النفوس أميل إلى الشر وأقدر عليه .

فماذا يصنع الخير إزاء هذا الشر الموجود ، إذا لم تكن له القدرة على الصراع ؟ من هنا نقول إن الصراع ضرورة بشرية . وعلى هذا النحو نفهم الآية التى تقول : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » . أى لغاب الشر وأصبح هو المسيطر على الأرض .

نعم . ضرورة بشرية . مادام البشر هم هؤلاء البشر . وحياتهم هي هذه الحياة . والخالق - سبحانه - قد زود مخلوقاته بضروراتها .

ومادام الصراع ضرورة للبشر فقد زود البشر بالقدرة على الصراع .

زودهم بها في أجسامهم وعقولهم وأرواحهم ، وكيانهم كله .

فهو إذ أعطاهم أجساماً تشتهى ، وعقولا تفكر وأرواحاً تحاق ساعية إلى النور ، زودهم كذلك بالقدرة على التوفيق بين هذه جميعاً . وإن يقوم التوفيق بينها إلا بشيء من الصراع . شيء من التدافع . حتى نستطيع أن نقول : إنه لولا دفع هذه القوى بعضها ببعض لفسدت النفس .

ولنتصور إنسانا يسير في خطه الجسدى إلى آخر مداه ، فينساق مع شهواته ويصبح في النهاية عبدا لهذه الشهوات . هل تتحقق له سعادته الفردية فضلا عن أثر هذا الانسحاق في بنية المجتمع ؟ إن الشهوة لا تهدأ بإشباعها الدائم ، بل تصبح سعارا دائما لا ينقطع ، وعذابا دائما لا يستقر .

أو نتصور إنسانا يسير في خطه الروحى إلى آخر مداه ، فيكبت نشاطه الحيوى ولا يسمح له بالوجود في كيانه الواعى . هل تتحقق له سعادته الفردية فضلا عن أثر هذا الكبت في وقف الحياة - وقف النسل ، ووقف عمارة الأرض - بوقف النشاط الجثمانى ؟ إن الكبت عذاب دائم لا يهدأ صاحبه ولا يستريح .

أو نتصوره سار مع عقله ومنطقه لا يستجيب لدفعات الجسد أو هوائف الروح . . إن الذهن - على ألمعيته ونشاطه الفائق في محيطه الخاص - قوة بليدة لا تنفعل . وآلاف من الأعمال التى لا بد منها لتسيير دفة الحياة قد لا يسيغها منطق العقل ، خاصة حين يتجرد ويدخل فيما وراء الطبيعة ، وينكر حقائق الأشياء الظاهرة ويقول إنه ليس لها وجود مادى ! !

إنه لا بد من التوفيق بين هذه المتناقضات .

ولن يكون التوفيق بينها إلا بشد بعضها بعضا نحو نقطة التوازن في منتصف الطريق . وتلك بذرة الصراع في داخل النفس الإنسانية . وهى ضرورة لا يستقيم بدونها الكيان النفسى للبشر .

فإذا وسعنا الدائرة قليلا وجدنا فى النفس الواحدة بذرتين تنموان فى اتجاهين مختلفين . ففي نفس الإنسان كيانان متميزان : كيانه كفرد مستقل ، وكيانه كعضو فى جماعة . كلاهما أصيل فيه . وليس أحدهما مفروضا عليه من الخارج . فهذا الفرد الذى يحب ذاته : « إنه يحب الخير لشديد » ، ويحس أحيانا أن ذاته هذه هى محور الوجود كله وملء فراغه ، هو نفسه يضيق بذاته الفردية ، ويحس

كانها سجن يذقبض عليه وتكاد تفتك به وحدته ، فيسعى إلى الناس ، إلى المجتمع ، فرارا من وحدته وأنسا بالآخرين .

هاتان بذرتان متناقضتان ، لو استجاب لإحدهما استجابة كاملة لقضت على الأخرى ، أى لفضى جزء من النفس على الجزء الآخر . ولا بد من التوفيق بينهما . ولن يكون التوفيق إلا بشد إحدهما للأخرى نحو نقطة التوازن في منتصف الطريق . ونخرج من النفس الواحدة إلى النفوس المتعددة ، فنجد شديها لهذا التناقض وهذا الصراع . نجد تناقضا بين نفوس الناس ومصالحهم وشتى اتجاهاتهم . تناقضا لا بد من التوفيق بين جزئياته . ولن يكون التوفيق إلا بشيء من الصراع لرد القوى المتطرفة إلى نقطة التوازن في منتصف الطريق .

الصراع إذن ضرورة .

وحكمة الخالق العليا قد اقتضت التوفيق بين المخلوقات وضروراتها ، فجعلت بذرة الصراع موجودة في داخل الكيان النفسى ما دامت ضرورية لواقع الحياة . والفكرة الإسلامية تقرر الصراع على هذا النحو : على أساس أنه ضرورة لازمة لمنع الفساد عن الأرض ، ولإيجاد التوازن في الحياة البشرية . وأنه - لهذا السبب - موجود في بنية النفس الإنسانية .

ولكن الفكرة الإسلامية فكرة متوازنة ، لا تشتط ولا تتطرف إلى أقصى اليسار أو أقصى اليمين .

فبينما تقوم الحضارة الغربية اليوم على الصراع الخالص : صراع بين الأفراد لا تحكمه إلا الضرورة ، وصراع بين الأمم لا تحكمه إلا غلبة السلاح .

وبينما تقوم الشيوعية على فكرة أن الصراع ذاته ينشئ الاضطراب في المجتمع ، فلا بد من القضاء عليه لكي يستريح المجتمع ويستقر إلى الأبد (وإن كانت في الواقع في حاجة إلى صراع دائم للقضاء على نوازع الصراع ...٢١).

فإن الإسلام لا يعتبر الصراع هدفاً في ذاته . ولا يقر كذلك أنه هو بذاته الذى ينشئ القلق والاضطراب فى حياة البشرية .

الإسلام يفهم الصراع على أنه وسيلة للتوفيق بين المتناقضات ، ووسيلة بعد ذلك لرفع الكائن البشرى عن عالم الضرورة ، وعن وهدة الشر ، إلى حيث يستطيع أن يخلق - سوياً متوازناً - فى عالم النور .

وهو لهذا يوازن عنصر الصراع فى داخل النفس .
يوازنه أولاً بعنصر الحب .

فلو أن الصراع نبت وحده فى داخل النفس - وهو طاقة طبيعية تنشأ نشوءاً ذاتياً كما أسلفنا - فلن يؤدي غير مهمة واحدة ، هى الكراهية والنفور . هى التباذ والتناحر . هى الحرب المدمرة التى تعمل للهدم ولا تعمل للبناء .

والحب هو الذى يستطيع أن يوازن عنصر الصراع فى النفس ، فيخفف حدته ويكسر شوكمته ، أو « يستأنسه » فلا يهيج إلا حيث ينبغى له أن ينطلق لتحطيم الشر ، لتحطيم العناصر التى تقف فى طريق الحب ، وتمنع البشرية أن تستمتع بظلاله . والحب نبتة إنسانية طبيعية ، تنشأ نشوءاً ذاتياً فى باطن النفس . وهو سابق فى وجوده على الكراهية والصراع . كذلك اعترف فرويد دون أن يقصدا (١) . ولكنه لا يستمر فى نموه ، ولا يزدهر ويتزعرع إلا فى بيئته الطبيعية وجوه الملائم .

فى داخل الأسرة يتلقى الطفل أول نسمة من نبات الحب الرخية التى يتفتح لها قلبه الصغير .

من صدر الأم الدافئ وبين ذراعيها الحائيتين يحس بالأمن والراحة ، ويفتح عينيه مطمئناً إلى عالمه الصغير . .

ثم يكبر قليلاً ويتطلع إلى أبيه . . ومن مناغاة الأب ورعايته يطمئن إلى عالم

(١) انظر كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » فصل « القيم العليا » .

أوسع من الثدي الذى يطعمه والذراعين اللتين تحملانه .. ويدلف رويداً رويداً إلى العالم الكبير .

وبغير الأسرة ، بغير أم وأب يمتلكهما الطفل ملكية كاملة ، وبحس أنه لامنازع له فيهما - فى العامين الأولين على الأقل - لا يترعرع الحب الذى يوازن بذرة الصراع ، فينشأ الصراع وحده نافراً كالاشواك .

لذلك يحرص الإسلام حرصاً شديداً على كيان الأسرة . ويقيم فكرته كلها : الروحية والفكرية والاجتماعية - والاقتصادية كذلك - على تخصيص الأم لمهمتها الخطيرة فى تكوين البشرية .

لأنه يريد للناس أن ينشأوا متوازنين .

ولكن المدنية الحديثة - المدنية الحقاء التى أطار صوابها الكسب المادى والإنتاج الآلى - قد نزعت الأم من طفلها المتشبت بها ، المتطلع إليها ، لتضعها فى المصنع والمنجر والطريق . وسمت ذلك تحريراً للبرأة . . لا جرم يكون ذلك تحريراً للبشرية من عنصر الإنسانية ١

والمحاضن التى يلمسون بها الأطفال ، يلمسون بها الأجيال المقبلة من البشرية ، لن تكون إلا منابت الشوك الذى يمزق غداً أجيال البشرية ١

* * *

وبعد ذلك يقيم الإسلام توازناً آخر لعنصر الصراع .

فهو لا يكتفى بأن يوازنه بعنصر الحب ، حتى لا ينقلب إلى نفور مطلق وخيم . ولكنه يوازن كذلك مكانه من الكيان النفسى والطاقات البشرية . .

فحيث تعمل بعض العقائد - كالهندوكية - على توجيه طاقة الصراع كلها أو معظمها إلى داخل النفس لكبت الجسد ، وغل نشاطه بحجة التطهر والارتفاع .. وحيث تعمل بعض المذنبات - كالمذنبية الأوربية الحديثة - على توجيه طاقة الصراع كلها أو معظمها إلى خارج النفس ، فتعمل على تحطيم الآخرين من بنى البشر (على الأقل خارج حدود الدولة أو القومية ذات السيادة) . .

يعمل الإسلام على توجيهها - بقدر - إلى الداخل والخارج على السواء ،
في الحدود المعقولة التي لا تدمر النشاط الحيوى ولا تدمر كذلك الآخرين ،
ولأننا نسمح لكل بالعمل في الحدود المأمونة للجميع .
والإسلام في ذلك حكمته . .

فتوجيه طاقة الصراع كلها أو معظمها إلى الداخل ينظف النفس حقاً
من شهواتها ، ولكنه يقتل نشاطها وينشئ فيها سلبية معيبة تجاه الحياة . سلبية
لا تنتج ، ولا تقاوم الشر حين يقع ، ولا تضيف شيئاً إلى رصيد الحياة الدائم الثناء .
وتوجيه هذه الطاقة كلها أو معظمها إلى الخارج ينشئ قوة إيجابية حقاً .
قوة تلتج وتخلق جديداً كل يوم . وتفتح وتتوسع . ولكنها تقضى على نفسها
بحاقة في نهاية الأمر ، لأنها تهمل تنظيف داخل النفس ، ولا تتعرض لتهديب
الشهوات . فتعصف هذه الشهوات في النهاية بكل ما أنتجته تلك القوة الإيجابية
من خير مفيد .

أما التوجيه المتوازن فهو يوجه إلى داخل النفس من طاقة الصراع ما يقف
في طريق الشهوات الجاحمة ، ولكنه لا يحبسها من منبعها ، ولا يعترض طريقها
المشروع ، أى أنه لا يكبتها ولا يستقذرها في ذاتها ، وإنما يحدد لها فقط
سبيلها المأمون .

ويوجه من هذه الطاقة إلى خارج النفس ما يحول دون وقوع الشر ، ولكنه
لا يقف في طريق الرغبات المشروعة للآخرين ، فلا يعطل إنتاجهم ، ولا يشغلهم
عنه بالدفاع عن أنفسهم ضد الاعتداء . ويقيم نظامه على أساس «إنساني»
لا قومى ضيق ، ولا مذهبي متعصب ، يتعاون فيه البشر كلهم لخير الإنسانية .
وبذلك يتجنب السلبية المريضة كما يتجنب الإيجابية المعتدية ، ويحقق من الخير
على وجه الأرض أقصى ما يستطيع .

ويوم كان المسلمون يفهمون من دينهم هذه الحكمة ، أو يدركونها ببصيرتهم ،

كانوا هم القوة العاملة على وجه الأرض ، الممسكة بمشعل النور تضيء به للبشرية الطريق .

ويوم انصرفوا بطاقة الصراع إلى داخل النفس وأخرجها ، انصرفوا عن سبيلهم الأقوم ، وحل بهم ما يحقق سنة الله في المنحرفين عن صراطه المستقيم .

* * *

وإذ يعلم الإسلام أن الصراع طاقة ضرورية لداخل النفس وخارجها ، فإنه يتعمدها بالرعاية والتوجيه .

فهو لا يتركها تظنى عن حدودها المعقولة ، بل يعقلها بالحب من أول الطريق . ولا يتركها كذلك تذوى وتضعف لسبب من الأسباب ، لأن ضعفها ينشئ انحرافاً آخر في النفس الإنسانية . ينشئ فيها الترهل والتخاذل والانحطاط . .

فالجسم الذى لا يقوم بأية رياضة ولا جهد ، يصيبه الترهل ، وتنحط قوته ، ولا يعود قادراً على تحمل شيء من الأعباء ، أو مقاومة شيء من الأدواء . وسرعان ما يصيبه التلف والبوار .

وكذلك النفس التى لا تدرب على الرياضة والجهد . . تضعف وترهل . . وتصبح نفساً مائعة متهاوية لا تقف في صدام ، ولا تتحمل مواجهة الواقع بما فيه من مشقات . ولا تصلح - فضلاً عن ذلك - لعظام الأمور التى تحتاج لمزيد من الجهد ، لأنها أحفل بالمشقات .

ومن هنا تظل هذه النفس تدور في محيط تافه ، وتهاوى حتى تستحيل إلى فتات .

لذلك يرمى الإسلام في النفس قوة الصراع . فهو يكره التفاهة المتهاوية ، ويكره تحول الناس إلى فتات ، وهو يعدم دائماً للنشاط والرفعة ، والقوة والنماء . يرعاها بشتى ألوان التدريب .

وفي بعض عباداته - كالصوم - تدريب لطاقة الصراع في داخل النفس .

وفي بعض توجيهاته - كالغروسية - تدريب لها في مواجهة الناس والأشياء .
وهو يختار لذلك لفظة « الجهاد » ،

جهاد النفس بنهبها عن الهوى . وجهاد الأعداء بالتدريب على القتال .
وجهاد الظلم من الحكام أو المحكومين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
والتغيير عليه . .

وبذلك ينقذ النفس من الترهل ، ويصل في الوقت ذاته إلى تصحيح الأوضاع
في المجتمع البشري كلما مالت إلى الانحراف .

وهي لمسة واحدة من القوة المعجزة ، تضع كل شيء في مكانه الصحيح ،
فندور العجلة كلها في اتجاهها الصحيح . . .

مقياس الحياة

هل للحياة مقياس ؟

خطر هذا السؤال في بالى أول مرة وأنا أستعرض في خيالى حياة

حارس المنارة .

أهو حى ؟

ذلك الرجل المنقطع عن الحياة والأحياء . هناك في عرض البحر . وحده .
وحده من كل نأمة وكل حركة إلا أصوات الموج المصطخب أحياناً ، الهادىء
الرتيب أحياناً أخرى . وصوت الريح المزججة في غضب عنيف تارة ، المرسله
رخاء تارة أخرى . وهذا الشعاع من النور الذى يرسله في الفضاء لئلا يراه السفن
من مكان بعيد .

أهو حى ؟ ذلك الرجل المنقطع عن الحياة والأحياء . الصامت لا يتحدث .
الساكن لا يتحرك . الذى يعيش في بقعة محدودة لا يملك أن يزيد عليها شيئاً
في الفضاء الواسع الممتد حوله لغير نهاية ؟

أهو حى ؟ وحتى الماء والطعام لا يصلان إليه إلا مرة كل أسبوع أو مرة
كل أربعين يوماً . وهو معلق بمرور السفينة التى تحمل إليه هذا الطعام ، كأنها
القدر الذى يحمل الحياة . . أو الغناء .

أهو حى ؟ هل يحس أن بينه وبين الحياة رابطة ؟

أهو حقيقة ؟

أم هو شخص أسطورى . . شبح يلعبه الإنسان في خياله ، ولا وجود له
في عالم الحقيقة ؟

وانتقل إلى الخيال يستعرض قوماً آخرين بينهم وبين حارس المنارة شبه بعيد أو قريب .

سكان الواحات . . المنقطعون عن الوادي . المحدودة حياتهم بحدود الواحة ، لا تكاد تتعداها إلا في مواسم قليلة ، والمواسم مع ذلك لا تخص سكانها جميعاً ، وإنما تتصل بأفراد قليلين .

هل هم أحياء ؟

وسكان القرى في الريف المصري . . سكان تلك الجزر المتباعدة المنقطعة في خضم الحياة .

هل هم أحياء ؟

والموظف الذي يعيش هناك . لا تصل إليه الحياة إلا أصداً في الصحف أو المذياع . ولكنه لا يراها . ولا يشارك فيها . لا يدير بنفسه ولو دترساً ، ضئيلاً في عجلة الحياة الضخمة . بل لا يملك أن يشتبك عفواً في أحد التروس الدائرة فيدور معها شوطاً يسيراً في الواقع أو الخيال .

هل هو حي ؟

* * *

وانسع السؤال في خيالي ، واتخذ طريقاً آخر . . هل للحياة مقياس يمكن أن نقيس به حياة هؤلاء الأشخاص ، فنعرف أحياء هم أم غير أحياء ؟

مقياس مدرج يمكن أن يقول لنا : هذا حي في درجة الصفر ، وذلك حي في درجة المائة .

ولذا وجد هذا المقياس فامفرداته ؟ أو درجاته التي يقيس بها الأحياء ؟ وهل نستطيع أن نعرف به « درجة » الحياة عند حارس المنارة وساكن الواحة وساكن الريف ؟

ثم أيهما الخي بهذا المقياس - إن وجد - الرجل الأمريكى المتوفز - فى ظاهر العين - حياة وحركة ، أم الرجل الصينى الذى يبدو - لظاهر العين - بليداً بطيئاً لا يتحرك ولا يعيش ؟

واستبعد السؤال بنفسى حتى أحدثلى أزمة حقيقية ! أزمة عاطفية وفكرية .
أزمة تملأ أعماق نفسى وتصل إلى أغوارها .

هل للحياة مقياس ؟

فلنستعرض هذين النموذجين اللذين يعيشان على طرفى نقيض :

الأمريكى لا يهدأ لحظة من يقظته إلى منامه .

يقوم فى الصباح متوفزاً فيجرى مندفعاً إلى دورة المياه فيصاح من شأنه .
ويفطر على عجل ، ويخرج مهرولاً إلى عمله . يركب سيارته وينطلق بها مسرعاً
إن كانت له سيارة . أو يركب السيارة العامة فتنتطلق به إلى آخر ما يتاح لها فى الزحام
من انطلاق . أو يسير على رجلبيه كأنه يسابق الزمان إن كان العمل منه غير بعيد .
ثم تتاح له مثلاً فرصة عشر دقائق فى وسط العمل ، فيركب مصعداً سريعاً ،
يصعد به إلى الدور الحشرين أو الستين . . . فإذا هناك مكتبة . فيندفع إلى الرف
فيخرج كتاباً ، ثم يقرأ فيه بسرعة مجنونة مدة خمس دقائق ، ثم ينزل فى المصعد
السريع ويعود مهرولاً إلى العمل .

ويجىء يوم الأحد ، فيركب هو وأسرته السيارة منطلقاً إلى المزارع والغابات
بأقصى سرعة تتاح له إلى منتصف الطريق . ثم يمكثون هنيهة يتناولون فيها
الطعام على عجل ، ويعودون إلى السيارة ، فتقودها زوجته بأقصى سرعتها
ليعودوا إلى المدينة .

حركة دائمة . نشاط مستمر . سرعة فى كل شئ . . . سرعة تبلغ حد الجنون !
هل هو حى حقاً ذلك الأمريكى الذى ينطلق كالآلة ويعيش كالآلة ؟
هل يستمتع حقاً بالحياة . . . وهل يحس بها فى زحمة هذا الانطلاق المجنون ؟ !

والصيني رجل هادئ وثيد لا يكاد يتحرك (١) . الزمن لا يساوى شيئاً في حسه وفي حياته . فعلام ينطلق ، وعلام يندفع ، وعلام يهرول كالجنون ؟ كل شيء يمكن أن يتم بهدوء . وإن « تطير » الدنيا إذا سار عشر خطوات في الدقيقة بدلا من مائة . ولن يحدث شيء في الوجود إذا جلس مع صديق له « يدرش » من الصباح إلى الظهر ، أو من المغرب إلى ساعة متأخرة من الليل . أو إذا جلس وحده . .

ما الذي يمكن أن يحدث ؟

يموت فلان أو يولد فلان ؟ أو يحدث لفلان حدث من الأحداث ؟ وهل الحياة إلا مثل هذه الأحداث ؟

فما السرعة وما العجلة ؟ هل تحول هذه السرعة دون وقوع ما لا بد أن يقع ؟ وهل تتأثر حركة الأفلاك حين يهرول كالجنون ، أو يجلس ساكنا ساعة بعد ساعة أو عاما بعد عام ؟

وهل الحياة إلا متعة فانية لا تتلبث ؛ فهما سابقتها الإنسان فهي تسبقه . مهما انطلق فهي أسرع انقلانا . ومهما صنع فالزمن يغلبه بالضعف والعجز والشيخوخة ؟ فالمتعة الحققة إذن ليست متعة الأرض . . . ليست هذه اللحظات المذاهبة إلى غير رجعة . الفانية في عالم المادة . . إنما هي متعة الروح . الروح الخالدة التي تستطيع وحدها أن تغلب الزمن . لأنها لا تعرف الفناء . . .

لذلك يتصوف الصيني ليقهر الزمن في عالم الروح ، في الوقت الذي ينطلق الأمريكي كالجنون ليقهر الزمن في عالم المادة .

ولكن هل هو حي ؟ هذا أو ذاك ؟ وما مقياس الحياة ؟

(١) في الصين اليوم حركة ونشاط ، ولكنها - فيما أرى - حركة عابرة هي نتيجة تفاعلات مؤقتة . فإذا استقر التفاعل عادت إلى طبيعتها . وهي مع ذلك حركة لا تشمل كل الأفراد . فما زالت الكتلة هادئة وثيدة لا تكاد تتحرك ، وإن كنت أرجو أن تكون الصين قد ولدت حقاً من جديد .

(٢)

نعم . ما مقياس الحياة ؟

هذا الفتى الغارق في لذائذ الحس ، لا يدع لحظة تمر إلا أن يكون فيها متعة
تشبع رغبة جامحة في كيانه . أو تستثير رغبة أخرى . .

الخمر والنساء . . والملبس والطعام . . والفراش الوثير . . والمسكن الأنيق . .
في كل شيء متاع ، وفي كل شيء لذة . فما الذى يمكن أن يحتجز الإنسان عن
ذلك المتاع ؟

التفكير ؟ وما قيمة التفكير ؟ وفيم يفكر الإنسان ، إلا في الطريقة التى يريد
بها نصيبه من متعة اللحظة الحاضرة ؟ وما المستقبل الذى يمكن أن يفكر فيه ؟
أليس هو لحظات كالتي يعيش فيها الآن ، تسمى المستقبل لأنها لم تجيء بعد ،
ولكنها حين تجيء تصبح كاللحظة التى يعيش فيها اليوم ، وكاللحظة التى مرت أمس .
كيف عاش هذه وتلك ؟ عاشها . استمتع فيها بما كان في يده من متاع . فلماذا
إذن يفكر ؟ وفي أى شيء ؟

وهذا الفتى الذى حرم نفسه من كل لذائذ ذلك المقتنون ، لأن له في
الحياة هدفا ، يريد تحقيقه ويجاهد في سبيله .

هدف أعلى من لذائذ الجسد ومتعة اللحظة الحاضرة .

هدف يحقق الخير لمجموعة من الناس . . ولو على حساب راحته وأعصابه
ونصيبه من الحياة .

يقوم في الصباح . . لا موعد مع فتاة . . لا موعد على كأس . . لا وقت لنزهة .
لا جلسة للسمر بلا هدف . . لا فراغ من الوقت يسعى لقتله ، على نحو من الانحاء .
ولأنما هو الصراع . .

صراع الشر في الأرض . . ممثلا في مجتمع فاسد أو فكرة منحرفة أو حق
مهضوم .

صراع يملأ وقته وحياته . ولا يلفته إلى نفسه وإلى نصيبه من المتاع . .
وهذا الفتى الثالث الذى لا يعرف لذاته الجسد ، ولكنه كذلك لا يصارع
فى خضم الحياة . .

الفتى الغارق فى أحلام من المثل العليا الرفيعة المشرقة . . أحلام تملأ نفسه
فلا تترك فيها فراغا للجسد ، ولا اتجاها لممارسة الحياة فى الواقع . .
فتى مرهف الحس رقيق الشعور . . لا يرتكس فى الشر ولا يهبط إلى حيوانية
الفريزة . واسكنه منعزل كذلك عن الناس . لا يكرههم ولا يتمنى لهم الشر . بل هو
شديد العطف عليهم والحب لهم . ولكنه يكره جهد الواقع ويعيش فى الأحلام .
أيهم حى ؟
وما مقياس الحياة ؟

* * *

لو أخذنا مقاييسهم الشخصية فكل واحد من هؤلاء حى فى نظر نفسه ،
وحياته هى الحياة . وأغلب الظن أنه ينظر إلى حيوات الآخرين نظرة
السخرية والراءاء !

فالأمريكى إذ يجعل مقياس الحياة الحركة والنشاط الجسدى والإنتاج المادى ،
يرى أنه أشد أبناء الأرض حيوية ، ويرى الصينى فى عداد الأموات !
والصينى إذ يجعل مقياس الحياة انطلاق الروح من قيود الجسد ، والتأمل
فى ملكوت السماء ، يرى نفسه زاخرا بالحياة الحققة ، ويرى الأمريكى آلهة منطلقة
بلا مشاعر . . ولا حياة !

والفتى الغارق فى لذاته الجسد يرى كل شىء عدا ذلك عبثا وإضاعة وقت .
ويرى أنه هو وحده الذى يفهم الحياة حق فهمها ، ويعيشها على أصولها .
بينما الفتى المكافح لا يرى فيه أكثر من حيوانها بظ يأكل ويشرب ويستمتع
ولسكنه لا يعيش . وإنه هو الذى يعيش حقاً . يعيش الحياة فى أعلى مستوياتها .

أما الفتى الحالم فقد يحترم المكافئين ويقدرهم . ولكنه - في غالب الظن -
مغيبط بحياته كما هي . يراها - على خوائها من كل واقع ملموس - غنية بالمشاعر
والأفكار ، غنية بالسبحات العليا التي تمثل في نظره لباب الحياة !

وتظل الحيرة كما هي . وتظل الحياة بلا مقياس !

* * *

المقاييس الشخصية إذن لا تصلح لقياس الحياة .
فهل هناك مقياس موضوعي تقيس به هذه المتناقضات ، ونضعها في مكانها
الحق بعضها بالنسبة لبعض ، وبالنسبة لحقيقة الحياة ؟
وتتبدد الحيرة في أياما وأسابيع . . . وسنين !
ثم أفكر في فكرة . . . لعالمها تفتح الطريق . . .
ما عيب كل واحد من النماذج السالفة ؟
وهل هناك نفس « نموذجية » تقيس بها انحراف هذه النفوس ؟
وتعود إلى حيرتي القديمة . . .
ولجأة . . . في وسط هذه الحيرة الشاملة ، تبرز إلى خاطري صورة ، وتبرز
أمامي شخصية فذة . . .

تبرز شخصية محمد بن عبد الله .

محمد - صلوات الله وسلامه عليه - هو النفس النموذجية !

انظر إلى جوانبه المتعددة جميعاً . . . إنه يجمع في كل منها نفساً كاملة !

إن فيه روحانية صافية تعدل وحدها روحانية المسيح . والمسيح روحانية
شفافة خالصة .

وفيه طاقة عملية تنفيذية فريدة في التاريخ . . . قبسة منها في نفس أبي بكر وعمر
أنشأت العالم الإسلامي في رقعة واسعة من الأرض ، في فترة خاطفة بالنسبة
لكل حركات التاريخ .

وفيه حيوية جسدية فياضة تعدل وحدها رجلا كل همه متاع الأرض .
ومع ذلك فهي لا تشغله - رغم استمتاعه بها - عن الكفاح لإعلاء كلمة الله
في الأرض ، وعن الروحانية الشفافة التي تقبس من نور الله ، وتشمل العالم كله
حبا صافيا رقيقا كالملائكة الأطهار .

يتحرك في واقع الأرض . . فتنتج حركته بناء أمة فريدة البناء . . غير
محبوكة في الزمن كله منذ بدء الخليقة .

ويسكن إلى ربه في لحظات المتعة الروحية المرفقة الطليقة . .
ولا ينسى نصيبه من الدنيا .

ذلك هو الإنسان الحق . النفس النموذجية الكاملة .

وهي النفس التي تتمثل فيها الفكرة الإسلامية الكاملة . فسكرة التوازن
بين القوى جميعا والاتجاهات جميعا والمتع جميعا . .

وقد استطاعت هذه النفس أن تجتذب إليها بدافع الحب وحده ، وبدافع
الاحترام البالغ الذي لا يمنعه أن يكون تقديسا إلا خوف الله الواحد المعبود . .
استطاعت أن تجتذب إليها ملايين وملايين من البشر على مدار التاريخ .

في النفس البشرية إذن رحيد تتجاوب به مع تلك النفس الكاملة .

وليس معنى ذلك أن يصبح الناس كلهم - أو أحدهم - محمد بن عبد الله .

ولأنما معناه - كما يقول القرآن - أن في رسول الله للناس أسوة حسنة .

أسوة يحاولون الاقتداء به ، كل على قدر طاقته - لا يكلف الله نفسا لاوسعها .

ويقتمدون به في فكرته الشاملة عن الحياة ، التي هي حقيقة الفكرة الإسلامية .

فيأخذون بنصيب من متعة الروح ، ومتعة الفكر ، ومتعة الجسد .

يتحركون في عالم الواقع ، ويسكنون إلى الله ، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا .

ذلك هو المقياس الذي يقدمه الإسلام للحياة . وهو لا يفرضه على الناس

فرضا ، فقد انجذبوا إليه بخنازين حين رأوه يتمثل في شخص بشر ، وأحبوه
كالم يحب أحد أهدأ في التاريخ .

الشرق والجنس

الشرق منهوم بالجنس لا يشبع .
الجنس يملا أحلامه وألفاظه وأفكاره .
والجنس يشغل وقته حديثا وعملا . تمهيدا وتدبيرا . جدا ومزاحا .
تصورا ووقائع .

وتصل المشغلة بالجنس وتغلغله في الأفكار والمشاعر، والتعبيرات والتصورات،
ألا يكتفى الناس بالحديث عنه بألفاظه المباشرة وميدانه الأصيل ، بل ينقلون
ألفاظه بطريق الاستعارة إلى موضوعات أخرى لا دخل لها بالجنس ؛ كالنصر
والهزيمة والسيطرة والخضوع . . الخ ، كما تستغل كل لفظة وكل إشارة وكل
استعارة قريبة أو بعيدة للتعبير عن أعمال جنسية بكنائيات يمكن أن تحمل معنيين .
ولا يتورع عن ذلك في مجالسهم الخاصة أناس يعرفون بالوقار والنزمت ، أو يعرفون
بنظافة المشاعر والسلوك !

والنساء والرجال في الشرق سواء في المشغلة بالجنس . وإن كان الحياء يمنعهم
- أو يمنع كثيرا منهم - أن يستخدموا الألفاظ نابية أو نظيفة - للتعبير عن
هذه المشغلة المستديمة .

لم كان ذلك ؟

إنها مسألة تستلقت النظر ، وتستحق أن يبحث فيها عن الأسباب . فليس
من الطبيعي - ولا من الخير - أن تنفق شعوب كاملة معظم طاقتها في أمور الجنس
- ولو كانت مجرد قصص ونكت وأحاديث - فإن ذلك يشغلها عن أمور أخرى
أجدي أن توجه إليها الطاقة ويصرف فيها الجهود .

والجنس طاقة بشرية طبيعية تحتاج إلى إشباع ؛ وهي تؤدي مهمة حيوية
ياشباعها ، فتنتج النسل الذي يعمر وجه الأرض جيلا بعد جيل .

ولكن الاستغراق الذى يجاوز حدود المعقول هو الأمر المستنكر . مستنكر لأنه يضمن أحد جوانب الإنسان على حساب بقية الجوانب ، ويستنفد طاقة يمكن أن تنطلق فى اتجاهات عدة ، فيحبسها فى اتجاه واحد محدود . وحتى الشعوب الأخرى التى انهارت - كفرنسا - واستغرقتها متع الجنس الفاجرة ، وتفننت فى إشباعها فنوناها بطة مستقدرة ، وخصصت لهذا العمل الكريه صحافة وموسيقى ومسارح ومواخير ، وفتحت حدائقها بل شوارعها وبيوتها لإرواء نهمها بطل مسعور . .

حتى هذه الشعوب التى استغرق الجنس حياتها إلى هذا الحد ، لم يكن الحديث عن الجنس يستغرقها كما يستغرق الشرق ، بل كانت تسكتفى بالهبوط الفكرى والنفسى والروحى . ولا تحتاج إلى كثرة الحديث . بينما الشرق يصرف فى الحديث عن الجنس وقتا غير معقول ، حتى وهو لا يقصد الجريمة ، ولا يهبط بفكره وروحه وسلوكه كما يهبط الغربيون !

* * *

يقولون إنه السكبت . . السكبت الجنسى هو المسئول عن هذا السلوك المنحرف المعيب .

فالشرق منذ مولده متدين . وله تقاليد دينية « سكبت » النشاط الجنسى فتحوله تصورات جائعة وتعبيرات منهومة وتصرفات منحرفة وأفكارا شاردة وعقولا مشغولة .

ولست أستطيع التسليم بهذا رأى . وخاصة فى الشرق الإسلامى ، الذى كان إلى عهد قريب يطبق تعاليم الإسلام فى التبكير بالزواج ، بل كان يبالغ فى ذلك إلى حد تزويج الفتيان اليافعين والفتيات فى سن الطفولة !

متى ينشأ السكبت فى مثل هذا النظام ؟

والسكبت بمعنى الفنى أو السيكلوجى هو استنقار الدوافع الجنسية ، وعدم

اعتراف الإنسان بينه وبين نفسه أن مشاعر الجنس يجوز أن تخطر في باله أو في بال أى شخص شريف .

والإسلام بالذات لا يستقدر الدوافع الجنسية . فهو يعترف بها اعترافاً واضحاً صريحاً على أنها الأمر الواقع الذى لا يستنكر فى ذاته ولا يستقدر : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين . . » « حجب إلى من دنياكم الطيب والنساء ، وجعلت قرّة عينى فى الصلاة » « إن فى بضع أحكم (أى لقائه بزوجته) لأجراً . . . »

إن الإسلام يحدد فقط مصارف الجنس . يحددها بالزواج . وهو حين يدعو إلى التبكير فى الزواج يخفف الضغط على الأعصاب إلى أصغر مدى ممكن ، ويريح النفس من كثير من عوامل الاضطراب .

ولأنما وجد الكبت حقاً فى العالم الإسلامى منذ عهد قريب . حين خرجت المرأة سافرة متبرجة ، وأصبحت فعلاً أو حكماً فى متناول الشباب الجائع ، الذى تمنعه من الزواج المبكر ظروف اقتصادية واجتماعية وفكرية ، تطيل فترة التعطل الجنسي وتدفع إلى الجريمة .

حين ذلك وجد الكبت . . وجد الصراع الداخلى بين تعاليم الدين ودفعة الجريمة ، ولم يكن ذلك - كما يريد البعض أن يفهم - نتيجة اتباع تعاليم الدين ، وإنما كان نتيجة انحراف المجتمع عن الدين ، وبعده عن الحل الطبيعى الذى وضعه الإسلام للمشكلة الجنسية .

ولست هنا بصدد تنفيذ العقوبات التى تقف اليوم فى سبيل هذا الحل الطبيعى وتظهره فى صورة حل نظرى لا يصلح للتطبيق . فقد ناقشت ذلك كله فى كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » . وإنما أريد فقط أن أقرر أن هذا الكبت لم يعرفه الشرق الإسلامى إلا منذ قريب . بينما المشغلة العنيفة بالجنس قديمة قديمة فى هذا الشرق ، إلى حد أنها تملأ كتاباً شعبياً كاملاً كالف ليلة وليلة ، وتظهر

بشكل بارز في دواوين الشعر وكتب الأدب في ألف وخمسمائة عام مدونة ،
غير مالا نعرف في العصور السابقة على التدوين !

* * *

الكبت . نعم . .

ولكنه ليس الكبت الجنسي في معظم الأحيان .

فأنا أزعـم أنه الكبت الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في أغلب الأحيان .
ولنعرف أولاً أن مسارب النفس الإنسانية كثيرة التعاريج خفية الاتصالات ،
ولكنها على أي حال ليست « خزائن » مستقلة كل واحدة عن الأخرى ،
كما قد يصورها البحث العلمي خضوعاً لمنهج البحث لا تقريراً للحقيقة !

وليس من الضروري دائماً أن يكون الدافع إلى الجنس شهوة جنسية !
فقد يحدث كثيراً أن يكون الانهماك في الجنس تخلصاً من أزمة ملية لا تجد
حلها المباشر . ويستوى أن يكون التخلص بهذا الطريق عن قصد ووعي ،
أو يكون تدبيراً باطنياً في اللاشعور .

وأذكر هنا مثالا من علم الطبيعة هو أحد قوانين فيثاغورس .
فلنتصور إناء به سائل ؛ وفي الإناء فتحات مختلفة الاتساع . وقد وضعنا فوق
للسائل ثقلا ما . فهذا الثقل سيحدث ضغطا على السائل ، والسائل بدوره سيضغط
على جميع جوانب الإناء بما في ذلك الفتحات المختلفة الاتساع . وهنا يقول
فيثاغورس : إن الضغط الواقع على كل فتحة يتناسب تناسباً طردياً مع اتساعها .
أي أنه كلما اتسعت الفتحة زاد الضغط الواقع عليها ، مع أن الثقل هو هو بالنسبة
لجميع الأجزاء !

ذلك من قوانين المادة .

وفي النفس الإنسانية ما يشبه هذه الأوضاع !

فهى مسارب مختلفة و « فتحات » متباينة الاتساع . فإذا وقع على النفس ضغط

من أى جانب ، فإنه لا يؤثر فى الجانب الذى وقع عليه وحده ، وإنما يؤثر فى الفتححات أو المنصرفات جميعا ، ويؤثر فيها بنسبة كل واحد من هذه المنصرفات . والجنس من أوسع المصارف فى الأحياء .

ومن هنا يكون الضغط عليه شديدا حين تقع أزمة لا تجد حلها المباشر ، وتظل ضاغطة بثقلها على النفس والأعصاب .

ولكن الفرق بين « المادة » و « النفس » أن المادة تتصرف بطريقة واحدة فى كل الحالات المتماثلة ، بينما النفس تتصرف بوسائل شتى وطرائق متعددة ، تختلف بين الوعى الكامل وانعدام الوعى ، وبين القصد المباشر والتواء السبل المؤدية للتنفيذ .

وقد أقرّ لى بعض الشباب من المتزوجين أنهم يصابون « بنوبات » جنسية كلما أصيبوا بأزمات نفسية تستعصى على الحل السريع . وهؤلاء « يستبطنون » مشاعرهم فيلاحظون كيف تتصرف نفوسهم تجاه الأشياء .

ولكن ألوفا وملايين غيرهم لا يستبطنون مشاعرهم ، ولا يلاحظون كيف تعمل فى باطن النفس ، وكيف تتخذ عشرات من الصور والتصرفات .

وأولئك لا يدركون كيف تنصرف الأزمات النفسية والعصبية من منصرف الجنس الواسع ، فى صور إدمان جنسى حيناً ، تستخدم له المكييفات المتنوعة ، وفى صورة مباهاة بالقوة الجنسية حيناً ، وفى صورة نكث وأقاصيص تدور حول الجنس من قريب أو بعيد .

من هذا الباب نستطيع أن نفسر كثيرا من شئون الجنس فى الشرق . فالسكت الاقتصادية والاجتماعى والسياسى الذى وجد فى الشرق فى تاريخه الطويل قد وجد له منصرفا ضخما فى هذا الباب .

صحيح أن الروح الإسلامية كانت تحول فى كثير من الأحيان دون الفقر المدقع الذى يقهر النفوس ويستذلها ، فقد كانت روح التكافل تخفف من قسوته

على كثير من الناس . ولكن هذا لا ينفى انخفاض مستوى المعيشة بصفة عامة ، وخاصة في عصور الظلم السياسى الذى كان ينهب أقوات الناس ويتركهم معرضين للقلق على أرزاقهم على أقل تقدير .

ومع الفقر يوجد الكبت الاجتماعى ، الذى يحول دون الناس وأخذهم مواضعهم المستقرة في المجتمع ، والمكانة الراسخة التى يهفو إليها بطبعه كل بشر سوى . وصحيح مرة أخرى أن الروح الإسلامية كانت تحول دون شيء من هذا الكبت الاجتماعى ، بروح الأخوة في الله ، وإقامة موازين أخرى للناس غير القيم المادية البحتة . ولكننا يجب أن نذكر أن المسلمين حكاما ومحكومين قد هبطوا عن مستوى الإسلام فترات طويلة في الماضى لأسباب ليس هنا مجال تفصيلها ولكنها حقيقة .

أما الكبت السياسى فهو أوضح . فإن فساد الحكومة الإسلامية في الماضى قد حولها إلى دكتاتورية مطلقة ، تحكم بنظرية الحق الإلهى ، وتضفى على نفسها ألواناً من القداسة لا ينبغي أن توجه لغير الله .

وفي هذا الجو لا يمكن للشعب أن يشترك في حكم نفسه أو يكون له رأى في إقامة حكمه أو خلعهم ، أو رقابة على تصرف من تصرفاتهم . فينشأ الكبت السياسى أو « العجز » من جانب الشعب عن التصرف في شئون نفسه .

هذه الألوان المختلفة من العجز . العجز المالى والعجز الاجتماعى والعجز السياسى هى المسئول الأول عن الانهياك الشديد في أمور الجنس ، وخاصة عن أحلام القدرة الجنسية التى لاحد لها ، والمباهاة بهذه القدرة بالحق أو بالباطل ، فالقدرة من أى سبيل هى التعويض المناسب عن العجز في كل سبيل .

وفي ألف ليلة وليلة مثال واضح لهذا التعويض . فالفترة التى كتب فيها - فترة الحكم التركى على الأرجح - من أقسى الفترات التى مرت بالشعب ، وعانى فيها العجز المطلق في ميادينه الثلاثة السابقة الذكر .

وكان التعويض الذى قام به الشعب فى هذا الكتاب هو أحلام الغنى المفاجئ .
من أيسر سبيل . وأحلام القدرة المطلقة باستخدام قوى غير منظورة - قوى الجن
والعفاريت (لأن القوى المنظورة عاجزة أمام السلطان) - ثم أحلام القدرة
الجنسية التى لا حد لها ولا شبع ولا ارتواء .

ولكن نظرة سريعة إلى الحيز الذى يشغله كل حلم من هذه الأحلام يبين
أن الحلم الجنسى هو الغالب ، وأن الحلين السابقين - فى كثير من الأحيان -
أدوات لتحقيق الحلم الجنسى الذى يتحقق عن طريقه الوجود الكامل للإنسان .
وهذا يتناسب مع وضع الجنس من النفس البشرية^١ ، وشدة الضغط الواقع عليه
يسبب اتساع مساحته فى الشعور واللاشعور .

فهو الكبت إذن حقاً . . ولكنه ليس الكبت الجنسى فى معظم الأحيان .

* * *

والفراغ . . .

فقد ظل الشرق فارغاً أجيالاً طويلة بعد أجيال .
الزراعة لا تستغرق الوقت كله ولا الجهد كله .
والتجارة جلسة هادئة بليدة ما بين زبون وزبون .
والصناعة اليدوية البسيطة لا تمنع من الدردشة ، الفارغة ، وتبادل النكت
والأقاصيص .

ذلك فراغ الزمن . وفراغ الجهد .

أما فراغ الأهداف فهو أشد . فنذ فرغ الشرق الإسلامى من فتوحه العظيمة ،
منذ وقف أكبر مد شهبه التاريخ ، وانحصر إلى داخل نفسه ، فرغ الناس
من الأهداف ، وانهمكوا فى إشباع أهدافهم القريبة ، والجنس والطعام أبرز
الأهداف وأقدرها على استهلاك الطاقة التى تبحث عن استهلاك !

* * *

والجو الحار الذى يسود الشرق .
الجو الذى يُنضج الأجسام والمشاعر فى سن مبكرة شديدة التبكير ، ويساعد
على النهم الدائم حين تجتمع الظروف كلها على استثارة النهم المسعور .

* * *

تلك أهم الأسباب التى تبعث على الإدمان الجنسى والمشغلة الدائمة به
فى الشرق المنهوم .

وهى أسباب عميقة الجذور فى التربة الشرقية ، لطول ما نبقت فيها ولم تطهرها
يد الزارع الحصيف .

ولا مطهر لها إلا العقيدة .

وتلك شهادة التاريخ .

فإن هذا الشرق لم يبرأ من هذا النهم المسعور إلا فى الفترات التى تملكته
فيها العقيدة ، فاستنفدت طاقته المذخورة فى آفاق أعلى من محيط الجسد ، وأثنى
من دفعة الغريزة .

حين تحولت هذه الطاقة فتوحات لا مثيل لها فى التاريخ ، وحركة علمية وفكرية
وروحية ومادية أضاءت المشعل للإنسانية الحائرة الفارقة فى الظلمات .

حين ذلك كان الجنس فى موضعه المعقول لا يتجاوزه . لا كبث ولا إهمال .
ولا مبالغة كذلك ولا سعار .

ونحن اليوم فى حاجة إلى العقيدة .

فى حاجة إليها لتنظف النفوس وترفع من أهدافها .

وفى حاجة إليها تملأ الفراغ المدمر القاتل : فراغ الزمن وفراغ الجهد وفراغ
الأهداف . فراغ الجسم والنفوس والروح على السواء .

وفى حاجة إليها تزيل السكبت الاقتصادية والاجتماعى والسياسى الذى ينحرف
بالنفوس فتفرق فى التيار الجنسى المنهوم .

ونحن اليوم أفدر على تحقيق العدالة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية عن طريق العقيدة ، من آبائنا قبل مئات السنين . لأن تجارب البشرية في هذه الميادين كلها قد قربت المسافة بينها وبين القمم العالية التي وضعها الإسلام . فلم نعد نحتاج إلى الطفرة العالية . وإنما هي نقلة معقولة في حدود المستطاع .

فإذا استمسكنا بالعقيدة ، ونفذناها في واقع الحياة ، فذلك هو الطريق الوحيد للقضاء على انحراف طال به الأمد في نفوس الشرقيين .

وإذا كان الغرب في حاجة دائمة إلى العقيدة ليوازن ماديته الجاحدة ، ويلطف من قسوة الصراع الأرضي هناك . .

فالشرق في حاجة دائمة إليها التحول بينه وبين الهبوط في حماة الجنس المسعور!

الإنسان والآلة

هواة التفسير المادى للتاريخ يقولون إنه ليس تمت كيان ثابت اسمه الإنسان .
ولمّا الإنسان هو مجموعة استجاباته للوسط المادى الذى يعيش فيه . ومن ثم
فالإنسان فى البيئة الزراعية غيره فى البيئة الصناعية . غيره فى المشاعر والأفكار
والسلوك والاتجاهات . ولا حيلة للإنسان فى أن يتأثر بالوسط المادى ، ولا حيلة
له كذلك فى الطابع الذى يتخذه نتيجة هذه الاستجابة . فالتعاون الفردى
والفروسية والعقيدة وبساطة المشاعر صفات تميز البيئة الزراعية وهى من لوازمها .
والاستقلال والبعد عن العقيدة والغيبيات جميعا ، والإخلاد إلى الواقع المحسوس
وحده ، وتعقد الأفكار والمشاعر ، صفات تميز البيئة الصناعية وهى من لوازمها .
فلا تصلح العقيدة مثلا ولا التعاون الفردى (أى الذى يتم مباشرة بين فرد
وفرد) للإنسان الصناعى . ولا يصلح الاستقلال - الفكرى أو العملى -
للإنسان الزراعى !!

وبعض هذا الذى يقولونه صحيح .
أو هو صحيح كله إذا ترك الإنسان وشأنه بغير توجيه .
وقد كان صحيحا - إلى حد كبير - فى أوربا التى يبنى عليها أولئك د العلماء ،
نظرياتهم وفروضهم ، ويخيل لهم الغرور البشرى أن أوربا هى العالم ، وأن
ما ينطبق على أوربا هو القانون الذى يحكم البشرية !
ولكنه صحيح - كله أو بعضه - على أساس آخر غير الذى يبنون عليه
نظرياتهم المنحرفة .

فليس الإنسان الزراعى كائنا آخر غير الإنسان الصناعى ، حتى نقول إنه
ليس هناك كيان ثابت للإنسان ، وإن الإنسان هو مجرد استجاباته للبيئة
الخارجية المتطورة .

ولأنما الحقيقة التي ينبغي أن يهتدى إليها العلم الصحيح - حين ينجو من انحرافاته الأوربية - أن كيان الإنسان كيان واسع شامل لا تحده الخطوط الضئيلة التي يهتدى إليها العلم التجريبي ، أو تدركها الملاحظة المحدودة . وأن البيئة الخارجية تتفاعل مع بعض عناصر هذا الكيان فتبرزها أكثر من غيرها ، أو تخفى بعضها لأنه غير لازم في فترة معينة . كما يشتد ساعد الملامك ويصبح ذا قوة هائلة لأنه يدربه ويستخدمه بصورة بارزة ؛ وكما يضمّر أى عضو لا يستخدم لفترة طويلة ، حتى لقد يفقد وظيفته . ولكن هذا لا يعنى أن الملائكة هي التي «تخلق» الساعد ولم يكن موجوداً من قبل ، ولا يعنى أن إهمال عضو من الأعضاء يزيله من مكانه - ولو طالت فترة الإهمال - بحيث يستحيل إعادته إلى العمل بشيء قليل أو كثير من التدريب .

والسكان الإنساني كذلك ؛ لا تنشئه البيئة الزراعية أو الصناعية - أو الذرية إذا نظرنا إلى المستقبل ! وإنما هذه البيئات قد تضخم بعض عناصره أو تدعها تضمر بحسب الظروف . ولكن في هذا الكيان من القوى المذخورة ، الظاهرة والخفية ، المدرّكة وغير المدرّكة ، ما يبرز للوجود جيلاً بعد جيل ، فيحسبه بعض الناس جديداً لم يكن له وجود من قبل !

* * *

وليس الإنسان كذلك كيانا سلبيا خالصا كما يريدون أن يصوروه . وليست البيئة المادية هي القوة الإيجابية الوحيدة التي تسيطر وتفرض سلطانها على المشاعر والأفكار . بل هما قوتان : الإنسان من ناحية ، والقوى المادية الخارجية من ناحية أخرى . وهما قوتان متفاعلتان أبدا . ولكن سيطرة إحدهما على الأخرى أمر متروك للإنسان ، لأنه هو - من بين القوتين - صاحب الإرادة والقادر على التصرف . والمادة هي التي من شأنها أن تخضع لما يقع عليها من تأثير .

حين يختار الإنسان أن يكون هو القوة الموجهة المنشئة المريدة ، فهو الذى يكيف حياته ، وهو الذى ينشئ الأوضاع المادية أو يكيفها كما يريد ، أو على الأقل يكيف نفسه منها على الوضع الذى يريد .

وحين يتنازل الإنسان عن إرادته . حين يتخلى عن طاقته الإيجابية الموجبة . حين يختار أن يترك نفسه على سجيته تأثر فيها القوى الخارجية ولا يؤثر هو فيها .. حينذاك يكون هو الذى ترك الوسط المادى يفرض عليه سلطانه ، وهو الذى اختار موقفه السلبي الخانع ، وليست القوى المادية بطبيعتها هى ذات السلطان . وفى قصة الآلة مثال لما نقول .

* * *

حين اخترع الإنسان الأول أول آلة ، .. قطعة من الحجر مشطوفة على هيئة سكين (١) ، كان ذلك نصراً عظيماً لذلك الإنسان ، وتحقيقاً إيجابياً للطاقة السكّانة فى كيانه ، طاقة الاختراع ، ومحاولة السيطرة على الوسط المادى الذى يعيش فيه . ولا شك أن نشوة لا أحد لها قد تملكك ذلك المخلوق البدائى ، وأحس لبضع لحظات على الأقل أنه أكبر من نفسه ، وأنه يدق بيده باب مستقبل زاهر عظيم . وكان ذلك حقاً . فقد كان فى طريقه إلى تطورات أخرى أعظم خطراً من قطعة الحجر المشطوف .

ومضى الإنسان يخطط بجسمه وعقله وروحه سطور عظمة البشرية . سطور الرفعة المطردة لذلك المخلوق الذى كرمه خالقه حين منحه تلك المقدرة المعجزة على التطور والارتقاء .

ونعتذر للمعتفين ، من ذكر الروح ! وهم الذين يقولون إن البحث عن الطعام كان هو رائد التقدم البشرى . كأنما الحيوان لا يبحث عن الطعام ! !

(١) ربما لم تكن هذه أول آلة من الوجهة التاريخية ولكننا نتخذها فقط لتمثيل ويستوى أن تكون هي أو غيرها أول آلة .

نعتذر إليهم عن إزعاجهم - في عصر الصناعة وعصر الذرة - بذكر شيء -
من مخلفات البيئة الزراعية البائدة التي لا ينبغي أن تعود !

ونعود لقصة الآلة ، فهي قصة « مفهومة » ، لا غيب فيها ولا إبهام ولا غموض !
لقد ظل الإنسان ينتقل من اختراع إلى اختراع ، وهو ينتقل في مدارج الرقي ،
فاختراع المحراث ، والمغزل والمنسج ، وآلات الصيد والقتال ، وآلاف غيرها
من الآلات النافعة التي يقوى بها كيانه ، ويحقق في عالم الواقع طاقاته النظرية
الكامنة ، وأحلامه المتطلعة إلى القوة والسيادة على محتويات الكون العريض .
وكانت الآلة في ذلك الطور الطويل الذي استغرق ألوف السنين مصدر قوة
للإنسان ، قوة فردية وجماعية . قوة مادية وسيكلوجية .

والقوة السيكلوجية جديرة بالتسجيل ، وجديرة بتحديد وضعها الحقيقي .
فاليد التي تحمل العصا أو الفأس أو المدفع أقوى - في القياس المادي -
من اليد الخاوية .

وصاحب اليد التي تحمل العصا أو الفأس أو المدفع أقوى - سيكلوجيا -
من صاحب اليد الخاوية .

هذه القوة المادية تمنحه قوة نفسية تظهر في سلوكه وأفكاره ومشاعره .
هكذا يبدو في ظاهر الأمر ، بحيث يخيل لهواة التفسير المادي للحياة أن القوى
المادية هي التي « تنشئ » ، المشاعر والأفكار .
وليس الأمر كذلك في الحقيقة .

فرصيد القوة موجود في داخل النفس ، في صورة رغبة كامنة تنتظر التحقيق .
والعصا أو الفأس أو المدفع أدوات يخترعها الإنسان ليحقق بها رصيد القوة
في نفسه .

والنفس التي حققت رصيدها في عالم الواقع أقوى من النفس التي تحتفظ
بهذا الرصيد رغبة كامنة لا تتحقق أو لا تسعى إلى التحقيق .

والمحك الصادق لهذه الحقيقة أن الجندي الجبان لا يستمد القوة من أدوات الحرب ، لأن رصيدها النفس مفقود . وقد كان الجنود الطليان في الحرب العالمية الثانية يملكون أحدث الأسلحة وأفتكها ، ولكنهم كانوا يفرون من الحرب ، ويمنحون هذه الأسلحة هدية خالصة ، لمن يمنحهم نعمة الوقوع في الأسر والهوان ! فالنفس تنقوى بالوسائل المادية ، لأنها تحقق عن طريقها رصيدها المذخور . وهذا الرصيد سابق في وجوده للوسائل المادية ، وهو الأصل الحقيقي الذي يحسب له الحساب .

وقد كانت الآلة - في فترة طويلة من تاريخ البشرية - مصدر قوة سيكلوجية للإنسان .

كان هناك عامل مهم في الموضوع . كان الإنسان هو الذي يدير الآلة ! كان يشعر أنه هو القوة الموجهة ، وأن الآلة خاضعة لإشرافه وتوجيهه . ومن ثم فهو المسيطر ، وهو صاحب السلطان ! ولكن الآلة تطورت بعد ذلك .

لم تعد آلة يدوية ، يديرها الإنسان بيده ، ويشعر بالسلطان عليها ، إن شاء وقفها ، وإن شاء أطلق لها العنان .

لقد تضخمت حجما حتى صار الإنسان بجوارها جرما صغيراً لا يكاد يبين . وصارت لها قوة ذاتية تتحرك بها من الداخل . ولا يملك وقفها بطريقة مباشرة حين يريد .

وتغير موقفه منها تغيراً كاملاً داخل المصنع .

فبعد أن كان العامل أو الصانع يصنع العمل كله بيده ، أو بالإشراف على آله وتوجيهها ، صار العامل قطعة صغيرة من مجموع العمل . وصارت الآلة المعقدة تقوم بأجزاء كثيرة متعاقبة ، ولم يبق للعامل إلا أن يقوم بدق مسمار أو ربطه ، أو تقديم مادة خامة للآلة الضخمة التي تبتلعها في طرفة عين وتطلب المزيد .

صار الإنسان قوة سلبية ، والآلة هي القوة الإيجابية التي تملى على العامل مكان عمله ، وزمنه ، وطبيعته ، وحدوده !
وهنا حدث انقلاب كبير في سيكولوجية الإنسان .
فقد أخذ رويداً رويداً يفقد سيطرته على نفسه ، ويفقد في الوقت ذاته إنسانيته .
لقد توغل شبح الآلة الضخمة في أعماق حسه ، وصارت هي القوة القاهرة التي تملى عليه إرادتها ، وتصرف حياته كما تريد .
أحس الإنسان بالضآلة فأنكش داخل نفسه . انكششت مشاعره الحية ورقرفاته المضيفة . انكششت عواطفه المتدفقة وأشواقه المتطلعة إلى الأفق الطليق .
ورويداً رويداً تصلبت أنسجة نفسه وجفت فصارت كالآلة البليدة الصماء التي تسيطر على كيانه .
وصارت حياته كلها روتيناً كروتين الآلة ! يبدأ في الصباح وينتهي في المساء .
زر واحد أو مجموعة أزرار تفتح في لحظة معينة مضبوطة كاضباط الآلة ،
فتشغل الآلة النفسية مندفعة بما فيها من وقود مشحون . وتظل تعمل وتعمل وتعمل .. حتى يُدق لها الجرس . وهنا يسكت العمل فجأة كما ابتداء فجأة . يسكت كما تسكت الآلة حين يقطع عنها التيار .
ثم تشتغل قطع أخرى من الآلة النفسية حين يحى عليها الدور .
أو تقف خامدة بليدة بلا حراك .
ولكن الدفعة الحيوية البشرية المسكوبة منذ الصباح لابد أن تنطلق في صورة من الصور ، فهي لم تستهلك كلها في النشاط الآلى الجامد البليد .
ولأنها لتنطلق بالفعل . . انطلاق البهيمية حين تفك عنها القيود .
فورة جسد هائم مجنون . . يهفو إلى جسد هائم مجنون .
وتندفع الشحنة الحبيسة في منصرفها الحيواني ، فتهدأ الأعصاب الثائرة لحظة ،
ريثماً تشحن في الغد بالطاقة المسكوبة التي تبحث عن التفريغ . .

وتصبح كذلك حياة الإنسان : آلية جافة جامدة لا مكان فيها للعواطف الحية أو الأشواق الرفافة ، أو اللسعات الدقيقة العميقة . لا مكان فيها للتطلع إلى فكرة عليا أو إحساس كبير .. وحيوانية هابطة تستغرق ما بقى من النشاط المذخور ، وتحول ما بقى من الحياة إلى ما خور كبير .

وبهذا وذلك يتوارى الإنسان ، ويحل محله الحيوان الآلى الذى يملأ وجه الأرض فى العصر الحديث .

وأبرز الأمثلة على ذلك أمريكا .

هناك وصلت الآلية إلى أقصى درجاتها . كل شىء يدار بالآلات . والإنسان أول شىء هناك يدار بالآلات !

دقة متناهية فى العمل . دقة مضبوطة كاضباط الآلة . وإنتاج ضخم لا مثيل له فى أى مكان . ولكنه إنتاج الآلة . الآلة الميكانيكية أو الآلة البشرية سواء . ولكن ليس هناك بشر ..

البشر الذين تعرفهم بملاحمهم النفسية ، بمخلفات نفوسهم وخفقات قلوبهم ورفرفة أرواحهم .

البشر الذين تعب وجوههم عن فكرة أو إحساس أو تطلع ..

البشر .. كما عرفتكم البشرية منذ ألوف السنين !

ليس لهؤلاء وجود .

آلات دقيقة فى النهار .. وحيوانات هائجة فى الليل .

حيوانات فارهة .. تريد أن تستعمر العالم !

وذلك أقصى ما بلغته الحضارة المادية فى العصر الحديث ، ونموذج للعالم المتأخر ، كله يحتمله .

حقا . إن هذا هو عصر الآلة !

لقد سيطرت الآلة على الحياة الإنسانية كلها في العصر الحديث ، وطبعتها بطابعها المنظم الجامد المرتب البليد .

ولقد يخطر طهارة التفسير المادى للتاريخ أن يرفعوا رؤوسهم منتصرين ويقولوا فى ظفر أبله :

ألم نقل لكم ؟ إنه ليس تمت كيان ثابت اسمه الإنسان . وإنه يتأثر بالوسط المادى الذى يعيش فيه فيطبعه بطابعه المحتوم ١٢

ونقول لهم أولا : إن هذا النصر يحمل فى أطوائه الهزيمة ، لأن معناه أن التقدم ، الصناعى الذى يتعبدونه نكسة بشعة فى حياة البشرية ، تهبط بها إلى مستوى الحيوانات والآلات . وهى - لو كانوا صادقين فى دعواهم - نكسة محتومة تصيب كل البشر ، وليس لهم من مفعولها فكاك .

ثم نقول لهم ثانياً : إن هذه النكسة لم تكن حتماً على البشرية . وإنما هى أصابت الإنسان باختياره حين تخلى عن عقيدته وتخلّى عن إلهه .

هذه الضالة التى أحس بها الإنسان إزاء الآلة ، فسيطرت عليه بالتدريج ، وحولت حياته إلى نسق آلى بليد .. سببها الأصيل أن الإنسان قطع صلته بكل قوة خارج نطاق الأرض ، وخارج العالم المحسوس .

ومن هنا أصبحت الآلة قوة ضخمة بالنسبة إليه . وصار هو قوماً ضئيلاً يتعبد لها ، ويخضع بوعيه أو بغير وعيه لإرادتها .

ولو لم يقطع صلته بالقوة الكبرى .. القوة التى تسيطر على كل قوى الأرض ، وتوجه كل قوى الأرض ..

لو لم يقطع صلته بالقوة الكبرى التى يستمد هو منها قوته وكيانه ، وحسه ووجدانه ..

لو لم يفعل ذلك ما استعبدته الآلة ، وما أحس بجوارها أنه صغير .

كان اتصاله بالقوة الكبرى الخالقة الموجهة ، سيمنحه القوة التى يحارب بها

ساطان الآلة ، أو يخضعها لسلطان نفسه ، فيتحكم فيها وفق ما يريد .
كان سيصبح هر - كما كان من قبل - سيد الآلة . السيد المسيطر الموجه المرید .
فلا تفقد نفسه مرونها بمصاحبة الآلة الجافية ، لأن قوة حية كانت ستظل في
نفسه ذات رصيد . ولا تفقد روحه صفاءها المشرق من طنين الآلات الأجوف ،
لأن قوة عليا كانت ستعدها بمدد مذخور .

والنفس لا تحقق قوتها بالوسائل المادية الخسب . فللقوة رصيد نفسى متحرك ،
ورصيد روحى منطلق لا يعرف الحدود .

والنفس السوية تحقق رصيدها من القوة بكل هؤلاء .
بالوسائل المادية للنفع القريب الذى ينظم حياة كل يوم .
والمشاعر النفسانية تنظم علاقة الإنسان بنفسه ، وعلاقته بغيره من الأفراد .
وانطلاقة الروح التى تفسح الحواجز كلها ، وتغمر النفوس بالنور ، وتصلها
بخالقها فى ومضة من ومضات الشفافية ، فتتصل بالمدد الأزلئ الخالد ، فتقبس منه
قبسا من الخلود .

حينئذ لك يسيطر الإنسان على كل قوى الأرض ، ويحس - وفيه النفخة الإلهية
المعجزة - أن كل ما فى الأرض مسخر له ، فلا يدع الآلة تكيف له حياته وتهبط
به إلى الحيوانية الآلية الهابطة .

ولا شفء للناس فى العصر الآلى - أو العصر الذرى المقبل - إلا فى رحاب
العقيدة . العقيدة التى ترفعهم من وهنتهم ، وترد لهم كياناتهم ، وثقتهم بأنفسهم ،
فيكيفون مشاعرهم كما ينبغى للإنسان المتطور ، نحو الصعود ، وكما ينبغى للخلق
الذى كرمه خالقه ونفخ فيه من روحه .

والعقيدة الإسلامية التى تشمل الجسد والعقل والروح ، وتربطها برباط واحد
متصل بالله ، هى وحدها التى تحقق للنفس رصيدها الكامل من القوة ، وهى وحدها
التي تستطيع أن تنقذ العالم من هبوطه المدمر الرهيب .

القرية والمدينة

وكذلك الشأن في قصة القرية والمدينة . .
فهو التفسير المادى للتاريخ يمتقدون أن للقرية أخلاقاً وطابعاً معيناً للحياة،
وللمدينة أخلاقاً أخرى وطابعاً آخر . . وبينهما برزخ فلا يلتقيان .
وذلك قول فيه كثير من الحق . . وكثير من المغالطة الناشئة من استنباط
الاحكام من بيئة معينة وجيل معين ، ومحاولة تعميمها على كل البشرية .
أهل القرية أقرب أن يعرفوا الله ويستشعروا وجوده . .
فصناعتهم الرئيسية هى الزراعة .

والفلاح يضع البذرة فى الأرض ، ثم ينتظر بشأنها كلمة السماء !
وهو لا يستطيع - مهما كانت رغبته الخاصة - أن يتصرف فى نمو النبتة
- إلا فى حدود ضئيلة - فعليه أن يصبر عليها حتى تنبت القوة الخفية التى لا يعلم
من سرها شيئاً إلا ما يراه من مظاهرها . والعلم ذاته لا يعرف من أمر هذه القوة
الخفية أكثر من ذلك . ثم عليه أن يتقرب تطوراتها المتوالية من إنبات وإزهار
وإثمار ونضوج ، وهو لا يملك أن يغير ترتيبها ، أو يستعجلها أو يبطلها
أو يتصرف بشأنها إلا فى حدود قليلة .

إنه يعيش فى ظل هذه القوة الخفية معظم حياته . وهو يتعامل معها مباشرة
فى عمله الرئيسى منذ أن يضع البذرة فى الأرض حتى يسترد الثمار فى نهاية المطاف .
والثمار ذاتها مرهونة بمشيئة هذه القوة الخفية نوعاً وكماً . . إن شاءت هذه القوة
أنجتها من الأعاصير والآفات وتقلبات الطقس ، وإن شاءت سلطت عليها هذه
القوى جميعاً . ومهما يصنع الفلاح من احتياطات ، ومهما تساعد الدولة ، أو يساعده
«العلم» فهو يحس فى أعماق ضميره بأن تلك القوة الخفية التى يجهلها ولكنه

يرى مظاهرها وآثارها.. هي التي تكيف حياته تكييفاً مباشراً وتتحكم في مصيره
ومن هنا يتدين ..

وسواء اهتدى إلى الدين الحق ، أم تاهت به الظنون في جاهلية مضلة ..
وسواء أدى طقوس العبادة التي يؤمن بها بانتظام وإخلاص ، أم تكاسل
عنها أحياناً ، وانصرف عنها أحياناً أخرى .. فهو في معظم حالاته متدين .
يستشعر في ضميره وجود القوة الكبرى الخالقة ، ويرى بحسه آثارها ، ومدى
تعلق حياته بإرادتها الخفية وآثارها الظاهرة .

وأهل المدينة - الصناعية خاصة - أقرب ألا يعرفوا الله أو يستشعروا وجوده .
العامل يتعامل مع الآلة ، ولا يتعامل مع الأرض .
هو يديرها بنفسه ، أو تدار أمامه . وهو ينتج بيديه المادة المصنوعة
أو يشارك في إنتاجها .

العمالة كلها مكشوفة أمامه . ودوره في الإنتاج بارز ملموس .
وحتى حين تعقدت الآلة فلم يعد العامل يدرك كل أسرارها ، .. وحتى حين
تضام دوره من الإنتاج الكامل إلى القيام بجزء ضئيل تافه من مجموع عملية
الإنتاج ، حتى عندئذ ظل العامل يحس أن عملية الإنتاج عملية بشرية خالصة ،
لا تخضع - في الظاهر - لإرادة القوة الخفية التي تنبت الحب من الأرض ،
وإنما تخضع لإرادة بشر أو مجموعة من البشر ، أو تخضع للسكان المادى الخالص
الذي يكيف الإنتاج .

ومن هنا لا يتدين ..

لأنه يتخيل أنه يصنع حياته بنفسه ، ويكيفها كما يشاء .
فإذا تعقدت عملية الصناعة ، وسلب حرية الإنتاج وحرية تكيف حياته ،
لم يتدين رغم ذلك ، وإنما راح يتعبد السلطة التي حلت إرادتها مكان إرادته ؛ سلطة
الدولة ، أو الحاكم ، أو النظام (أو الآلة ذاتها) .. ولم يتجه إلى الدين ، لأنه

يتعامل في معظم حياته مع قوة ظاهرة وسلطات ظاهرة ، لا مع القوة الغيبية
التي لا تدخل المصنع - في ظاهر الأمر - ولا تدبر آلاته !

ذلك مظهر يتعلق بباطن النفس .

وثمة مظهر آخر يتعلق بنظام المجتمع .

فأهل القرية بطبيعة عملهم ، وقلة عددهم ، وانحصار حياتهم في محيط ضيق
محدود .. قوم متعارفون متعارفون . تشملهم روح المودة والقربى أو - على الأقل -
تغلب على حياتهم هذه الروح .

وأهل المدينة - الصناعية خاصة - لا تربطهم مثل هذه الروح ، فهم في أعمالهم
أفراد لا تربطهم إلا رابطة العمل - رابطة قضاء ساعات يومية في عمل صامت
عمل رتيب وسط طنين الآلات الأجوف ، أو وراء المكاتب الصامتة البليدة .
وهم بحكم كثرة عددهم لا يستطيعون - حتى لو أرادوا - أن يكونوا متعارفين على
طريقة أهل الريف ، ولذلك يعيشون في « شقق » منفصلة لا تعرف كل شقة عن
جارتها شيئاً ، ولا يهمها شأنها في شيء .

وإذ كان التعاون ضرورة بشرية لا يمكن الاستغناء عنها ، فهو في المدينة
- الصناعية خاصة - يأخذ صورة « عملية » منظمة تقوم بها الدولة (على أسس
علمية) ولكنها لا تقوم على أسس شعورية مباشرة ، ناشئة من العلاقة القلبية
الحية التي تربط قلباً بقلب ، وإنساناً بإنسان .

* * *

تلك حقائق مشاهدة في واقع البشر .

ونحن - كما صنعنا في قصة الإنسان والآلة - نؤمن بأن ذلك واقع . ولكننا
لا نؤمن به على أنه الأمر الوحيد المحتوم الذي لا حيلة للناس في وقوعه ،
ولا سبيل لهم إلى تغييره .

فالإنسان - كما قلنا هناك - ليس قوة سلبية تنطبع بالوسط المادى دون إرادة
أو اختيار .

ولأنما هو يصبح كذلك حين يختار أن يتنازل عن إرادته ، وموقفه الموجه من الحياة والأشياء ، ويترك نفسه معرضة للوثرات دون وقاية ولا عزيمة ترد بعض هذه المؤثرات .

أما حين يختار أن يكون إنسانا ، فلن تقف أمامه «المادة» بوصفها قوة جبرية تحتم عليه سلوكا معينا ، وتفرض عليه نظرة معينة للحياة والأشياء . والدليل على أن الوسط المادى ليس هو صاحب السلطان ، والدليل كذلك على أن للبشر جميعا - زراعيين أو بدويين أو صناعيين - كيانا مشتركا هو «الإنسان» ، وأن البيئة قد تبرز بعض جوانب هذا الكيان أو تهملها ، ولكنها لا تنشئها من العدم ، ولا تقتلها أو تزيلها من مكانها . . .

الدليل على هذا وذلك أن المدينة قد تتدين تدينا عميقا رغم طابعها الصناعى الملحد . وأن القرية قد تلحد رغم ما تدفعها إليه البيئة من استشعار دائم لوجود الله ! ولدينا أمثلة لما نقول .

فاليابان أمة صناعية ناهضة ، تهدد بإنتاجها غرب أوروبا وأمريكا . وهم مع ذلك أمة ذات عقائد عميقة الجذور في نفوسهم لم تستطع الصناعة ، ولم تستطع قوات الاحتلال الأمريكية أن تنزعها من قلوبهم رغم أنها حرمتها بقانون ! والامر في اليابان عجيب .. فلو أنها تؤمن بعقيدة سماوية مفهومة ، يقبلها العقل كما يطمئن إليها الوجدان ، لما كان هناك - من وجهة نظرنا - عجب في قيام العقيدة مع الحركة الصناعية . أما وهي تؤمن بخرافات وثنية لا تثبت للنطق ولا تتمشى مع طبيعة العقل المثقف ، فالامر أعمق من أن يكون قضية منطقية أو قضية علمية ! فهي قضية تلك النفس البشرية العميقة التي لا يستطيع العلم أن يصل لكل أغوارها مهما زعم أنه يستطيع .

والقرية المصرية التي تدين منذ عشرة آلاف عام ، وتقابلت على شقي العقائد من فرعونية ومسيحية وإسلامية .. قد بدأت في السنوات الأخيرة تلحد ، وتعنق

فلسفة مادية في بعض الأحيان . وبدأت الروابط بين أهلها تنفكك ، والأثر الجافية تحل محل التعاون القلبي الودود .

وصحيح أنه لإلحاد غير عميق الجذور . وأن ظروفًا عارضة قد كفرتهم من دينهم .. إلا أن « حتمية » القوانين الاجتماعية التي يفترضها العلماء لم تكن تسمح لهم بالإلحاد ، مهما تكن ظروفهم ، ماداموا لا يزالون يعملون في الزراعة - خاصة وهي زراعة بدائية لا تعتمد على الآلات - ولم يتحولوا بعد إلى عمال أو صناع ! أى لم يتغير الوسط المادى الذى يعيشون فيه ، وكيف لهم - فى زعم هؤلاء العلماء - أفكارهم ومشاعرهم وعمائدهم وسلوكهم .

ثم هذا الخبر العجيب الذى نشرته إحدى المجلات الأمريكية (Time عدد ١٥ مايو سنة ١٩٥٤) عن تعديل القسم الذى يقسمه المواطن الأمريكى ويتعهد فيه بالإخلاص لراية الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد أضيفت إليه كلمة « فى ظل الله » لأول مرة منذ إنشاء هذا القسم . أى منذ مائتى عام .

لست أصدق أن هذا الجيل من الأمريكان يمكن أن يتدين .

ولكنها إشارة واضحة الدلالة ، تشير إلى مستقبل الأجيال ، وهى إشارة ذات دلالة خاصة حين تجيء من أمريكا التى لا قلب لها ولا روح ، والتى تعيش فى حيوانية آلية لم يهبط إلى مثلها البشر فى تاريخهم الطويل (١) !

* * *

كلا ! ليست هناك قوا ب حتمية للنفس الإنسانية . وليس الوسط المادى هو صاحب السيطرة والسلطان .

وليس من الحتم أن يكون سكان المدينة ملحدين !

والمدينة الإسلامية خاصة لا يمكن أن تلحد . ولا يمكن أن تدع الوسط المادى يفسد عليها روحانيتها الصافية ومشاعرها القلبية الودود . فإن إيمانها بالله يرفعها من هذه الوهدة الهابطة ، ويرسم لها طريق الصعود كما أن إيمانها بالله يربط قلوب

(١) كتبت هذا فى الطبعة الأولى . وقد جاء فى الأنباء الأخيرة أن العلماء السوفيت - بعد الرحلات الصاروخية الأخيرة - قد بدأوا يؤمنون بالله !

سكانها برباط الود . حتى لو استحال عملياً أن يعرف كل فرد كل فرد ، فإنه يكفي أن يتعارف أهل كل حي متقاربين ، ثم يسود السلام والإخاء بين غير المتعارفين : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » . . . وألق السلام على من تعرف ومن لا تعرف . تلك آداب الإسلام التي أوصى بها الله والرسول . ولقد رأيت عمالاً وصناعاً مسلمين . أعنى مسلمين حقاً !

رأيتهم يخرجون من عملهم المرهق الذي يتعاملون فيه مع الآلة الصاخبة الصماء ، ومع عملية الإنتاج الصناعي المكشوفة للعين البشرية الخالصة في ظاهر الأمر . . . رأيتهم يخرجون من عملهم فلا يصخبون كما يصخب زملاؤهم الذين خلت قلوبهم من العقيدة ، والذين لا يجدون في نفوسهم الرصيد الروحي الذي يخففون به عن أعصابهم وأرواحهم وقع العمل المرهق الكابت لدفعة الانطلاق ، فيعوضونه بالضجيج المفتعل المزعج ، يشبثون به وجودهم ، ويعلنون به حريتهم ، كما يعلنها العبد الآبق من القيود !

رأيتهم مطمئنة قلوبهم ونفوسهم إلى ذكر الله . فهم لم ينسوه في المصنع . لم ينسوا أن الآلة الضخمة الدائرة ليست إلهاً ، وإنما هي أداة سخرها الله للإنسان ، ليزداد بها قوة ، ثم يحمد الله على آلائه ونعمائه بالصلاة والشكران . ورأيتهم يشعرون بالآخوة الحقة في الله . فيتزاوون ، وتزاو أسرهم . ويتبادلون المعونات الفردية حين يحتاجون إليها . فإذا أغنتهم الدولة عنها - أو المصنع - فهم على صلاتهم رغم ذلك لا يقطعونها ، ولا يتباعده بعضهم عن بعض بدافع التباغض أو العزلة والانطواء . أو بدافع عدم الإحساس بالرابطة التي تربط بني الإنسان . رأيتهم فأدركت أن المدينة الإسلامية - الصناعية - لا يمكن أن تلحد ، لأن العقيدة أقوى من المادة ، وهي وحدها صاحبة السلطان !

وكان خاطر قد ألمّ بي ذات يوم فأزعجني على مستقبل البشرية !
إن المدينة الغربية المجنونة تحطم اليوم حياة القرية وتحولها إلى مدينة . مدينة

ملحدة جافية على ما هو موجود لديهم هناك . ويصنعون ذلك باسم د تمدين ،
القرية أى رفع مستواها !

والقرية فى أمريكا خاصة ليس لها وجود . فهى مزارع منعزلة ، تسكن فى كل
مزرعة أسرة أو مجموعة قليلة من الأسر . ولكنها تعيش على طريقة المدينة المنعزلة
التي لا تجمع بينها مودة القلب ، ولا الأخوة فى الله .

وكان ذلك متمشياً - هناك - مع إدخال الآلة فى الزراعة ، فقد تحولت حياة
الريف من صفتها « البشرية » إلى صفتها « الآلية » ، فتطورت القرية بحسب منطق
الآلة فى تلك البقاع . وأزعجنى هذا الخاطر . .

إن بذرة الخير الإنسانى كانت ما تزال باقية فى تربة الريف ، حيث يستشعر
الناس آثار القوة الكبرى الخائفة ويؤمنون بوجودها . فهل كتب على هذه
البشرية الضالة أن تلاحق هذه البذرة الطيبة بالمبيدات الصناعية حتى فى أحضان الريف ؟
هل كتب عليها أن تطارد الخير ، وتقطع روابط المودة ، وتبعثر الناس
أفراداً متفرقين ، لا يلتقون إلا على مصلحة قريبة أو شهوة جسد منهوم ؟

وهل هذا هو مستقبل البشرية مع « التقدم » العلى الذى لا يمكن وقفه عن
طريقه ، لأن وراءه شهوة البشر الخالدة فى كشف المجهول وتحقيق الرصيد النفسى
المتطلع إلى القوة من كل ميل . . ؟

ثم تذكرت المدينة الصناعية اليابانية . . وتذكرت القسم الأمريكى الجديد . .
فضلاً عن المدينة الإسلامية المنشودة . .

كلا ! ليس هناك ما يدعو إلى الانزعاج على مستقبل البشرية .

إن كل الدلالة التى يمكن أن نستخرجها من هذا الواقع السىء الموجود اليوم ،
والذى ينذر بإفساد المستقبل . . هى حاجة البشرية الماسة إلى العقيدة .

وحين توجد العقيدة توجد « الإنسانية » . ويوجد الخير الذى يتمثل
فى تلك الكلمة الخالدة . خالدة لأن فيها قبساً من الله الخالد الذى نفخ فيها
من روحه وأراد لها الارتفاع !

حضارة الكيلوواط!

قال لى أحد الشيوعيين مرة وهو يجادلنى: إن مقياس الحضارة الحديثة هو مقدار ما يستهلكه الفرد من التيار الكهربائى ! فبقدر ما يستخدم من آلات حديثة تستهلك تياراً كهربائياً تقاس حضارته وقد بلغت حضارة أمريكا كذا كيلوواط فى المتوسط لكل فرد ، ولم تبأخ بعد فى روسيا هذا الرقم ، ولكنها فى طريقها إليه لأن استهلاك الفرد هناك يرتفع بسرعة سنة بعد سنة .

قلت له : ولكن هذا معناه — بمقياسك — أن الشيوعية ماتزال متأخرة عن الرأسمالية ، فكيف يتفق هذا مع كونها — فى رأيك — حركة تقدمية عن الرأسمالية ؟ وفوجئى محدثى الشيوعى بهذا القول مفاجأة تامة ، وبدأ عليه الذعر ! لأن المقياس الذى يتخذه لقياس الحضارة قد خذله على حين غرة منه ؛ وراح يحاول التخلص من المأزق بأن يقول : إن الشيوعية لم تأخذ مداها بعد ، وحين تصل إلى قتها ستفوق الحضارة الأمريكية .

قلت له : لا تهرب ! أنا أسألك عن الفكرة الشيوعية ذاتها : أأرقى هى من الرأسمالية الأمريكية حتى قبل أن تبلغ قتها ، أم هى متخلفة عنها ؟ وسكت . . فلم يهتد إلى جواب !

* * *

ثم قرأت حديثاً جرى بين إحدى الأمريكيات اللواتى يزرن مصر ، وبين إحدى الصحفيات عن مقياس الحضارة رددت فيه الأمريكية نفس الكلام . قالت إننا نقيس الحضارة بالكيلوواط فبقدر ما يستهلك الفرد من التيار الكهربائى تقاس درجة تحضره !

* * *

لماذا ينحرف الناس هناك هذا الانحراف ؟ لماذا تختل القيم في موازينهم إلى هذا الحد الذى يثير السخرية حين يتعمن فيه الإنسان ؟
إنها المقاييس الخاطئة تؤدى حتما إلى النتائج الخاطئة . وبقدر ما يكون الخطأ في المقاييس يكون الانحراف في النتيجة .
والمسألة إذن في حاجة إلى تصحيح القيم . . تصحيح المقاييس .

* * *

كيف نقيس الإنسان ؟

هل هناك مقياس « موضوعي » لا يخضع لرأي ورأيك ، بل يعتمد على أسس ثابتة يمكن الرجوع إليها لتصحيح المقاييس كلها اختلت في أيدي البشر ؟^(١)
فلننظر في هؤلاء « البشر » . كيف أصبحوا بشرا . فلعلنا أن نصل — عن هذا الطريق — إلى المقياس الصحيح .

وأسهل طريق نصل منه إلى النتيجة ، وهو كذلك أضمن طريق ، أن نوازن بين الإنسان والحيوان . فالفرق المتبقي في الميزان هو حقيقة الإنسان !

والفروق بين الإنسان والحيوان كثيرة لا نلخصها هنا إلى جدول كثير .
أحد الفروق بطبيعة الحال أنه يستخدم « عقله » في التفكير والتعلم والاختراع .
وأحد الفروق كذلك أنه يستخدم الإرادة الضابطة في تنظيم ميوله الفطرية وتوجيهها ذات اليمين وذات الشمال .

ومن هذا الفارق الأخير ، أو من كليهما معاً ، كف الإنسان — على مدار الزمن — عن الاستجابة المباشرة لميوله الفطرية على طريقة الحيوان ، وراح ينظمها ويهذبها ، ويستجيب لها آخر الأمر ولكن بعد أن يقطع بها شوطاً بين المنبع والمصب . وعلى ضفاف هذا الشوط من المنبع إلى المصب نبتت الفنون والعقائد ، والأفكار والفلسفات ، والعادات والتقاليد ، كالزهور الجميلة تنبت في وسط الطين ، ولكنها شيء آخر غير الماء والعطين .

(١) أشرنا إلى هذه الفكرة من قبل في فصل « مقياس الحياة » وهنا نقيس الحياة من زاوية أخرى . وهذه الفكرة مكملة لتلك .

إلى هذا الحد يتفق الناس في حكمهم على الإنسان . فتسكتني إذن بهذا القدر ،
ولا ضرورة الآن لذكر الروح ، ما دام الناس غير متفقين على أنها من مزايا
الإنسان التي تفرقه عن الحيوان !

وإذن فحين نتحدث عن الحضارة الإنسانية ، ينبغي أن نرجعها إلى مقاييسها
تلك البديهية الظاهرة التي يتميز بها الإنسان عن الحيوان ، وإلا فستكون مقاييسنا
خاطئة قاصرة لا تصل بنا إلى الجواب الصحيح .

العلم .. والاختراع .. لاشك أنهما إنتاج إنساني أصيل . فالحيوان لا يخترع ،
ولا يحسن أن يكيف حياته على أساس الاستفادة الواعية مما حوله من ذخائر الوجود .
ولسكن القياس بهذا المقياس وحده لا يكفي ، ولا يؤدي إلى نتيجة صحيحة .

تصور أنك تحاول رسم دائرة بفرجار (برجل) ذى قائمة واحدة ! هل يمكن
أن تصل إلى نتيجة ؟ أم إنه لابد من القائمتين معاً ، تركز بإحدهما في مركز
الدائرة وتدور بالأخرى على الورقة حتى يتم الرسم ؟

العلم أو الاختراع .. هو إحدى قائمتي الفرجار . ولسكنه وحده لا يعنى
شيئاً ولا يرسم صورة .

فالعلم يمكن أن يستخدم للخير وللشر . ويستخدم في التدمير ويستخدم في البناء .
والعلم يمكن أن يستخدمه الرجل الفاضل والرجل المنحرف . فأنا أستطيع أن
أستخدم الغسالة الكهربائية في بيتي وأنا رجل هابط منحرف ، أكيد للناس وأتمنى
لهم الشر - سواء نفدت هذا الشر في صورة جريمة أم بقي إحساساً كامناً في نفسي -
كما أستطيع أن أستخدم هذه الغسالة الكهربائية وأنا رجل نظيف المشاعر أحب
للناس الخير وأسعى لهم في الخير ..

فإذا كنت أستخدمها في الحالتين فكيف تصلح في ذاتها أن تكون مقياساً
لإنسانيتي أو تحضري ؟

والغسالة الكهربائية شأنها شأن المحراث الميكانيكي ، وشأن الراديو

والتليفزيون والسينما والمطبخ الكهربائي والقطار الكهربائي والإنسان الآلي والمخ
الإلكتروني.. إلى آخر هذه الآلات التي تعمل بالكهرباء وتستهلك الكيلوواط
لا يمكن أن تكون في ذاتها مقياساً للحضارة ولا مقياساً للأدمية ، لسبب بديهي
بسيط هو أن الجميع يستخدمونها ، بما فيهم من خير وشر ، وصعود وهبوط .
وإذن فلا تصلح لقياس الصعود والهبوط في مقاييس الإنسانية .
وإنما هي تصلح حين نضيف إليها القائمة الأخرى من قائمتي الفرجار ،
لترسم الدائرة وتمتص الصورة للعيان .

قلنا إن الفارق بين الإنسان والحيوان - إلى جانب العلم والاختراع - هو
تحكمه في نوازه الفطرية ، وعدوله عن الاستجابة المباشرة لإيها ، بما نشأ عنه
الفنون والعقائد ، والفلسفات والأفكار ، والتقاليد والعادات .
تلك هي القائمة التي ترسم الدائرة . أما الأخرى فهي فقط محور الارتكاز .
وعلى قدر المسافة التي أفتح بها القائمة الثانية تكون الدائرة ضيقة أو واسعة ،
محدودة أو شاملة . بينما القائمة الأولى ثابتة في جميع الأحوال في نقطة الارتكاز..
فعلى إذن حين أبحث في مدى حضارة إنسان معين ، أو شعب معين ، أن أرى
الدائرة التي يعيش فيها . الدائرة التي يرسمها لنفسه بقائمتي الفرجار .

فإذا كان هذا الفرد أو هذا الشعب يستخدم التليفون والتلفزيون والغسالة
الكهربائية والمطبخ الكهربائي ... ويستهلك أكبر قدر من الكيلوواط في اليوم ،
ثم يكذب وينصب ، ويستغل الآخرين أسوأ استغلال ، وتفوح من تصرفاته
روح الغدر والخيانة ، والأنانية البغيضة .. أو إذا كان يستهلك هذا القدر
من الكهرباء ، ثم يتنازل عن آدميته ، عن فنونه وعقائده ، وآرائه وفلسفاته ،
وتقاليده وعاداته ، ويرتد كالحیوان يستجيب لميوله الفطرية استجابة مباشرة . .
فكيف أقول إنه متحضر ، بل كيف أقول إنه إنسان ؟
وما قيمة هذه الكيلوواطات كلها ، وهي لا ترفع مشاعره إلى إحساس

تفيل ، أو رغبة في التعاون مع بنى البشر على الخير ؟
أمريكا هى البلد الذى وصل إلى القمة فى استهلاك الكهرباء . . .
وأمريكا هى التى تعامل الزوج تلك المعاملة البشعة التى لم يُسمع عنها
إلا فى شريعة الغاب .

فكيف تكون أمريكا متحضرة ، ولو استهلكنا من الكهرباء أضعاف
ما تستهلكه اليوم بحساب الكيلو واط ؟

* * *

وإذ كان العلم والاختراع شيئاً مشتركاً ، أو يمكن - على مدار الزمن - أن يكون
مشتركاً بالنسبة للجميع ، فالمقياس الآخر الذى يحدد النتيجة ويرسم الصورة .
الآدمية . . . أو الحيوانية . . .

الارتفاع عن عالم الضرورة أو الهبوط إليه . . .
الإحساس بالآخرين على أنهم زملاء فى البشرية ، أو أعداء يجب تحطيمهم
والاستئثار دونهم بطيبات الحياة ، أو عبث يستغلون لحساب سيدهم .
هذا هو المقياس .

وبقدر ما يرتفع الإنسان أو يهبط فى هذا المقياس تكون درجة تحضره ،
لأنها درجة إنسانيته .

فالذى يغرق فى شهواته ولذائذه لا يرتفع عنها . . حيوان مرتد عن الإنسانية .
والذى ينبذ عقائده وتقاليده وأخلاقه . . حيوان مرتد عن الإنسانية .
والذى يسعى إلى إيذاء الآخرين من بنى البشر . . . حيوان مرتد عن الإنسانية . .
ولو استخدم كل آلات الأرض ، واستهلك كل ما فيها من كهرباء .

والذى يكتفى من متاع الجسد بالقدر المعقول ، ويملك حرته لإزاء شهواته . .
والذى يربط قلبه ووجدانه بعقيدة تقيه من الهبوط وترفع وجهه إلى
السماء وهو يمشى بقدميه على الأرض .

والذى يحس بالكيان البشرى للآخرين فلا يستعبدهم ولا ينازحهم ولا يستأثر
دونهم بالخير . .

ذلك هو الإنسان المتحضر ، ولو لم يستهلك كيلو واطا واحدا من الكهرباء !

* * *

هل تلك مقاييس شخصية تقديرية ؟

كلا ! فقد رددناها إلى أصولها البسيطة ، التى ينبغى أن ترد إليها . وهى
الفوارق التى تفرق بين الإنسان والحيوان وكل مقياس لا يدخل هذه الفوارق
فى حسابه فهو مقياس خاطئ . ، لأنه لا يقيس حقيقة الإنسان ، وإنما يقيس
جانبا واحدا منه لا يعبر بذاته ، وليس له وحده دلالة ، وإنما يعبر فقط حين
يتبين اتجاهه ، ويُرسم له الخط الذى يسير فيه .

ومن هنا تبدو تفاهة المقاييس الغربية التى تقيس الحضارة بالكيلوواط !

* * *

هل معنى ذلك أن ننفض أيدينا من ثمار التقدم العلمى مادام ليس لها
وزن فى الميزان ؟

كلا . لا أريد أن أقول ذلك .

فالعلم - كما قلنا - نتاج بشرى أصيل . والاستفادة من ثماره ، وتكييف
الحياة على أساسها خصلة مميزة الإنسان ، فإذا أبى الإنسان ذلك أو نكص عنه
فهو لا يريد أن يستغل كل كيانه وكل طاقاته ، وهو إذن ناقص الكيان .

ولكننى أريد أن أثبت حقيقة هامة :

إن الإنسان يستطيع فى سهولة أن يعرض ما ينقصه فى جانب العلم والاختراع ،
إذا كان غنى النفس بالجوانب الإنسانية ، الأصيلة التى يرتفع بها عن عالم
الضرورة ، ويشعر بزمالة البشر فى الإنسانية فيتعاون معهم على الخير المشترك للجميع .

ولكنه لا يستطيع بالعلم وحده أن يعوض ما ينقصه في الجانب الإنساني ولو أضاف كل يوم مائة اختراع جديدة ، ولو استهلك كل يوم ألف كيلواط . ومن ثم يكون المقياس الآخر هو المقياس الحاسم ، ولا يكون الأول إلا دليلاً ، في الميزان !

* * *

وأوروبا اليوم تفسد مقاييس الحياة لأنها - اليوم - تملك السيطرة والسلطان ! ورب قائل يقول : وكيف ملكت القوة والسلطان ؟ وكيف ملكت أن تفرض المقاييس الخاطئة على البشرية ؟ أليس بالعلم والاختراع ؟! وإذن فهذا هو المقياس ! وذلك حق يؤدي إلى باطل !

فامتلاك السيطرة ليس حتماً أن يكون على حساب الإنسانية الحقة . وقد كان العالم الإسلامي في وقت من الأوقات يملك كل وسائل القوة المادية وكل ثمرات العلم ، ومع ذلك كان يرتفع في مقياس الإنسانية إلى الحد الذي شهد به أعداؤه من الصليبيين ، وما يزالون يشهدون به في كتب التاريخ .

ومن جهة أخرى فإن امتلاك أوروبا للقوة المادية على غير رصيد نفسي نظيف قد أدى إلى هذا الصراع الرهيب في حربين متواليتين في ربع قرن ، والثالثة على الأبواب تنذر بتدمير الحياة على وجه الأرض .

ويوم تصل البشرية إلى استخدام ثمار العلم في تهذيب النفوس والارتفاع على عالم الضرورة ، فيومئذ فقط تكون قد ارتفعت حقاً في مقياس الحضارة الأصيل .

النفاق الاجتماعي

النفاق في جميع صورهِ وذيلة منفرة . فهو عجز عن المواجهة ، وضعف في الخلق والتواء في الطبع وخبث في الطوية . . .

والنفاق الاجتماعي ، بمعنى الظاهر بالفضيلة في الوقت الذي لا يؤمن بها الإنسان أو لا يمارسها في الواقع ، لا يخرج عن كونه نفاقا ، ولا يخرج عن كونه رذيلة . .

إلى هنا تتفق مع جميع الذين يكرهون النفاق ويدعون إلى إبطاله . .
ولكننا نفترق عن بعضهم بعد ذلك .

* * *

النفاق هو المرحلة المتوسطة بين الفضيلة الحقّة والرذيلة المكشوفة .
قوم لا يؤمنون بالفضيلة لأنهم يعجزون عن تكاليفها ، أو لأن طباعهم الملبطة لا تألف معها ، ولكنهم في ذات الوقت ضعاف الشخصية ، لا يقدرّون على المواجهة ، فيتظاهرون بالفضيلة ليرضوا المجتمع ، بينما هم يمارسون رذائلهم في الخفاء . هذا بطبيعة الحال إلى جانب الذين يتخذون من الظاهر بالفضيلة تجارة يصلون بها إلى مطاعمهم الخبيثة ، وهؤلاء ليسوا في حسابنا لأنهم يدخلون في طائفة الدجالين والمحتالين ومن لا يهملهم من المجرمين . ولكننا نتحدث عن الفرد العادي الذي لا ينافق لغرض خبيث يهدف إليه ، وإنما مجارة للمجتمع دون إيمان حقيقي بما يأتيهِ من الأفعال .

والخروج من هذا النفاق لا يتم إلا بإحدى وسيلتين :
إما الإيمان الحق بالفضائل التي يمارسها الإنسان نفاقا ، والصبر على تكاليفها في السر والعلن ، ومغالبة النفس عن الانحراف عنها . .

ولما الخروج الصريح عليها ، والقيام علانية بالذائل التى يأتها الإنسان فى غفلة من الناس .

والأمر الذى نحسبه لا يحتاج إلى جدال هو أن الوضع الأول هو الوضع اللائق بكرامة الإنسان ، الذى كرمه ربه وفضله على كثير من خلق ، وهدهد الطريق الأسمى ، ورسم له سبيل الفلاح .

ولكن قوما يقولون إن هذا غير ممكن . والإنسان ليس فاضلاً بطبيعته ، وإن هذه المثل الأخلاقية مُشَل نظرية لا يمكن تطبيقها فى الواقع ؛ وإذن فلا ضرورة للنفاق ، وانكسر صرحاء ، ولنتكشف برذائلنا . أو فلنكشف عن تسميتها رذائل ، فإن ذلك نفسه نفاق ؛ ولنسمها الأمر الواقع ، ولا نخرج من الظهور بها على حقيقتها . ولنتشجع . فإن ذلك هو اللائق بالإنسان المتحرر من سخافة التقاليد أو من خرافة الفضيلة !

وهؤلاء هم الذين لا نستطيع أن نوافقهم !

* * *

لقد نشأت هذه النظرة فى أوروبا فى العصر الحديث من ظروف شتى . أولها أن المثل المسيحية المتعالية المتزمتة عسيرة التطبيق حقاً . فهى تسكف الإنسان فوق طاقته وقد وجد أهلها أنهم لا يستطيعون تنفيذها كاملة إلا بالرهبة ، أى الانقطاع الكامل عن العالم الحى المتحرك الجياش بالحركة والحياة . ثم انكشفت الأديرة ذاتها عن فضائح خلقية بشعة ، تستنكر من الشخص العادى ، فضلاً عن الشخص المنقطع للعبادة ، الكاظم لشهواته ، المتطلع - على طريقته - إلى السماء . وقد مر جيل أو أجيال آمن الناس فيها بالمثل المسيحية حقاً ، ثم ثقلت عليهم تكاليفها وعجزوا فى الوقت ذاته عن الخروج الصريح عليها ، من أثر النفوذ الذى يمارسه رجال الدين ، ومن أثر الاستحياء من الظهور بمظهر الضعف والعجز و . . . ما إلى ذلك من الأسباب ، فنافقوا ، أى تظاهروا بأنهم فضلاء ، وهم

في الواقع لا يطيقون تنفيذ الفضيلة بمفهومها لديهم ، أو لا يريدون ذلك .
ثم جاء فرويد . . . وارتكب جريمة العظمى التي تكشف عنها بروتوكولات
حكما . صهيون ، إذ يقول هؤلاء الحكما . : « إن فرويد واحد منا . وينبغي
أن ننشر تعاليمه بكل قوتنا . يجب أن نضع الرذائل الإنسانية تحت الشمس
حتى لا يستحي أحد من كشفها . وحتى تتحطم الفضيلة فيتاح لنا التغلب على البشرية » .
جاء فرويد ليقول إن الفضيلة كلها كذب وزور وخداع . وإن الإنسان
في حقيقته ما هو إلا طاقة جنسية غالبة قاهرة مندفعة كالحيوان . وإن إقامة
الحواجز في طريقها من خلق أو دين أو عرف أو تقاليد لا ينظفها ولا يهذبها ،
ولأنما هو فقط يكبتها ، أي يمنعها من الظهور على السطح ، ولكنها باقية على حالها
في اللاشعور ، تحرك الإنسان دون أن يدري أو يحس ، فضلا عن العقد النفسية
والاضطرابات العصبية التي تصاحب هذا الكبت ولا تترك الإنسان في راحة .
وفعلت تلك الدعوة فعلمنا الخبيث المقصود .

وانفلتت أوروبا من تزمّت المسيحية إلى إباحية فرويد . . انفلتت كالحيوان الهارب
من القفص يأكل كل شيء في طريقه ، ويحطم كل شيء في طريقه . ليشعر أنه طليق .
وفي ظل هذه « الهيجة » المنطلقة بلا تعقل ظهرت آراء و « فلسفات »
ومعتقدات جديدة ، تسير في نفس الخط الذي رسمه فرويد ، تقول إن ما يسمى
بالفضيلة ليس إلا وهما أو خرافة نادت بها الأديان ، واتبعها الناس تحت سلطان
الدين والخرافة . اتبعوها نفاقا فقط ، ولكنهم لم يؤمنوا بها قط ولم ينفذوها قط ،
غيبضوا إذن أن « نتحرر » من هذه الخرافة ، وأن نتبع « النور » الذي أتى به علم
النفوس ، فنعرف نفوسنا على حقيقتها ، وتتكشف بها على طبيعتها ، لا يمنعنا من
ذلك حرج زائف ولا تزمّت كاذب . ولنقل لأنفسنا صراحة إننا شهوانيون ،
وإن الشهوة هي حقيقة متنا العميقة المتأصلة . . ثم لنسكن شهوانيين على المكشوف
بدل الخداع والنفاق واللف والالتواء . . .

وتمادى هؤلاء إلى حد المغالطة المكشوفة والاستدلال المفتسر الذى لا يخضع لمنطق ولا يثبت لبرهان .

قالوا إن الإنسان حين يكون وحده آمناً من رقابة الناس أو مفاجأتهم له ، يتخلى عن فضائله المزعومة ، ويتصرف على طبيعته . فهو لا يتحرج أن يأتى بأى عمل من الأعمال التى تنافى مفهوم الفضيلة عند ذلك الشخص ذاته . ولكنه فى اللحظة التى يحس فيها وجود أحد يصرع فيدارى طبيعته . . يلبس ويتحشم ويتأدب ويتخذ سلوكاً جديداً كله مفتعل . . من أجل الآخرين !

وقالوا إن التزمت والتستر وإقامة سدود سميكة من الدين والأخلاق والتقاليد لم يمنع من وجود إباحيين متحللين إلى أفذر حد يخفون داخل مسوح الفضيلة ويصنعون كل شئ فى السر ، ولم يمنع من وجود نساء مهتكتات إلى أقصى حدود الفجور وهن داخل الأسوار و وراء الحجاب . وكلتا القولتين حق يراد به باطل .

فصحيح ولا شك أن الإنسان وهو وحده يتخفف من كثير من القيود التى يلتزمها وهو موجود مع الناس . ولكن لماذا نسمى ذلك نفاقاً ، ولماذا نقول إنه شئ مفتعل ، ليس فى طبيعة الإنسان ؟

فلنأخذ مثالا من الواقع ، لانتخرج من ذكره ، لأنه واضح الدلالة على زيف هذا الاستدلال .

إن كل حى يخرج فضلاته عن طريق التبرز . والتبرز عملية قدرة فى حد ذاتها لأنها تتصل بالأقذار التى يلفظها الجسم إبقاء على الحياة . ولكن الأمر الواقع الذى يلبسه كل إنسان بالتجربة أنه لا يتأقف من قذارة نفسه ، ولا يشعر بالنفور من عملية التبرز التى يأتيا كل يوم . بل الأمر على العكس ، فإنه من عجائب الخلقة ومعجزاتها الطريفة أن كل العمليات البيولوجية مصحوبة باللذة ، تشجيعاً للكائن الحى على القيام بها ؛ حفظاً لذاته أو حفظاً لنوعه ؛ ولولا هذه اللذة لتكامل الكائن

الحى عن أدائها ، وربما أصيب بالضرر أو قضى عليه بالفناء .
فالذى يحدث إذن أن كل مخلوق يحس بلذة فى إخراج فضلات نفسه ، بينما يحس
بالتقرز والنفور من رؤية فضلات غيره ، لأنه يرى قذارة ولا لذة !
أفإن قام كل إنسان بإخراج فضلاته بعيداً عن أعين الناس ليمنع ما يحسون به
من النفور والتقرز ، أيقال عنه إنه منافق ؟ ويقال إنه يصنع من أجل الناس
مالاً يصنع من أجل نفسه ؟ وإنه لو كان وحده آمناً من رقابة الناس أو مفاجأتهم
له لما قام بهذا الإجراء ؟
أى منطق هذا ؟

نعم إنه يصنع ذلك من أجل الناس . ولكن لماذا حدث ذلك ؟ أليس
لأن الناس قد وجدوا أنهم لو صنعوا أمام بعضهم بعضاً ما يصنعونه فى خلوتهم
فستكون النتيجة أن يتقرز الناس جميعاً وينفروا جميعاً ؟ أليسوا قد اتفقوا
حينئذ أو تواضعوا على أن يداروا سواهم عن الآخرين ليمنع كل إنسان عن
نفسه هو فى النهاية ما يثير تقرزه واشمئزازه ؟ أليست المصلحة المشتركة إذن
هى التى منعت كل إنسان أن يعمل فى صحبة الناس ما يعمل فى خلوته . المصلحة
التي هى فى النهاية مصلحة كل فرد بمفرده ؟
أفيقال إن هذا نفاق ؟

والمسألة كذلك فى الفضائل ، كلها ، وإن كان الأمر مستويات فوق مستويات .
ولنأخذ المسألة الجنسية التى بدور حولها الجدل كله فى هذا القرن العشرين .
الرغبة الجنسية رغبة أصيلة عميقة فى الكيان البشرى تمتد إلى أعماق جذوره .
هذا حق .

وقد عملت الأديان والتقاليد والأخلاق على تهذيبها والارتفاع بها ، ولكنها
موجودة لا تزال ، متأصلة فى الأعماق . ذلك أيضاً حق . ولكن ما صلة ذلك
بما يقولون وما يريدون ؟

هل معنى ذلك في منطقهم أن يقوم الإنسان بهذا العمل بلا تخرج وأمام الناس ؟ إنهم إن لم يقولوا ذلك كله علانية فقد قالوا معظمه ، حين أباحوا العرى ، وأباحوا التقبيل والعناق على قارعة الطريق ، وأباحوا اتخاذ الخليلات والخلان ، وأباحوا القصص الجنسية الحادة والصور المثيرة في السينما والمسرح والإذاعة والصحافة . . وأباحوا كل ما نراه اليوم بدعوى التحرر والواقعية والانطلاق ، وما أشبه ذلك من هذيان المحمومين .

فلنرجع إلى هذه القيود كيف وضعت ولأى شيء وضعت .
يقولون إن البشرية الأولى كانت تمارس الشيوعية الجنسية كاملة أو قريبة من الكاملة .

ورويداً رويداً بطلت هذه الشيوعية الجنسية وعرف نظام الزواج ، أى تخصيص رجل لكل امرأة وامرأة لكل رجل على تفاوت في هذا التخصيص .
هل حدث ذلك بلا سبب ؟

هل استقرت الأمور على الإباحية الأولى وساد الوثام بين الناس ؟
أم إن التنازع على امتلاك النساء قد أقام المذابح بين الرجال ، بحيث وجدوا أن أفضل طريق هو أن يحوِّط كل إنسان على ملكه بحيث لا يتعداه غيره ؟

ثم استقرت الأمور على ذلك آلاف السنين لا تضطرب إلا حين يقوم شخص عايب يتعدى الحدود . ووجد الناس أنه لا يأمن أحدهم على حدوده الخاصة إلا بأن يمتنع هو عن مهاجمة حدود الآخرين ولو كان راغباً في ذلك مشتهياً له .
فهل كان ذلك نفاقاً ؟

هل كان نفاقاً وهو يؤدي في النهاية إلى الأمن المشترك والمصلحة المشتركة ؟
يطمئن كل إنسان على أسرته ويمنع أذاه عن أسر الآخرين ؟
وهل مغالبة الناس لشهواتهم - مع وجودها وتأصلها في نفوسهم - حرصاً

على المصلحة المشتركة ، أو خوفا مما يصيبهم من الضرر لو انفلت القيد ، يعتبر زورا وكذبا وخداعا لا يصنعه الإنسان إلا من أجل الآخرين ؟

أى منطق هذا يصاب به مفكرو القرن العشرين ؟

ثم ننقل إلى العجيبة الثانية فى تفكير أولئك العباقرة المحدثين . .

إن الوقار والنزمت والقيود التى يفرضها الدين والأخلاق والتقاليد لم تمنع قيام المنتهكين فى السر ، ولا المنتهكات من وراء الحجاب .

نعم . هذه حقيقة . فإذا يراد من ورائها ؟

يراد أن نلغى هذه القيود والتقاليد ، ونتخلى عن الغفلة التى نعيش فيها

مغمضى العيون !

لماذا ؟ هل سيؤدى ذلك إلى تنظيف أولئك المنتهكين والمنتهكات ، وردهم

إلى الفضيلة ؟

أم قصاره أن يخرج إلى عرض الطريق ما يحدث من الخبائث وراء الجدران ؟

فلننظر إلى الأمر الواقع . . فلترك النظريات البراقة . . فإنه يقال لنا إن مزية

القرن العشرين هى التمسك بالواقع والتخلى عن الأوهام ! !

هل الذى حدث فى أوروبا وأمريكا أننا نظفنا النفوس ورفعنا الأخلاق

ورددنا الناس إلى الفضيلة - عن طريق الحرية - أم أننا حولنا البيوت والفنادق

والطرق والشوارع كلها إلى مواخير ؟

وماذا كان يصنع المنتهكون عندنا فى السر والمنتهكات وراء الجدران ، أكثر

مما يصنعه « الفضلاء » هناك على المكشوف ؟

أم إن العمل ذاته يعتبر رذيلة هنا وفضيلة هناك ؟

وما الذى يريده السادة « المفكرون » هنا فى الشرق على وجه التحديد ؟

يريدون أن يطهروا نفوس الناس ويعودوهم على الفضيلة الحقة ، الفضيلة

الناشئة عن اقتناع فى الضمير وتأصل فى الوجدان ؟ أم يريدون أن يخرجوا

المواخير المستورة إلى الشارع، ويقولوا إن ما يحدث فيها هو الفضيلة ، كما صنعت أوروبا وأمريكا في العصر الحديث ؟

* * *

وليس هنا مجال الرد على فرويد وأتباعه من أن الإنسان سافل بطبعه مندفع أبدا وراء شهوته . وأنه إما السكبت المضر وإما الانطلاق وراء الشهوات .
ليس هنا مجال الرد ، فقد أفردت له فصلا خاصا في كتاب الإنسان بين المادية والإسلام ، كما ناقشت كثيرا من آرائه في أما كن متفرقة من الكتاب .

ولكنني أعيد هنا في اختصار شديد ما قلته هناك عن نظرة الإسلام .
إن الإسلام لا يلجأ إلى كبت الطاقة الحيوية - جنسية كانت أو غير جنسية - بل يعترف بها اعترافا كاملا على أنها الأمر الواقع في طبيعة البشر : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ؛ ذلك متاع الحياة الدنيا » . وإن كل ما يدعو إليه الإسلام هو تنظيف الاستجابة إلى هذه الشهوات - مع الاعتراف بتناقضها في ذاتها وأصالتها وأحقيتها الكاملة في الإشباع - وهدف هذا التنظيف في النهاية هو رفع الضرر عن الفرد والجماعة . وهو قائم في الحدود التي لا ترهق الفرد ولا تكلفه فوق طاقته . « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » . وقائم على حقيقة « عليه ، ملبوسة » ، هي أن الإنسان قابل بالفعل للتهذيب بدرجة لا توجد في الحيوان ، مما يدل على أنها خاصية من خصائصه التي تفرد بها بين مخلوقات الله .

هذا التحديد المختصر لنظرة الإسلام يكفيننا هنا في صدد ما نريد الإشارة إليه ، وهو أن الإسلام يتمشى مع الطبيعة البشرية ولا يكبت طاقتها الحيوية ، ومن ثم لا يلجئ الناس إلى النفاق ، لأنه لا يتطلب منهم ما يحوجهم إلى النفاق . .
لأنه مثلا لا يقول لهم إن الشعور الجنسي قدر في ذاته فتنطروا منه وتعالوا عليه .
فإذا عجزوا عن إطاعة هذا النداء - تلبية لدوافعهم الفطرية - نافقوا ليحافظوا

على تعاليم الدين . . كلا ! إنه يقول لهم إنه أمر طبيعي جداً ، وتظيف في ذاته إلى أبعد الحدود . « حبيب إلى من دنياكم الطيب والنساء . وجعلت قرة عيني في الصلاة » . بل هو يدعوهم دعوة صريحة إلى أخذ نصيبهم من المتاع الجنسي إذ يدعوهم إلى الزواج والتبكير فيه . كل مافي الأمر أنه يمنحهم من أخذ هذا النصيب فوضى على طريقة الحيوان ، ويتقيحه لهم نظيفاً طاهراً كما يليق بالإنسان . فإذا أطاع الناس تعاليم دينهم في هذا الموضوع فلا تفاق إذن ولا حاجة إلى النفاق . وإنما الصراحة الكاملة والسعي الواضح المكشوف .

وكذلك الأمر في بقية تعاليم الإسلام ، لا تجد فيها النفس السوية حرجاً يدعو إلى النفاق .

وذلك فارق أساسي ينسأه أو يتناساه من يقيسون الأمور هنا على ما حدث في ظل الكنيسة الأوربية ، وكاه عند « المثقفين » دين !

* * *

ولكن الناس ليسوا كلهم أسوياء .

ومهما بلغ التهذيب الديني فليس المفروض فيه أن يهذب الناس جميعاً ويرفعهم إلى مستواه . والإسلام لم يفترض ذلك ولم يقل إن كل الناس سيعتقونه مؤمنين مخلصين .

هناك إذن قوم لن يؤمنوا . لن تتشرب أرواحهم العقيدة ، ولن يستضيئوا بنورها الشفيف .

وهؤلاء إما أن يخرجوا على الدين جبهة ، أو يكونوا منافقين .

وقد يكون من الخير في الأمور السياسية أن ينكشف المنافقون ليأخذ المؤمنون حذرهم منهم ، ويكونوا لهم دائماً بالمرصاد .

ولكن الشأن في الأمور الخلقية يختلف .

فليس من الخير أن يتبجح المنحلون والساقطون برذائلهم ويرتكبوها على قارعة الطريق .

فهنا تنشأ القدوة السيئة التي تشجع المترددين وتجرف المحافظين . وتكون النتيجة الأخيرة في النهاية أن يرتكز المجتمع كله في الرذيلة ، لا أن يتحول كله إلى فضلاء .

والبرهان هو ما حدث في أوروبا .
ولا ينبغي أن نخدعنا وصفهم لذائلهم بأنها فضائل ، وتبجحهم بأنهم أصبحوا واقعيين !
لقد أصبحوا واقعيين على مستوى الحيوان ، حيث ينبغي أن يكونوا واقعيين على مستوى الإنسان .

ولنعلم أن للقوم هناك ظروفهم ، سواء كانوا معذورين فيها أو غير معذورين . ونحن لنا ظروف غير ظروفهم ، وفهم للعقيدة غير فهمهم ، لا يكلف الناس فوق طاقتهم ولا يحوجهم إلى النفاق .

فهمتنا إذن أن نرفع الناس إلى مستوى الإنسانية . أن نبذر في نفوسهم الفضيلة الحقة ليسكونوا مؤمنين بها عن اقتناع صادق وتأصل في الوجدان ، لا انصياعا لقيد خارجي محكم أو حجاب مفروض .

ولكسنتنا في الحالات التي نعجز فيها . . لا لسوء عقيدتنا ولا فساد نظامنا ، بل لوجود انحراف في شخص لا يريد أن يرتفع إلى مستوى الإنسانية ويريد أن يخلد إلى مستوى الحيوان . .

عند ذلك قلنفرض تقاليدنا فرضا بقوة القانون . .

ولا ضير يومئذ بما يقوم به بعض الناس من النفاق خوفا من سطوة القانون والتقاليد ، فذلك خير من إباحة القدوة السيئة التي تشجع المترددين وتفسد الصالحين .

إنما الضير يوم يتحلل الناس كلهم من عقائدهم ، ويبقون على ردائها الخارجي وحده انصياعا للقيد المفروض . فالذي يحدث عند ذلك أن يتهدم المجتمع كله لينبى على نسق جديد .

فوق الواقع

لى صديق يشتمل على صفات كثيرة تضابقنى .

فهو مثلامرلح بذكر التفصيلات الدقيقة التى لا تقدم ولا تؤخر ، وأنا أمقت ذلك فى غير الأبحاث العلمية والمشكلات الفكرية ، التى يحتاج الإنسان إلى تتبع جزئياتها للوصول إلى نتائجها .

وهو كثيرأ ما ينسى نفسه ، فيعيد رواية قصة رواها من قبل ، ويعيدها بكل تفصيلاتها الدقيقة التى لا تقدم ولا تؤخر ؛ وأنا أكره بطبيعتى أن أستمع إلى الشئ مرتين ، فضلا عن التفصيلات المملة التى تصبح أكثر إملالا حين تكرر وتعاد . يقول لى مثلا : إنك لم تسمع منى قصة الليلة التى قضيتها فى باديس أو لندن أو برلين . . وأكون قد سمعتها منه قبل ذلك عشر مرات ! فيروح يقصها مرة أخرى ، ويروى لى ما قال فيها من شعر وما حلم من أحلام ، ويتوقع أن أنفعل بكل جزء من جزئياتها ، وأتعلق بمفاجأتها كأننى أسمعها أول مرة ، وإلا فأنا معرض عنه ومشغول !

وهو ينسى نفسه كذلك فيسألنى عن أشياء فأشرحها له بالقدر الذى أظن أنه أشبعه ولم يعد فى حاجة إلى مزيد ، ثم إذا هو بعد أيام يسألنى عنها بنفس الصيغة واللهجة كأننى لم أقل له شيئا من قبل ؛ وأنا أكره أن أكرر نفسى ، وأمقت مققا شديدا أن أضطر إلى إعادة كلام قلته من قبل .

ثم هو حساس إلى درجة شديدة ، تبحرله الإشارة العابرة ويتعلق بها ويكبرها ويضخمها حتى يجعل منها قضية كبيرة . وأنا تعودت مع أصدقائى خاصة أن أنكلم بلا تكلف — مادمت مطمئنا إلى أنى أحبهم ولا أقصد الإساءة إليهم — وأكره من أحدم أصدقائى أن يكلفنى — بحساسيته — أن أنيقظ لكل كلمة أقولها خشية

أن تجرح إحساسه وأنا لا أقصد . بينما أنا أملك الصراحة الكافية — كما قلت له مراراً — أن أنتقد الناس مواجهة حين أقصد إلى ذلك .

وهو يتسبب بحساسيته تلك في مضايقات كبيرة لي .

فقد يضرب لي موعداً ثم يتأخر عنه ساعة أو أكثر . . أو لا يحى أصلاً . ثم يعتذر إلى فأقبل عذره رغم معرفته بأن الانتظار يمزق أعصابي . فإذا تأخرت أنا لأسباب تخرج عن إرادتي وجدته منفعلًا نائراً لا يقبل عذراً ولا يهدأ من قريب !

ويتصرف أحياناً — وهو معي — تصرفات مسيئة للآخرين ، فيؤذيني ذلك . يؤذيني من أجله هو . ومع ذلك لا أملك تنبيهه ولو بآرق لفظ ، بسبب حساسيته الزائدة ، وأظل أكظم في نفسي هذا الضيق .

وهو في جملة القول متعب بالنسبة إلى . وما أريد أن أزعم أنه هو المخطيء في كل هذه الأمور وأنا على صواب . فقد أكون أنا المخطيء أو قد يكون كلانا على صواب ولكنهما اختلاف الطبع بين الاثنين . وما أريد كذلك أن أزعم أنه — حتى بالنسبة إلى — متعب في جميع أحواله . فما من شك أنه يحمل بين جنبيه قلب إنسان ، وما أقل الغلوب الإنسانية في هذا الزمان .

ولكنني أريد فقط أن أبين حقيقة واقعة : أنه لا تكاد تخلو جلسة واحدة من جلساتي معه من أمر يملئني ويضجرني . ثم يزيد الأمر وقعا على أعصابي أنني لا أحب أن أظهر له الملل والضيق ، بل أحب أن أظهر بمظهر المقبل عليه ، المرتاح لكل ما يقول . تلك حقيقة واقعة . . .

وأنا معذور حين أحس بالضيق والضجر من أمور لا تتفق مع طبيعتي ، بل هي معها على طرفي نقيض .

ولكنني مع ذلك كثيرأ ما أحس أنني مقبل عليه إقبالا حقيقية لا اصطناع فيه . أحس أنني متقبل لكل ما يصنعه وما يقوله . . كل تصرفاته التي تبدو لي بعين « الواقع » منحرفة منقرفة . . كل تفصيلاته التي لا تقدم ولا تؤخر . . كل تكراره

وإعادته . . كل أسئلته عن أشياء سبق أن شرحتها له . . كل حساسيته الزائدة . .
كل تصرفاته التي لا ترضى الآخرين .

كل هذه الأمور أحس أنني أقبّلها بقبول حسن . لا أحس أنني « مصطبر »
عليها كرها لكيلا أخرج شعوره ، بل متقبّلها حقاً . . بغير جهد ، بغير حمل
على الأعصاب . . متقبّلها وأنا بها سعيد !

هل تغير « الواقع » ؟

أبدأ . . إنه « واقع » ، ما يزال .

ولكنني أنا ارتفعت « فوق الواقع » ، لحظات من الزمان !
وصحيح أنني لا أرتفع فوق الواقع في كل لحظة ، ولكنني أحس أنني « إنسان »
حقاً حين أرتفع فوق الواقع ، وبمقدار ذلك الارتفاع !

* * *

« الواقع » ، حقيقة ما في ذلك شك .

ولكن الارتفاع فوق الواقع حقيقة كذلك . . : إنه حقيقة « الإنسانية » ،
وندرة اللحظات التي يرتفع فيها البشر عن الواقع لا تعني أنها غير موجودة ،
ولا يبرر إغفالها من « واقع » الحياة . فما دامت تحدث بالفعل فلا بد من تسجيلها
والإشادة بها ، ووضعها موضعها الحق في وزن الأمور .

هل كل يوم يزهر النبات ؟ أليست لحظات معدودة من حياته هي التي تتفتح
فيها الزهور ؟ ولكن من يقول إن ندرة هذه اللحظات تبرر إغفال ذلك الشذى
العذب والمنظر البهيج ؟ وكما تخسر البشرية حين تغفل من حسابها هذه اللحظات ،
ولا تستمتع بذلك الجمال المتاح ؟ وكما تكسب وهي تترقب الزهور المتفتحة ،
وتتطلع إليها في لهفة ، وتتسابق إلى الاستمتاع بها بضع لحظات ؟

ثم أليست الثمرة الجنية ذاتها نتيجة لهذه الزهرة التي لا تلبث ، ولا يتنوع
شذاها غير لحظات ؟

كذلك « زهرات ، المشاعر و « ثمرات ، النفوس . قليلة نعم . ولكنها في قلبها أحق بالإشادة وأحق بالتسجيل !

* * *

وقد كانت أوربا غبية بلهاء وهى تنهى من حسابها تلك المشاعر الصافية والومضات النفسية الوضيئة بحجة « الواقعية » ، أو قل - إن شئت - إنها كانت تتحدث عن واقعها هى لا عن واقع البشرية !
إن الواقعية لا تكون واقعية حقة وهى تغفل من الحساب جزءاً من الواقع وتنظر إليه كأنه غير موجود .

ومضة البرق لا تستغرق إلا لحظة ، ولكنها تضيء وجه الأرض كما لا تضيئه ألوف المصاييح . وإذا كان علماء الطبيعة يدرسون كيفية الإفادة من هذه الومضة الخاطفة كي لا تضيع فى آفاق الكون ، فكذلك ينبغى لعلماء النفس والاجتماع أن يفيدوا من ومضات النفوس المشرقة كي لا تضيع فى آفاق البشرية .
ولكن أوربا التى تسيطر اليوم على العالم تأبى إلا أن تغفل الواقع الأكبر لتعيش فى حدود الواقع الصغير .

وفى ظل هذه الواقعية المشوهة التى تنسك قدرة الإنسان على الارتفاع فوق الواقع ، نبتت نظريات دارون وماركس وفرويد والبراجماتزم ، ونبتت الفنون « الواقعية » كلها ، تمرغ النفس الإنسانية فى الوحل ، وتقول إن هذا هو الواقع !
دارون كان أول من قرر مادية الإنسان وحيوانيته ، لأن « الواقع » الذى كان يدرسه هو الواقع الجثمانى الحيوانى الذى أوحى إليه أن الإنسان من سلالة الحيوان . وقد أغفل فى غمرة نشوته بهذا الكشف أن الإنسان قد ارتفع فوق الواقع الحيوانى ، وأن جوانب جديدة فى نفسه لا مثيل لها فى عالم الحيوان ، تعطيه إشرافة الروح وصفاء المشاعر . . وقد كان حرياً - لولا واقعيته الضيقة - أن يدرك أن التطبيق الصحيح لنظرية النشوء والارتقاء ذاتها ينتهى إلى هذه النتيجة .

فكل كائن أرقى يحمل صفات ليست لسابقه . هناك كائن له أذنان تسبقه كائنات لا آذان لها . وهناك كائن له عينان تسبقه كائنات لا عيون لها . وهذا كائن له روح ، تسبقه كائنات لا تعرف إشراقة الروح .

وجاء ماركس وصفه إنجلز يتحدثان عن واقعية المادة وواقعية الاقتصاد . إن حقيقة العالم تنحصر في ماديته ، . إن وجود الناس هو الذى يحدد مشاعرهم . وليست مشاعرهم هى التى تحدد وجودهم . . . إن علاقات الإنتاج ووسائله هى التى تحدد الصفة النهائية للجمعة مع ، وهى التى تحدد للناس مشاعرهم وأفكارهم وعقائدهم ، وذلك واقع . . ولكنه واقع صغير !

والواقع الأكبر الذى أغفله ماركس أن النفس الإنسانية لا يمكن أن تنحصر في الطعام والكساء والجنس - وهى المطالب الأساسية للإنسان كما سماها - ولا يمكن أن تنحصر في نطاق المادة . وأن كل ما أنتجته البشرية في تاريخها الطويل ، وكل ما استوعبته من آراء وأفكار وعقائد ، هو تعبير عن حاجة نفسية أصيلة ، وتعبير عن الواقع البشرى الكبير . وأن الاقتصاد قد يكون د أساس ، الحياة البشرية ، ولكن الأساس شيء والبنيان ذاته شيء آخر . فضلا عن وجود قيم بشرية كثيرة ليست اقتصادية في د أساسها ، وإنما هى سيكولوجية أو روحية أو فكرية لا تقل توجيها للناس في حياتهم عن وقائع المادة وحقائق الاقتصاد . أما فرويد وعلم النفس التحليلي كله فيتبع الإنسان من أعلى إلى أسفل . ينزل من الثمرة الجنية والزهرة الأريجة والأغصان الباسقة إلى البذرة الغارقة في الطين . ثم يقول لك : انظر ! أليس هذا هو الواقع ، ؟ أليس ترى معنى البذرة الغارقة في الطين ؟

نعم هذه البذرة حقيقة . ولكن من يقول إنها تشبه الثمرة والزهرة والأغصان ؟ أو يقول إن استمدادها من الطين قد منع أن يفوح منها الأريج العذب وتنعكس منها أبهى الألوان ؟ هل كل ذلك ليس حقيقة ؟ والحقيقة الوحيدة هى البذرة والطين ؟

والفنون الحديثة تنحو هذا المنحى اللاحق ، لكي تكون فنونا واقعية ١
الفنانون والنقاد المحدثون يسخرون من الفنون القديمة التي كانت تبرز الجانب
الابيض من الإنسان كأنما كله فضيلة ١ ويدعون في مقابل ذلك إلى تسجيل
الإنسان بحسب واقعه . يعنى تسجيل الجانب الأسود من طبيعته وكأنما كله
رذيلة ١ أستغفر الله ١ إن الحديث عن الفضيلة والرذيلة من تراث الماضى البائد
الذى يجعل للفنون وللحياة كلها هدفا أخلاقياً . وتلك أفكار رجعية . نحن اليوم
معنيون بدراسة « الواقع » ، وتسجيله صافيا من الخرافات والأوهام ١

وفي ظل هذه العقيدة راح الفنانون الغربيون يمزقون الإنسان مرقا ويمرغونها
في الوحل . نزوات الجسد . نوازع الفطرة . صراع الحيوان . خسة الطبع .
التواء المشاعر . هذه هى الدراسة الحديثة للإنسان كما ينعكس من كثير من
ألوان الفن الحديث .

وما أريد أن أقول إن البشر ملائكة ، ولا إن الفن ينبغى أن يصورهم
ملائكة . ولكن الواقعية الحققة ينبغى أن تشمل الواقع الكبير ، وأن تكون
أكثر إشادة باللحظات الشفافة الرائقة منها باللحظات المعتمة الغليظة ، لأن الواقع
الأكبر يقول إن هدف الحياة ليس مجرد استمرار الحياة على سطح الأرض ، وإنما
هو الوصول بها إلى مرتبة الجمال ، والكمال .

صراع الجسد حقيقة . غلبة النوازع الفطرية على المبادئ والمثل حقيقة .
ضعف الإنسان ورضوخه لذوانه حقيقة . ولكن ارتفاعه فوق الواقع حقيقة
كذلك يلبسها كل إنسان في نفسه حين يحقق كيانه كإنسان . والفن ينبغى
أن يشمل الواقع كله بلا تمييز . . الواقع الأكبر والأصدق في التصوير .

وما نعى حين ندعو إلى « تطهير » الفن من واقعته السخيفة أن تغفل لحظات
الضعف والهبوط ، أو نلغى تصوير المشاعر الحسيسة من الحساب . أو نصور
الإنسان ملاكا بلا خطايا ولا أخطاء . كلا ١ وإنما نعى أن يكون الضوء

مركزا على لحظات الارتفاع فوق الواقع لاعلى اللحظات الهابطة إلى عالم الضرورة .
 قصة « وسوسة الشيطان » لعبد الحميد جودة السحار مثال لما نقول . إنها قصة
 شاب متدين يقع تحت إغراء الفتنة . وتتأذى روحانيته الصافية وتخرج ، ولسكتها
 روبدا روبدا تقع تحت سيطرة الدفعات الحسية الغليظة تصرعها وتكتم أنفاسها .
 ويظل بصور لنا مشاعر هذا الفتى بين الشد والجذب ، حتى يقع في الخطيئة
 ويرتكب الفاحشة . . . هل رضيتُم يا أنصار الواقعية ؟ إنه يصور الفاحشة !
 إنه يصور الواقع البشرى كما يحدث على سطح الأرض ! ولكنه لا يتركك والضوء
 مسلط على منظر الجريمة ! وهنا الفارق بين الواقع الصغير والواقع الكبير .
 إنه يرسم لك لحظة الإفاقة . إنه ينهى القصة بمنظر التوبة . منظر الفتى وهو يتلصص
 في ظلمة نفسه أضواء المغفرة . ثم يفتح الباب ليدخل منه النور : كل ابن آدم
 خطاء . وخير الخطائين التوابون . ثم يتركك والنور مسلط هناك !

* * *

والواقعية الأوربية تقول لك : دع عنك أحلام الخيال والمثل العليا . ولنكن
 واقعيين . أين التضحية التي ترسمها قصص البطولة وترونها الأساطير ؟ أين الشجاعة
 المثالية والوفاء النبيل ؟ أين مغالبة الأهواء والارتفاع على الضرورة ؟ أليست
 هذه كلها أساطير « استغفلتنا » بها الأجيال السابقة في قصص أبطالها وأنبيائها ؟
 فلنكن نحن واقعيين . فلنأخذ الإنسان بحقيقته الواقعة . خليط من النزوات
 الفطرية والنزوات الجائحة . والحياة كلها صراع هذه النزوات وارتطامها بعضها
 ببعض ، يغلب الأقوى ويسقط الضعيف . لاعبرة بصاحب الحق . فالحق هو القوة .
 تعال إلى هؤلاء الأنبياء والقديسين والأبطال والمصلحين . هلم نمزق نفوسهم
 على المشرحة ، وننظر خلالها في « الميكروسكوب » انظر : هاهو ذا العفن الذي كانت
 تخفيه الأساطير . انظر إلى هذه النفس البيضاء السامقة التي يشع منها النور .
 تفحصها جيدا . ألا ترى نقطة « الضعف البشرى » الكامنة فيها ؟ ألا ترى هذا

التصرف المنحرف من تصرفاتها ؟ نبتت نظرك هناك ، وسلط هناك كل ما تملك من أنوار !

وهكذا يعيدون دراسة الشخصيات التاريخية بهذا الهدف وتحت هذا الضوء .
يبرزون ما فيها من نقط الضعف ويحسمون ما فيها من البقع تحت الميكروسكوب ،
ويغفلون - عامدين أو غير عامدين - كل ما فيها من بياض وخير . في سبيل نقطة أو نقط لبست لامعة البياض .

إنها الواقعية . . الخمقاء !

أى كسب للبشرية في تخرج عظامها وتلوينهم وتشويه صورهم بحجة الراقية ؟
إنها - فيما أرى - لوثنة هذا الجيل . عجز عن الرفعة فراح يحطم المثل الرفيعة
من بنى الإنسان ، وينزلهم إلى الوحل الذى غرق فيه هذا الجيل .

إن وجود النظافة حجة على القدرين . ووجود المرتفعين حجة على الهابطين .
فليبط الجميع ولينسخ الجميع ، حتى يتساوى هؤلاء وهؤلاء ، وتبطل التهمة
ويرأ المتهمون !

لست أقصد أن ننفي عن العظماء لحظات الضعف والهبوط ، ولا أن نصور
حياتهم خلوا من دوافع البشر العاديين . ولكن المسألة هى توزيع الأضواء
على اللوحة ! لماذا نكون واقعيين فقط حين نغفل كل جوانب العظمة ونبرز
جوانب السوء ، ولا نكون واقعيين حين نبرز فى الأبطال جانب البطولة ، وهو
الجانب البارز حقا فى حساب الحياة ؟

وماذا تكسب البشرية من إبراز الجوانب الهابطة والنقط الضعيفة ؟
إنها لا تكسب إلا الزيادة الدائمة فى الهبوط . هناك مثل إنجليزى يقول :
« صوب إلى الأغصان لتصيب الجذع » . وهو مثل صادق . إنك تحتاج أن تطلب
الكثير لتصل إلى المعقول . لأن الذى تحصل عليه دائما أقل مما تصبو إليه .
فلو أدركك « التعقل » ، وقلت فى نفسك : ما دمت لا أصل إلا إلى خمسين فى المائة

بما أصبو إليه ، فلاهدف منذ البدء إلى خمسين في المائة . . إذا قلت ذلك قلن تصل إلى الخمسين المنشودة ، لأنك تحصل دائما على أقل مما تصبو إليه !
فهذه الواقعية الحقاء إذن لا نتيجة لها إلا الهبوط الدائم إلى عالم الضرورة ، وتضييق دائرة « الواقع » حتى يصبح واقع الحيوان .

* * *

وقد كان الإسلام على صواب وهو يرسم للبشرية أهدافها لا على أساس « الواقع » وحده ، بل على أساس ما « فوق الواقع » كذلك .
إنه لا يغفل واقع الإنسان وضروراته . لا يغفل نوازع الجسد وضغط المادة .

إنه لا يرسم مثلاً خيالية غير قابلة للتطبيق ، ولا يفترض في الإنسان غير ما في طبيعته . ولكنه يبرز له أجمل خصائله وأرفع مشاعره ، ويحاول أن يأخذ بيده إلى حيث الرفعة والسمو . فإذا هبط في لحظة إلى الواقع الضيق وعالم الضرورة فلا بأس . وباب المحاولة دائماً مفتوح . وباب التوبة من اللحظة الهائطة لا يغلق أبداً في وجه من يعاود الصعود . . إن الله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم - ومن يغفر الذنوب إلا الله - ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أرسلك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . ونعم أجر العاملين .

والبشرية في ظل هذه النظرة وهذا التوجيه كاسبة أبداً ، عاملة أبداً على الصعود : « صوب إلى الأغصان لتصيب الجذع » . والإسلام يصوب أبداً إلى أعلى ليدرك جبهة الناس في النهاية مستوى معقولاً من الرفعة ، ويدرك الأقلون المراتب العليا ، ولا يهبط إلى الدرك الأسفل إلا الأقلون .

وهو بهذا « واقعي » جداً وعملي جداً . ولكن على النظرة الشاملة للواقعية . للنظرة التي تشمل ما فوق الواقع الأصغر ، لأنها ترى الواقع الكبير .

النفس والجسم

ما العلاقة بين النفس والجسم ؟
لقد شغل هذا السؤال الفلاسفة من قديم الزمان ، ثم عاد يشغل العلماء اليوم
كما كان يشغل الفلاسفة من قبل .

وتتشعب الآراء بين هؤلاء وهؤلاء في اتجاهات شتى .
كان رأى الغالب فى القديم أن النفس هى الجوهر الحق ، أو على الأقل
الجوهر الاسمى . وأن الجسم مجرد مظهر ، أو محل ، تحمل فيه النفس . أو على
أكثر تقدير هو الجوهر الأدنى .

ثم ظل محور الثقل ينتقل رويداً رويداً حتى أوشكت المدرسة التجريبية فى علم
النفس أن تقول - أو لعلمها قالت بالفعل - إن الجسم هو الأصل . هو الحقيقة .
هو منبع كل ألوان النشاط الحيوى من فكر وحس وإدراك وتذكر وانفعال
وتصرف . وإن ما نسميه « النفس » ، ليس إلا انعكاساً للنشاط الجثمانى . وجاء علماء
الغدد ليؤكدوا هذه الحقيقة ، حين قالوا إن الغدد هى التى تتصرف فى كل نشاط
الإنسان ، وهى موطن غرائزه وميوله ونزعاته . فالأمومة ليست « شعوراً » ،
فيلاً أو غير نبيل ، وإنما هى غدة إذا نزعتها من موضعها زال الشعور بالأمومة
من نفس الأم ، وإذا حققتها بخلاصتها عاد ذلك الشعور .

وقد كان معروفاً منذ القدم أن الجنس إحساس « غدى » يزول بإزالة موضعه
فى الجسم ؛ وتلك كانت فكرة الخصيان فى حريم القدماء . ثم جاء العلم الحديث
يضيف إلى ذلك شواهد أخرى ، حتى قال إن التفكير نشاط كهربى فى المخ ، وإن
الخوف والشجاعة إفرازات تنقص أو تزيد من الغدة الأدرينالية فوق الكل .
إلى آخر ذلك اللون من التفكير .

وحقائق العلم التجريبى فى ذلك بارزة وبخيرة .

هل صحيح أن النفس هي مجرد الإطار الخارجى الذى تنعكس فيه كيميائيات الجسم وكهرباؤه . وأنها ليست جوهرأ مستقلا كما كان يتصور القدماء ، فضلا عن أن تكون هي الجوهر الاسمى ؟ وهل كل هذه المشاعر النبيلة التى يشيد بها الاخلاقيون والفلاسفة وتدعو إليها الأديان وتسجلها قصص البطولة . . هل هي كلها مجرد إفرازات كيميائية ، عضوية وغير عضوية ، تفرزها أجهزة الجسم المتعددة ، أو مجرد نشاط كهربى فى نسيج الجسم ؟

إن الخلاف بين النظرتين ليس مسألة هينة . إنه خلاف فى تقويم الحياة كلها . خلاف فى تقويم « الإنسان » . هل نعامله على أنه نفس أم على أنه جسم ؟ هل نعطيه دروسا فى الأخلاق وتدريبات على الفضيلة أم نعطيه حقنا كيميائية ؟ ولاى شىء ندربه ونهذبه ؟ إن كل هذا التدريب والتهديب قائم على الأساس النفسى للإنسان . قائم على أن «نفسه» تقبل التهديب ، و « ترتفع » ، و « تقدر » ، المثل العليا ، و « تعتق » ، المبادئ الرفيعة وتعمل بوحياها ، و « تهفو » إلى الجمال الحسى والمعنوى ، فتقوم بناء على ذلك كله أديان ونظم وعقائد وأفكار . فإذا كان الإنسان غدداً وإفرازات كيميائية ونشاطا كهربيا فما معنى العقائد ؟ وما قيمة المثل ؟ وما دلالة الأفكار ؟ ولماذا نتعب أنفسنا فى ذلك كله ؟ لماذا نعيش أنفسنا « بالنقم » ؟ لماذا لا نترك هذا الحيوان الإنسانى يتصرف كما توحى إليه غده وإفرازاته ، أو كما خلقت « الطبيعة » ؟

* * *

دارون ؟

هل هو المسئول عن هذا الاتجاه ؟

لا شك أن دارون من المسئولين عن وضع الأساس المادى الحيوانى للإنسان . ولكن لعلنا نطلبه إن قلنا إنه مسئول وحده عن كل ما حدث بعده من اتجاهات . فلو لا أن هذا هو الاتجاه الغربى الأصيل ما استطاع دارون وحده أن يجر إليه

كل هذه الأجيال المتعاقبة من المفكرين والمعتنقين للأفكار .
والمسألة لا تحتاج إلى هذا التعب كله !

فمن البديهيات المعروفة أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بلا غذاء . وأن نشاطه الجسدى والفكرى والنفسى كله متوقف على كمية من الغذاء يتناولها بين الحين والحين . ولكن من يقول إن قصيدة الشعر التى أكتبها أو اللوحة التى أرسمها أو الفكرة التى أبتدعها أو النشوة النفسية التى أحس بها هى المعادل الرياضى لهذا الغذاء بحيث أستطيع أن أكتب هذه المعادلة :

س فيتامينات + ص بروتينات + ع نشويات + و ماء

= قصيدة فى وصف الربيع ! !

أو = عقيدة

أو = نظرية هندسية !

ولماذا لا تنشأ القصيدة أو العقيدة أو النظرية الهندسية فى جسم الحيوان الذى يشارك الإنسان فى تناول هذه الفيتامينات والبروتينات والنشويات والماء ؟ بل لندع الحيوان جانبا . فقد تكون كيميائياته ناقصة لماذا لم يبتدع الناس جميعا نظرية كنظرية النسبية التى ابتدعها أينشتين ، أو أدبا كأدب شكسبير ودستوفسكى ، أو جهازا لاسلكيا كإركونى أو قنبلة ذرية كالعلماء الألمان الذين « سرقهم » الحلفاء فى نهاية الحرب وجندوهم لتفجير الذرة ؟

إن هؤلاء جميعا يأكلون نفس الفيتامينات والبروتينات والنشويات والماء .. ولم يثبت العلم التجريبي أن مخ هؤلاء العباقرة يحوى مادة أخرى غير ما فى أمخاخ الآخرين .

وهل لو أخذنا الإفرازات الكيميائية المتمثلة فى جسد الشاعر وقت « إفرازه » قصيدته ثم حقننا بها ذلك الجلف الغليظ الحس ، أو حتى ذلك الفنى المزهق الحس

الذى لا دراية له بنظم الشعر . . . هل تكون نتيجة الحقنة أن يمسك بالقلم ويكتب لنا نفس الأبيات التى كتبها الشاعر ؟

لم يقل ذلك أحد من السادة العلماء .

كل ما قالوه أن حقنة من الإفرازات الداخلية فى جسم مُستعَب ، تشيع النعب المفاجيء فى الجسم النشط حين يحقن بها ، لأنها مجموعة من السموم التى تؤثر فى الخلايا والأنسجة فتحيل نشاطها إلى خمول . وقالوا إن حقنة من جسم كلب على وشك الموت لأنه حرم من النوم عدة أيام ، قتلت كلبا سليما معافى كان يأخذ نصيبه الطبيعى من النوم والغذاء والرياضة .

نعم . كل ذلك مفهوم . لأنه « جسم » يتأثر بإفرازات جسم مماثل . ولكننا لم نجد بعد أن الحقن بالإفرازات الجسمية ينشئ أفسكارا وفنوناً وعقائد تشابه مشيولاتها عند صاحب الإفرازات !

* * *

ثم إن هذه هى نصف الحقيقة . فلماذا يحتفل بها العلماء كل هذا الاحتفال ويهملون النصف الباقى ؟

لقد جعلوا كل همهم دراسة تأثير الجسم فى النفس . فلماذا لا يدرسون كذلك تأثير النفس فى الجسم ؟

إننى أكون متعبا ، متضايقا ، مهموما ، آيسا من الحياة . . بمعنى أن إفرازاتى الداخلية من الغدد والأجهزة الأخرى قد رسمت لنفسى هذا الإحساس ، ووجهتها - بغير إرادتها - هذه الوجهة . . . ثم أرى فلانا من الناس أحبه فتنتطق أسارىرى وآنس إليه وأنسى نظرتى القاتمة إلى الحياة . . بمعنى أن إفرازاتى الداخلية من الغدد والأجهزة الأخرى قد تغيرت مناسيلها وأنواعها ، فرسمت لنفسى هذا الاتجاه الجديد . فإذا حدث ياترى ؟ هل مجرد الانعكاس الضوئى لصورة هذا الشخص على شبكية العين هى التى تحرك هذه الإفرازات ، بحيث لو نقلت

هذه الإفرازات إلى المعمل ، وعكست عليها صورة الصديق تنقلب - كيميائياً -
إلى إفرازات قرحة مستبشرة ؟

أولست هذه «عملية نفسية» ، تؤثر في نشاط الجسم ، وتعديل إفرازاته
وكيميائياته ؟

وأكون متعباً .. بمعنى أن إفرازات التعب قد سممت خلايا جسمي وأنسجته ،
فأعجز عن الاستمرار في العمل ، وأحس بحاجة ملحة إلى الراحة . ثم فجأة يخطر في
بالي خاطر .. إن المصلحة العليا ، إن العقيدة التي أعتنقها ، إن حبي لفلان من الناس ،
إن رغبتى في زيادة الكسب ، إن رغبتى في التفوق على فلان .. تعطينى عزيمة
جديدة ، فأندفع في العمل بروح ماضية ، وأحس أن التعب قد زال ، وأنتى
أستطيع أن أعمل عدداً آخر من الساعات .. فما الذى حدث ؟ من أين جاءت
الإفرازات الجديدة التي عدلت الإفرازات الأولى وعادلت ما فيها من سموم ؟ !
أولست هذه دوافع نفسية تؤثر في نشاط الجسم وتغير إفرازاته وكيميائياته ؟
وطاقة الجسم البشرى محدودة . محدودة بالحساب المادى لقوة أنسجته واحتمال
خلاياه . فكيف حدثت على مدار التاريخ تلك المعجزات من احتمال بعض الأفراد
من ذوى العقائد ألواناً من التعذيب لا يتصورها العقل ، ثم ظلوا أحياء ، وظلوا
محافظين على قواهم العقلية ، وظلوا مستبشرين للحياة واثقين بالله ، وبعض هذا
التعذيب يقتل آخرين ، وبعضه يفسد قواهم العقلية ، وبعضه يورث الهم والحزن
ويشيع اليأس من الحياة ؟

* * *

هناك إذن علاقة متبادلة بين النفس والجسم . فما هى ياترى هذه العلاقة ؟
خطر في بالى هذا الخاطر : أنه بصرف النظر - مؤقتاً - عن طريقة التفاعل الخفية
بين النفس والجسم ، فإن هناك توازياً بين النفس والجسم في العمل والاتجاه .
لحظت هذا التوازى وأنا أكتب « الإنسان بين المادية والإسلام » ، فى أكثر

من اتجاه . لحظته في التفرقة بين الأمومة والآبوة . وفي التفرقة بين الإحساس الجنسي عند الرجل والمرأة . وفي الحديث عن « الرشاقة » الجسمية والرشاقة النفسية . وفي استعذاب الجسم لقدر من الألم لأداء بعض الوظائف الحيوية ، واستعذاب النفس لقدر من الألم في سبيل تكوين المثل والأخلاق . كما لحظته في أن كثيراً من العمليات النفسية تتضح في الذهن إذا شبهناها بعمليات جسمية مماثلة . قلت في الأمومة والآبوة إن إحساس الأم بطفلها هو أنه جزء منها . من صميم كيائها ، تحس وجودها في وجوده ، ويتحقق كيائها بتحقيقه . وقلت إن هذا الإحساس النفسى مواز للحقيقة الجسمية وهى نشوء الطفل في داخل جسم الأم واتحاد كيانهما الجسمى فترة من الزمن يتغذيان من غذاء واحد أو من « كيان » واحد . وإن إحساس الأب بطفله مختلف . فهو يحس أنه جزء منه ، ولكنه جزء موجود خارج كيانه ، والعلاقة بينهما هى مودة الألفة والصدقة أكثر مما هى وحدانية الكيان . وإن هذا الإحساس مواز للحقيقة الجسمية وهى أن « المادة » التى يشارك بها الأب في تكوين الطفل ، مادة تندفع إلى الخارج ولا تبقى داخل الجسم كما يحدث في حالة الأم .

لست أقصد أن الاتجاه النفسى ينشأ من الحالة الجسمية ولكنى فقط ألاحظ التوازي في الاتجاه .

وقلت في مسألة الإحساس الجنسي عند الرجل والمرأة ، إن اتجاه الجسم « يشير » إلى اتجاهات النفس . فبينما نجد الإحساس الجنسي عند المرأة عميقاً جداً وشاملاً جداً ، لا يقف عند حدود العمل الجنسي بل يتعداه إلى الحمل والولادة والإرضاع والتنشئة ، ثم يتعداه إلى كيان المرأة كله من تديرها لبيتها وتزينها ومختلف رغباتها وأفكارها . . . نجد هذا الإحساس عند الرجل أشبه بالنزوة الطارئة ، بالشحنة الكهربائية التى تطلب التفريغ . وبمجرد التفريغ ينصرف الرجل إلى مجالات أخرى من النشاط ليست جنسية في منشئها ، حتى تعود

الشحنة تطلب التفرغ من جديد . وإن الإحساس الجثماني بالجنس مواز لهذه الاتجاهات عند الرجل والمرأة . فبينما يتركز إحساس الرجل في منطقة بعينها ، ينتشر إحساس المرأة في جسمها كله . وإن كان يتركز في مناطق معينة بعضها داخل الجسم وبعضها على السطح .

وقلت إن الجسم في سبيل الحصول على الرشاقة يحتمل كثيراً من الجهد ويحتاج إلى كثير من التدريبات لا يصل إلى الرشاقة بدونها ، ولكنه بعد ذلك ينعم بهذه الرشاقة ويحس بالخفة والانطلاق . وكذلك النفس تحتاج إلى تدريبات وجهد ، وامتناع عن بعض الرغبات لتصل إلى الرشاقة النفسية ، ولكنها بعد ذلك تنعم بهذه الرشاقة وتحس بالخفة والانطلاق .

وقلت إن بعض الوظائف الحيوية كنمو الأسنان مثلاً يصحبه شيء من الألم . فلو لم يكن في الجسم استعداد لتحمل قدر من الألم بل استعذابه أحياناً لما أمكن أن تتم هذه الوظائف الحيوية في يسر . وكذلك تكوين المثل والأخلاق يحتاج إلى تحمل قدر من الألم ، وفي النفس استعداد له يوازي الاستعداد الجسمي لتحمل الألم ، وبذلك يصبح تكوين هذه المثل والأخلاق يسيراً في النفس حين توجه إليها . وثمت كثير من التشبيهات يصلح التمثيل فيها بما يحدث في الجسم لشرح ما يحدث في النفس .

فالعصلات الجسمية تتضخم وتقوى بالتدريب المستمر والاستخدام الطويل ، وتذبل وتضوى بالإهمال حتى لتكاد تعجز عن وظيفتها . والخصائص النفسية كذلك لا بد من استخدامها وتدريبها وتقوى . وإذا أهملتها ذوت وضعفت حتى كأنها غير موجودة . ومن هنا يعجز العبد عن التصرف الحر ، لا لأن كيانه النفسي مختلف في أصله عن كيان الحر ، ولكن لأنه لا يستخدم أجهزة التصرف . وهذا ما يلجأ إليه الاستعمار في استعباد الشعوب نفسياً إذ يسلبون الشعوب حرية التصرف فتستعبد على مر الأيام .

والكيمياء الجاهزة يحتاج إليها الجسم أحيانا في صورة فيتامينات . ولكنها لا تؤدي مهمة الغذاء الطبيعي كاملة ، إذ أن الجسم يستفيد أكثر من الغذاء الذي يهضمه ويمثله ويختار منه ما يريده ويطرد فضلاته : أى يتفاعل معه تفاعلا إيجابيا في كل مرحلة من المراحل . والنفس كذلك . قد تحتاج أحيانا إلى أفكار جاهزة ومشاعر جاهزة أو لا يمكنها لا تستطيع أن تعيش عليها ؛ ولا بد أن تدوى وتضعف إن لم تقم بالتفاعل الإيجابي مع الأفكار . لهذا يقف النمو النفسى للشعوب الجماعية ، ذوات الحكومات الدكتاتورية التى تلقنها أفكارا جاهزة ومشاعر جاهزة تنتجها معامل الدولة كما يحدث فى الشيوعية . وغير ذلك كثير .

كلها أمثلة تشير إلى وجود تواز بين كثير من التصرفات النفسية والتصرفات الجسمية فى الإنسان .

* * *

لذلك خطر لى أنه بصرف النظر - مؤقتا - عن طريقة التفاعل الخفية بين النفس والجسم ، فإن أقرب صورة للعلاقة بينهما هى السلم الخشبي ذو القائمتين تربط بينهما قوائم عرضية .

هذا السلم يرتكز على قائمتين شبه متوازيتين ، تلتقيان - نظريا - لو مددنا كل قائمة إلى نهايتها . ولكنهما فى وضعهما الموجود بالفعل تلتقيان عن طريق العوارض الصغيرة التى تربط كلا منهما بالآخرى . والراكب على السلم يرتكز على كل من القائمتين فى ذات الوقت عن طريق هذه العوارض . وقد يكون ثقله أحيانا أقرب إلى هذه القائمة أو تلك ، ولكنه فى كل حالاته يرتكز عليهما معا فى ذات الوقت . ولا تمر عليه لحظة واحدة يكون مرتكزا فيها على إحدى القائمتين دون الأخرى .

تلك أقرب صور الخيال إلى الواقع .

فكل عمل يقوم به الإنسان يؤديه بنفسه وجسمه في آن واحد . ومهما يكن من بروز أحد الجانبين في لحظة من اللحظات ، فالانصال بينهما قائم في كل لحظة ، والعمل مركّز على كليهما في ذات الوقت .

أدخل الأمور في الناحية النفسية : النشوة التي أحسها بين جنبي وأنا جالس لا أنحرك ، يصحبها تغير في إفرازات الجسم ينتج عنه نشاط جثماني غير مقصود . حتى إيهام الإنسان أحيانا بالنط والقفز ليعبر عن « شعور » حتى متوفز .

وأدخل الأمور في الناحية الجسمية : تناول الطعام ، يصحبه سرور مذاق الطعام وارتياح نفسى له ينتج عنه الرضا والانبساط .

وكثير من الحالات الأخرى تقع بين بين ، ويبدو فيها الازدواج بشكل ملحوظ .

* * *

وندع للعلم أن يبحث بكل وسائله عن طريقة التفاعل الخفية بين النفس والجسم . . .

ولكننا نطمئن إلى هذه الحقيقة التي يرسمها السلم الخشبي ذو القائمتين . . .

ونبحث في النظم والعقائد التي تعامل « الإنسان » ، فنجد الإسلام من بينها أكثر نظم إدراكا لهذه الحقيقة ، وتمشيا معها في واقع الحياة .

إنه يأخذ الإنسان ككل : عقله وجسمه ونفسه وروحه . نشاطه الجسمي ونشاطه النفسي والروحي كلاهما داخل في الحساب . مطالب جسده ومطالب روحه جزآن من النظام متكاملان لا متعارضان . .

وبينما ترتكز بعض العقائد على ركيزة واحدة ، ركيزة الروح ، وتجنح بعض النظم إلى العناية الفائقة بمطالب الجسد وإهمال مطالب الروح ، وتحاول كلتاها أن تقف على إحدى القائمتين دون الأخرى فتزلزل وتقع ، أو تعجز عن الوقوف

الطويل ، نجد الإسلام يعمل على أساس وحدة الجسم والنفس ، حتى ليكمل العبادة عملاً والعمل عبادة ولا يفصل بين الماديات والروحيات ، ولا بين الأرض والسماء . كله وحدة مترابطة الأجزاء .

العبادة الإسلامية ليست سباحات روحية خالصة ولا تهويماً صامتاً في الملكوت . بل هي « حركات ، جسمية في ذات الوقت الذي تتحرك فيه النفس من الداخل بشتى الانفعالات والوجدانات . والصلاة الإسلامية أبرز الأمثلة لما نقول (١) . والعمل في ظل العقيدة الإسلامية يعتبر عبادة ما دام الإنسان يتوجه به إلى الله ولا يسعى به إلى ضرر مخلوق من خلق الله .

والقرآن تشريع وتهذيب في وقت واحد . تنظيم لحياة الأرض وربطها بحياة السماء .

والدنيا والآخرة ليستا منفصلتين .

وضرورات الجسد وأشواق الروح غير متنافرتين .

حتى نشوة الجسد الخالصة في العمل الجنسي يتوجه بها الإنسان إلى الله إذ يقرأ عليها اسمه الكريم فإذا هي عبادة وإذا له عليها أجر !

والتشريع القائم على وجدان التقوى ومشاعر الخوف من الله تشريع يقوم في الوقت ذاته على القوة المادية اللازمة للتنفيذ . وهو ينظم مسائل الغذاء والكساء والجنس والتعاش السلى بين البشر ، في ذات الوقت الذي ينظم ارتباطاتهم الوجدانية بالمحبة في الله .

وهو لذلك أشمل النظم وأعماقها وأقواها . لأنه يتمشى مع الفطرة البشرية . ويدرك حقيقة الترابط بين الجسم والنفس في كيان الإنسان .

ولكننا في حاجة إلى تفهمه وتدبره لتركز على كلنا الركينتين . ولو أدركنا حقيقة الكيان الإنساني لاهتدينا لتونا إلى حقيقة الإسلام !

(١) اقرأ بعد ذلك فصل « العبادات الإسلامية » .

الطاقة البشرية المحايده بين الخير والشر

قرأت لفرويد كلمة أعجبتني . فهو لا يزال يبدى . ويعيد في كل كتبه أن الطاقة البشرية جنسية في طبيعتها . ويصل في ذلك إلى حد الافتعال والسخف . ولكنه مرة واحدة في أحد كتبه قال إن النفس البشرية تشتمل بجانب ذلك على طاقة « محايدة » لا لون لها ، ولكن المشاعر القوية في النفس تستخدم هذه الطاقة المحايدة وتسخرها لأغراضها .

هنا كان فرويد معقولا على غير عادته !

وسرحت بفكري أتدبر هذا القول من وجهة نظري الخاصة .

وتركت فرويد وفلسفته الجنسية . ورحت أبحث المسألة من ناحية الخير والشر . الخير والشر بأى مقياس من مقاييس السماء أو مقاييس الأرض . . . وخطرت لى خواطر عجيبة . . إن الطاقة النفسية كلها . . فيما عدا خطوطا قليلة جدا . . محايدة بين الخير والشر . لا لون لها فى ذاتها . ولكن التوجيه الذى يقع لها هو الذى يحولها إلى طاقة خيرة أو طاقة شريرة .

هذا تيار من الماء تستطيع أن تحول له لرى الأرض واستنبات النبات أو تستطيع أن تفرق به الأرض وتقتل الحياة . هو فى الحالة الأولى خير . وفى الحالة الثانية شر . ولكنه هو الماء ذاته فى الحالتين . لم تتغير طبيعته . ولكن تغيرت وظيفته .

وهذا تيار من الكهرباء تستطيع أن تضىء به المصابيح هدى ونورا للناس . وتستطيع أن تصعق به الأحياء . هو فى إحدى حالتيه خير وفى الثانية شر . ولكنه هو تيار الكهرباء لم يطرأ عليه تغيير .

وكذلك الطاقة النفسية . طاقة محايدة . تصلح أن تستخدمها للخير كما تصلح هي ذاتها أن تستخدمها في الشر . لا تتغير طبيعتها في الحالتين وإنما يتغير التوجيه . خذ طاقة الجنس . أشر هي في ذاتها أم خير ؟

لا شيء من ذلك . إنها طاقة ميكانيكية جسمية توازيها طاقة نفسية تتحرك معها في نفس الاتجاه . وليس الخير أو الشر كامنا في طبيعتها . ولكنك توجهها أنى شئت . توجهها لإحداث النسل ، في الطريق التي تتمشى مع أهداف الحياة وتحققها في نظافة فإذا هي خير . خير لا يستحي المسلم أن يقرأ عليه اسم الله الكريم . وتوجهها لهدف منقطع عن هدف الحياة ، ناشز منحرف ، فإذا هي شر . شر تنبغى محاربه وإعلان الحرب عليه .

وخذ طاقة القتال . إن الإنسان السوى مشتمل على هذه الطاقة كجزء من بنيته . ولكن شر هي أم خير ؟

لا هذا ولا ذاك . إنها مجرد قدرة على الصراع . قدرة ميكانيكية جسمية توازيها قدرة نفسية في ذات الاتجاه . وهي ليست في ذاتها خيرا أو شرا . ولكنك تستخدمها لإقامة الحق والعدل ودفع الظلم والعدوان فهي خير . وتستخدمها في الظلم والعدوان فهي شر واضح مبين . وشبيه بالطاقة النفسية الطاقة الفكرية والروحية .

فالقدرة على التفكير طاقة محايدة . ولكنك تستخدمها للنفع العام فهي خيرة ، وتستخدمها للإيذاء وإيقاع الضرر فهي شريرة . ولكنها هي في ذاتها من حيث هي نشاط بشري لم تتغير في الحالتين .

وكذلك الطاقة الروحية . وقد غلب على الناس أن يتصوروا الطاقة الروحية مقرونة بالخير والنقاء والسمو . ولكنها - ككل طاقة بشرية - محايدة في ذاتها وصالحة لسلا التوجيهين . إنها - كالذكاء ، وككل الطاقات الأخرى - موهبة توهب للناس على درجات متفاوتة . فهي عند بعضهم ضعيفة بحيث لا تكاد تظهر ،

وعند آخرين قوية واضحة الآثار . والشخص ذو الموهبة الروحية الخارقة يستطيع أن يوجهها إلى الخير أو الشر سواء . وقصة راسبوتين ساحر روسيا معروفة في التاريخ . إنها طاقة روحية جبارة وجهت وجهة الشر والأذى والإيقاع بالناس . وقصص الأنبياء والقديسين معروفة كذلك في التاريخ . طاقة روحية خارقة وجهت وجهة الخير . وليس الناس كلهم أنبياء وقديسين ، وليسوا كلهم راسبوتين . ولكن الواقع المشهود يعرف درجات مختلفة من الطاقة الروحية تستخدم للخير وللشر سواء .

* * *

هناك إذن نتيجة نستطيع أن نطمئن إليها : هي أن الطاقة البشرية - في معظمها - طاقة محايدة تصلح للخير والشر بحسب ما تتلقاه من توجيه . ونقول في معظمها احتياطاً فقط ، وإن كنت كلما أمعنت في التفكير لا أجد شيئاً له في ذاته لون ثابت متميز بحيث لا يقبل التلوين (١) .

ومن هنا تنشأ القيمة الخطيرة للتربية والتوجيه . إنها قيمة بالغة الخطورة . لأنه يتوقف عليها اللون الذي تأخذه هذه الطاقة المحايدة الصالحة لمختلف الألوان . في الحيوان تأخذ الطاقة لونا واحدا لا تكاد تغيره . لونا يهدف إلى التحقيق المباشر لمطالب الحيوان . ومن هنا لا يوصف تصرفه بأنه خير أو شرير . لأن هذه التفرقة لا توجد إلا حيث توجد الألوان المتميزة ، وتوجد القدرة على اتخاذ مختلف الألوان .

والإنسان - وحده فيما نعرف من المخلوقات - هو المخلوق المتعدد الألوان ، القابل للتلوين .

« ونفس وما سواها ، فآلهمها فجورها وتقواها .. »

نعم . « النفس » البشرية وحدها هي التي تعرف الفجور والتقوى . تعرف

(١) انظر كتاب « منهج التربية الإسلامية » وكتاب « دراسات في النفس الإنسانية » .

النقيضين وتقدر على النقيضين . ومن هنا توصف أعمال الإنسان بأنها خير أو شر ، وبعاقب أو يثاب .

د قد أفلح من زكاه ، وقد غاب من دساها . . (١)

وقد وجد في القرن العشرين ناس يريدون أن يردوا الإنسان حيوانا لا توصف أعماله بالخير أو الشر . ناس يغفلون قدرة الإنسان على التلون ، ويعملون من طبيعته المزدوجة طبيعة مفردة الاتجاه .

ناس من أولئك يوجدون في أمريكا يقولون لك : ما دخل المسألة الجنسية بالأخلاق ؟ إنها عملية د بيولوجية ، ليست لها صفة خلقية . . تماما كالحیوان !

(١) العقوبة قائمة على أساس قدرة الإنسان على التمييز بين الخير والشر . والمسئولية السكاملة من أى جريمة ترتكب ، هى فى الواقع مسئولية موزعة بين الفاعل الأصل للجرم ، وأبويه اللذين نشأ ، وأهله وأصدقائه (البيئة بصفة عامة) والحاكم الذى يشرف على سياسة الدولة . وهم يتقاسمونها بينهم بنسب مختلفة . ولكن نصيب فاعل الجرم لا يكون صفرا إلا فى حالة الاضطراب السكامل : « بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره » . أو إذا كان مصابا بعمى وظلمة فى القدرة على التفكير ، وعندئذ تسقط عنه المسئولية . أما الاتجاهات الحديثة التى تخلى الجرم من المسئولية لإخلاء كاملا باعتباره ضحية الأوضاع الفاسدة فى المجتمع ، أو ضحية التوجيه الفاسد ، فهى تسقط من حسابها قدرة الفرد الفطرية على التمييز ، وقدرته الفطرية على ضبط تصرفاته ، وتعتبره مخلوقا سلبيا خالصا . وهذا ليس حقيقة علمية . فالطفل الصغير يتمكن - ولولم يمرنه أحد - من ضبط إفرائاته بعد فترة من مولده ، مما يدل على أن مقدرة الضبط فطرية ، وكذلك القدرة على ضبط الانفعالات والتصرفات . وليس ينكر أحد المسئولية العظيمة التى تقع على المجتمع والبيئة ، والقيمة الخطيرة للتربية والتوجيه . ولكن ذلك كما قلنا ليس معناه إلغاء المسئولية عن فاعل الجريمة فى كل حالة . ولعل من المناسب هنا أن نذكر الحادثة التى سرق فيها بعض الفلمان ناقة على عهد عمر ، فلم يقم عليهم الحد . بل وقع العقوبة على صاحبهم وقال له : « واقتة لولا أنى أعلم أنكم تستملونهم فتجميعونهم حتى إن أحدهم لو سرق ما حرم الله عليه . لعل له . . لقطعت أيديهم . فاذا لم أفل ذلك فلا غرمك غرامة توجعك » . فهنا اضطراب واضح أسقط المسئولية عن الفاعل . ولكن علم النفس التحليلي الحديث يبالغ مبالغة معينة فى تصوير الدوافع الفهرية للجريمة .

وناس شديهيون بهم من أنصار التفسير المادى والتفسير الاقتصادى للتاريخ يقولون لك : إن الاستعمار ليس مسألة خلقية ، ولا تدخل فيه الاعتبار الإنسانية . لا يقال إنه ظالم أو غير ظالم . إنه حركة طبيعية كأكل القطة للفأر . عملية لا بد أن تحدث ، ولا يقال عنها إنها خير أو شر ! وهؤلاء هم خلاصة المدنية الحديثة ! خلاصتها أن ترد الإنسان حيوانا ذالون واحد وطبيعة واحدة . بينما المعجزة الكبرى فى خلق الإنسان هى طبيعته المزدوجة اللون والاتجاه .

* * *

والترية كما قلنا هى أخطر مهام الإنسانية . هى التى يتوقف عليها أن نصبح آدميين أو نرقد حيوانات . هى التى تجعلنا نركى أنفسنا أو نندسها .. فنفلح أو نخيب . وقد أدرك الإنسان منذ فجر حياته قيمة الترية فوضع لها قواعد وأهدافا تتناسب مع درجة وعيه لنفسه وإدراكه لحقيقة رسالته فى الأرض . وما تزال الترية موضع العناية من الشعوب كلها وإن اختلفت قواعدها وأهدافها بين الخطأ والصواب . والترية الغربية الحديثة - على براعتها الفائقة ودقتها المتناهية - هى أخطر ما عرفته البشرية فى تاريخها . وأقربها إلى إفساد الإنسانية ، ما لم يصح الغرب إلى أخطائه ويرتد إلى الصواب .

ذلك أنها - فيما تزعم - تعتمد على أبحاث العلم التجريبى .

والعلم التجريبى مظلوم فى هذا الزعم . فهو - ككل الطاقات البشرية - عنصر محايد . يصلح أن يوجه للخير كما يوجه للشر !

وقد فتن العلماء أن يبحثوا الإنسان « على طبيعته » . أى بغير توجيه معين . والإنسان على طبيعته أقرب إلى الهبوط والانحراف إلى الشر . ولا يتعارض ذلك مع ما قلناه من قبل من أن الطاقة البشرية محايدة فى ذاتها ، ليس لها لون متميز . .

ونرجع إلى قوله فرويد : إن النفس البشرية تشتمل على طاقة محايدة .
ولكن المشاعر الأقوى في النفس تستخدمها وتسخرها لأغراضها .
فالطفل يولد وله طاقات محايدة لا لون لها ولا اتجاه . . (١)
ثم يحس بالجوع - مثلاً - فيوجه طاقاته للبحث عن الثدي ، ثم إلى عملية الرضاعة .
ويحس بالحاجة إلى إخراج فضلاته فيوجه بعض طاقاته لإخراجها .
ويحس بالخوف فيوجه بعض طاقاته للاحتباء في صدر أمه .
ويحس بالحاجة إلى « المجتمع » فيوجه بعض طاقاته للاتصال بالآخرين .
ورويدا رويدا تتلون الطاقة حسبما تسخرها حاجات الطفل .
أى أنه في هذه الفترة محكوم بضروراته ، وطاقاته خاضعة لهذه الضرورات .
فهو في ذلك أشبه بالحيوان .

ولكن كيانه ينمو بعد ذلك ولا يقف عند هذا الحد الحيوانى . ففي بنيته
مقدرات أخرى ، وأشواق أعلى من الضرورات . هذه الأشواق تتأخر
في الظهور ، ولكنها طور طبيعى من أطوار الإنسان . كعملية الإزهار في
النبات . تأتى متأخرة ولكنها طبيعية .

وهذه الأشواق العليا تستطيع أن تستخدم الطاقة المحايدة وتسخرها لأغراضها
كما تصنع الضرورات . ولكنها في حاجة إلى معاونته من الخارج ، معاونته فعالة
لإرضائها وتوجيهها الوجهة الصحيحة . وإلا انحرفت أو تأخرت في الظهور .
وكونها في حاجة إلى المعاونة الخارجية ليس معناه أنها مفتعلة ، أو مفروضة
من الخارج ، أو غير طبيعية كما يزعم فرويد ومن ذهب مذهبه . كلا ! فالطفل

(١) هذا لا ينفي أثر الوراثة . فبما أن بعض الأطفال يرثون ضعف البنية أو قوتها ،
وضعف الذكاء أو قوته ، فلا شك أنهم يرثون كذلك ضعف القدرة على ضبط النفس أو قوتها .
ولسكن هذا لا ينفى أثر التربية ، بل إنه يضاعف مهمتها في مثل هذه الحالة لتقويم الانحراف
أو تخفيفه . والتجربة العملية تثبت أن التوجيه الصحيح للطفل المنحرف أو ذى الاستعداد الوراثى
للالانحراف يفيد أكبر الفائدة في تقويمه .

يحتاج - لكي يمشى - إلى معاونة خارجية تسنده حتى يستطيع أن ينظم خطواته ويضبطها . وإذا لم تعاونه فربما نشأ كسيحاً أو تأخر مشيه عن مواعده . والمشى مع ذلك قدرة طبيعية يولد بها الطفل ، وليست تفرض عليه من خارج كيانه .

وكذلك الأشواق العليا التي تخرج بالإنسان من صالحه الخاص إلى صالح غيره ، وتجنح به إلى المعاشة السلبية القائمة على الحب المتبادل والتعاون بين الجميع . هي جزء من الفطرة البشرية كالأشواق الذاتية الانانية سواء بسواء . ولكنها - كتعليم المشى - تحتاج إلى معاونة خارجية .

وتلك هي مهمة التربية .

فإذا أخذنا الإنسان د على طبيعته ، بمعنى دراسته دون توجيه ولا تهذيب ، فإننا بذلك نغفل من حسابنا الجانب الآخر من طبيعته ، الجانب الموجود في حالة كامنة ، والذي يحتاج إلى التوجيه لكي يظهر للعيان (١) .

وإذا وضعنا قواعد التربية على هذا الأساس - الذي نزعم خطأ أنه الأساس الطبيعي - فعنى ذلك أننا نترك الإنسان محكوماً بضروراته إلى الأبد ، ونترك الطاقة المحايدة تتلون بهذا اللون فتصبح بعد حين طاقة شريرة . شريرة لأن ضرورات الإنسان في ذاتها شريرة ، ولكن لأن غياب العنصر الآخر الذي يعادلها يجعلها تتطرف في اتجاه واحد . وذلك ما نسميه بالشر لأنه - كما ثبت من التجربة - يعود بالضرر على الفرد وعلى الجماعة .

(١) لا بأس أن تخصص بعض الدراسات النفسية في دراسة الطفل كما هو بدون توجيه ، على أن يكون مفهوماً منذ البدء أنها دراسة ناقصة ، لا تصلح للتطبيق العملي ، وإنما كل مهمتها أن تعرف على الطاقة الجبوية في صورتها « البرية » للاستفادة من ذلك عند وضع القواعد الصالحة للتهذيب . أما أن يتصور علم النفس أن الطفل في هذه الصورة هو الطفل الطبيعي ، أو أن هذه الصورة هي التي ينبغي أن يكون عليها الطفل ، فهذا هو الخطأ والخطر الذي تنذر به بعض الدراسات النفسية المعاصرة .

فطاقة التملك - وهى طاقة فى ذاتها محايدة - لو تركت للضرورات وحدها تحكمها ، تتخذ بعد حين لون السرقة والغصب والاختيال والنصب . . والغرب لا يتركها لحكم الضرورات ، بل يهذبها تهذيبا فائقا يصل إلى حد معجب . وذلك باستخدام الأشواق العليا التى توازن هذه الطاقة وتمنع انحرافها .

وطاقة القتال - وهى كذلك طاقة محايدة - لو تركت للضرورات وحدها تحكمها ، تتخذ بعد حين لون العدوان . والغرب لا يتركها كذلك ، بل يبالغ فى تهذيبها بإطلاق الأشواق العليا التى توازنها وتقف دون ضراوتها .

ولكنها المشكلة الجنسية هى التى ينحرف فيها الغرب أعظم انحراف . ولست أدرى لم يخصصها وحدها بأنها مسألة بيولوجية لا تخضع لحكم الأخلاق . بينما الطعام أيضا مسألة بيولوجية ، وكان يمكن - على نفس الأساس - أن تباح فيه الفوضى فيا كل كل الناس من حيث شاء لهم مزاجهم بلا ضوابط ولا حدود ! كما أن عيب الغرب الأكبر أنه لا يجعل تهذيبه على أساس إنسانى ولكن على أساس قومى . ومن هنا يعيش القوم داخل وطنهم على خير ما يكون ، فإذا برز قوم لقوم تصارعوا كالوحوش الضارية بصرف النظر عن الظالم والمظلوم .

* * *

والإسلام قد أدرك الطبيعة البشرية المحايدة الطاقة المزدوجة الاتجاه :
د و نفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها ،
وقد غاب من دساها .

وأوجب تزكيتها . أى تربيته وتهذيبها . وجعل ذلك أمانة فى عنق الوالدين وأولياء الأمور .

وجعل هذه التزكية على أساس إنسانى بحيث لا يعرف فوارق الوطن ولا اللغة ولا الجنس ولا حتى العقيدة .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة . . . » وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . . . »

وجعل أساس هذه النزكية هو التهذيب لا الكبت .

فهو لا يحب أن يمحى طاقة حيوية أو يعطلها عن عملها . لأنه يعرف أن كل طاقة حيوية يشتمل عليها الإنسان هي جزء من كيانه ضرورى له فى حياته . وتعطيله أو كبتة معناه إهدار هذه الطاقة وتضييع الفائدة المرجوة منها .

ولكنه كذلك لا يترك الإنسان « على طبيعته » بالمعنى الخاطئ . من هذا التعبير ، الذى يزعم أن ضرورات الجسد هي الطبيعة الوحيدة للإنسان . بل يتركه « على طبيعته » . فيعطى ضرورات جسده نصيبها المعقول : « إن أبدنك عليك حقا ، ويعطى أشواقه العليا نصيبها المعقول : « أحب لأخيك ما تحب لنفسك ، ويوازن بين هذه وتلك » لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » .

والإنسان بعد من أعظم معجزات الخلق : لا هو بالملك ولا بالشيطان . ولكنه مشتمل على الخير والشر ، وقادر فى لحظات الارتفاع أن يصبح كاللائكة ، وقادر فى لحظات الهبوط أن يصبح كالشياطين .

العبادات الإسلامية

هناك مزية بارزة في العبادات الإسلامية : أنها كلها تبرز بين الدنيا والآخرة ،
وتصل بين الأرض والسماء .

ليس من بينها « عبادة خالصة » ، منقطعة الصلة عن عالم الأرض . وإنما كلها
تشتمل على جانب « تعبدى » ، موجه للسماء . مقصود به الآخرة ؛ وتشتمل في الوقت
ذاته على جانب عملى ، موجه لواقع الأرض ، مقصود به الحياة الدنيا ، وتنظيمها
 وإقامتها على أسس مكيّنة من النظافة والعدالة والصلاح والاستقرار .

والمزية العظمى - كما ذكرنا - هي مزج هذه وتلك ، بحيث يصبح الشيء الواحد
عملاً وعبادة في ذات الوقت ، وتصبح الدنيا والآخرة متصلتين متحدتين في الفكر
والضمير ، ويصبح السكان البشرى يعيشون بجسمهم على الأرض وروحهم متطلعة
إلى السماء .

* * *

كل العبادات الإسلامية ينطبق عليها هذا الوصف حتى التي تبدو لأول وهلة أنها
مجرد صلة بين العبد والرب ، أو عمل يعمل في الدنيا لغير شيء إلا رجاء الثواب في
الآخرة . . . حتى هذه لا تغفل الحياة الدنيا ، ولا تنفصل نتائجها العملية عن
عالم الناس .

خذ العبادات واحدة واحدة . . .

شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

لعل الشق الأول من الشهادة يبدو من أبرز الأمثلة على « العبادات الخالصة »
التي تنشأ صلة مجردة بين العبد والرب . فهى الإقرار لله بالالوهية المطلقة ،
والإقرار بالعبودية الكاملة لله . ولا شيء غير ذلك !

كلا : إنها ليست ذلك لحسب .

إن الإفراز بالعبودية لله وحده ، والإفراز بالآلوهية لله وحده ، معناه نفى
الآلوهية عن كل ما عدا الله . ونفى العبودية لأحد غير الله . معناه عدم الخضوع
لأحد - كائنا من كان - إلا الله . معناه أن السلطة الحقيقية التي ينبغى أن تعبد
وتطاع هى سلطة الله ، ولا سلطة لأحد إطلاقا غير الله .

معناه أن الله وحده هو القوة المدبرة لهذا الكون كله . وأنه لا تدبير لبشر
فى صغيرة ولا كبيرة إلا أن يشاء الله . ومن ثم تتجه القلوب كلها إلى الله ،
ولا تطلب العون من أحد سواه .

معناه أن قوى الأرض كلها ينبغى أن تتجه فى أعمالها وأقوالها إلى الله ،
تهتدى بهديه وتسترشد بنوره .

ومن ثم لا تصبح مجرد أفاظ . . ولا نكون مجرد صلة بين العبد والرب .
وإنما هى واقع أرضى عظيم الخطر كبير الشأن . واقع أرضى تقوم عليه «السياسة»
الأرضية كلها بأوسع مدلولها : سياسة الحكم والمال والقضاء والإدارة . . وكل
تنظيمات الأرض ، والعلاقات التى تقوم بين طوائف المجتمع المختلفة ، المتضاربة
المصالح والحقوق والواجبات .

أما الشق الآخر من الشهادة فواضح الدلالة على المصدر الذى نستقى منه ،
ونفسر به كلام الله . فالرسول - صلى الله عليه وسلم - هو الترجمة العملية الكاملة
الواضحة للفكرة الإسلامية كما وضعها الله . ومن ثم فهو القدوة التى يقتدى بها ،
والمثل الذى ينظر إليه .

إن المسلمين لا ينبغى لهم أن يولوا وجوههم قبل المشرق والمغرب يبحثون عن
القدوة والمثال . فأمامهم المثال الكامل عبد الله ورسوله الذى اصطفاه ليكون
معلم البشرية وهاديها إلى النور . وهذا المثال لو تدبروه لوجدوا فيه كل جوانب
حياتهم الدنيوية والآخرية . محمد الإنسان . محمد الزوج . محمد الأب محمد الحاكم .

محمد القاضى . محمد القائد . محمد المجاهد . محمد المتعبد . محمد الروحانية الصافية والواقعية السكاملة فى مزاج واحد وطبيعة واحدة . . محمد الذى شمل اتجاهات البشرية النظيفة كلها ، وشمل من كل منها قدراً يكفى وحده ليملا حياة لإنسان ! ذلك هو المثال الذى ينبغى أن يحتذى بقدر ما تطيق قدرة البشر ، وبقدر ما يستطيع كل إنسان أن يستوعب من جوانب نفسه العميقة الشاملة الصافية . وذلك هو المقياس الذى يقيس كل إنسان حياته عليه ، ليعرف إلى أى مدى هو مخطئ ، وإلى أى مدى هو على صواب .

فليست هى إذن مجرد ألفاظ يلفظ بها لسانه ، ولا مجرد « وجد » يشعر به الإنسان لذكر محمد عليه الصلاة والسلام ، وإنما هو التوجيه العملى نحو القدوة السكاملة ، وما يتبع ذلك من تأثير فى حياة الفرد والجماعة فى علاقتهم بعضهم ببعض ، وفى الأسس كلها التى تقوم عليها الحياة (١) .

* * *

والصلاة . . قد تبدو كذلك لأول وهلة عبادة خالصة . ولكنها ليست كذلك فى واقع الحياة الإسلامية . إن أثرها الدنيوى ملحوظ حتى وهى عبادة فردية يقوم بها الإنسان فى خلوته ، فما بالك وهى صلاة جماعة ، يلتقى فيها الناس على نظام معين ، وتتحد أجسامهم وقلوبهم فى قبلة واحدة ؟ والصلاة الإسلامية تستحق أن تفرد لها كلمة ينوء فيها بمدلولها الخاص الذى لا تجده فى أنواع الصلاة الأخرى .

إن الصلاة فى كل عبادة هى عنوانها وترجمانها ، وهى « ملخصها » الذى يدل على مبادئها واتجاهاتها .

فبينما نجد الصلاة فى بعض العقائد التى تنحصر إلى الروحانية الخالصة ، أنغاما موسيقية ساجية ، وترائلا مبهما ، وغناء مؤثرا ، مع السكون الشامل يشمل

(١) انظر كتاب « قبسات من الرسول » .

المصلين فلا تتحرك أجسامهم ولا عقولهم ، وإنما تسبح أرواحهم في الملكوت وهم قعود . . .

وبينما نجد لها في بعض العقائد الوثنية ذات المعبودات الحسية القريبة حركات جسمية عنيفة ، وطبولا مدوية وصرخات مجنونة . . .

نجد الصلاة الإسلامية عنوانا للفكرة الإسلامية ، التي تشمل الكيان البشري كله في آن واحد : جسمه وعقله وروحه ، تعطى كلا منها نصيبه ، وتوازن بين شتى الاتجاهات .

نصيب الجسد في الصلاة هو الحركة التي يقوم بها من قيام وركوع وسجود وتحرك وسكون .

ونصيب العقل هو التفكير فيما يتلوه المصلي من الأدعية والآيات . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس لك من صلاتك إلا ما وعيت » .

ونصيب الروح هو الخشوع والتقوى والتطلع إلى الله والاتصال بنوره الشفيف . وكل ذلك في آن .

ليست هناك حركة هي جسم فقط . أو عقل فقط . أو روح فقط . . . وإنما هي الجسم والعقل والروح في كيان واحد متكامل بمنزلة الأجزاء (١) . والصلاة تتوجه إلى الله بالدعاء . ذلك أمر واضح لا يحتاج إلى بيان . ولكن هذا التوجه له أثره العملي في حياة الفرد ، حين يؤدي الصلاة على حقيقتها ، ولا يؤديها بمجرد حركات وكلمات . . .

ولقد جربت اللحظات التي أصلي فيها بكامل نفسي ، وخاصة صلاة العشاء . كم مرة ملأ نفسي الظلام والإجهاد . . كم مرة يثنت من حياتي وأحسست بتفاهتها وضآلتها وقلة جدواها . . كم مرة أحسست أن الحل الذي أحمله أثقل من أن أقدر على حمله . . كم مرة أحسست أنني لا أستطيع . . لا أستطيع أن

(١) الفكرة مأخوذة من حديث لسيد قطب في إحدى محاضراته .

استمر في هذا الجهد المرهق بلا نتيجة ، والساقية الدائرة بلا انقطاع . كم مرة أحسست أن آخر طاقتي هي الليلة . . وأنه لا شيء قد بقي للغد . لا زاد ولا طاقة ولا قدرة على الصراع . . .

ثم أصلى . .

أهو سحر ؟ أهو وهم وخداع ؟

هذه اليد الرفيعة الحانية التي تمتد في خفة ورفق ، فتمسح على صدري فيطمئن . وتمسح على آلامي فليس لها وجود . .
أهي وهم ؟

كلا ! بل إنها حقيقة . إنها يد الله . إنها يد القوة العظمى الحانية في جبروتها وعليائها ، تمسح أوجار نفسي وتنقي أدرانها ، وتمنحني الزاد والقوة والطمأنينة . .
إنها يد الله . الله الذي كنت أصلى له . والذي استطاعت روحى في لحظة صفاء خاطفة أن تتصل به ، فتشرق في نوره ، وتعلق برحمته .
الله يمدني بالقوة والعون . . ويخلقني من جديد .

هل هذه مجرد عبادة الآخرة ؟

أو ليست تمنحني النشاط للحياة من جديد ، فأؤدى عملى ، وأبذل جهدى ،
وأحتمل قسوة الصراع ؟
أو ليست زادا واقعيا لحياة الأرض ، من حيث هي زاد علوى لحياة الآخرة ؟
ذلك وهي عبادة في خلوة . .

أما صلاة الجماعة فدلائلها واضحة في جميع شتات الناس ، وربطهم برباط المحبة والتعاون حين ترتبط قلوبهم بالله في الصلاة . فضلا عن المعنى العسكري الملمحوظ في تنظيم الصفوف واتباع القائد ، وكل المشاعر الأخرى التي ينشئها الإحساس باتحاد الوجهة واتحاد الشعار واتحاد الحركات والسكنات .

والزكاة على العكس . . يبدو الجانب الأرضي التنظيمي فيها واضحاً حتى ليفرى بالظن أنه هو كل المقصود من هذه الفريضة التي تأخذ من القادرين لتعطى غير القادرين ، وتشعر الجميع أنهم شركاء في ثمرة الجهد البشري كل بحسب حاجته ، حتى ولو لم يتساووا في الجهد والقدرة على الإنتاج .

نعم إن الجانب الاجتماعي الاقتصادي واضح جداً في هذه الفريضة . فهي أول ضريبة نظامية في تاريخ الناس . كانت الضرائب قبل ذلك بلا نظام ولا قاعدة ، ولا ميزان لها إلا ميل الحاكم ومدى نعطشه للبال . فجاءت الزكاة فنظمت الضريبة المفروضة على الناس ، وحددت أهدافها . فهي ليست لمنفعة الحاكم ولا لإثراء أهل بيته من دماء الناس ، وإنما هي لكفالة المحتاجين إلى كفالة الدولة من الضعفاء والعاجزين .

ولكنها ككل العبادات الإسلامية ليست للدنيا وحدها ولا للآخرة وحدها . وإنما هي مزيج من هذه وتلك . ويكفي أن تكون التنظيمات الاقتصادية « عبادة » ، لتدل على هذه المزية التي تمتاز بها الفكرة الإسلامية . فالضرائب في كل نظم الأرض فريضة تفرضها الدولة ، لأهداف اجتماعية واقتصادية . أي أنها علاقة أرضية بحتة ، والدولة تقوم بجمعها بقوة القانون وقوة السلطان ، والناس يتهربون منها ، إلا أن تضيق الدولة عليهم الخناق بتنظيماتها وأدواتها التنفيذية فيرون أن دفعها هو الأسلم والأجدى فلا يقاومون . . .

ولكنها في الإسلام ليست كذلك .

فكونها عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله لم يجعلها فريضة ثقيلة على النفس ، يتهرب منها دافعها ، بل جعلها أمراً يسابق الناس إلى أدائه ليرضى الله عنهم ، ويمنحهم البركة في أموالهم وأحوالهم ؛ وجعل في ضميرهم حساسية تجاهها بحيث يتحرج المسلم من أن يطعم طعاماً أو ينفق على نفسه وأهله ما لا لم يدفع زكاته .

وكذلك كان الناس في صدر الإسلام حين كانوا مسلمين . بل كذلك ظلوا إلى عهد قريب حتى بطلت الزكاة باستخدام القانون الفرنسي بدلا من الشريعة الإسلامية . وقد بدأت الموجة الإسلامية الجديدة تحفز الناس من جديد إلى دفع الزكاة . وبذلك يتم التنظيم الأرضي والشعور الوجداني في عمل واحد ، غير متميز هذا عن ذاك .

* * *

والصوم فريضة تعبدية خالصة في ظاهرها .
إنه حرمان النفس من شهواتها ، وحرمان الجسد من غذائه وشرابه ابتغاء مرضاة الله .

ولكنه لم يفرض لصالح الفرد في الحياة الآخرة وحدها ، وإنما فرض لصالح أمره في الحياة الدنيا كذلك .
إن الصوم في حقيقته عملية تجنيد .

وكما تحتاج الأمم كلها لتجنيد أبنائها وتدريبهم على احتمال الجهد والمشقة توقعا للاحتياج إليهم يوم الصراع . . فكذلك فرض الإسلام هذا التجنيد ، ولكن على نطاق أوسع ، يشمل الروح والجسد في وقت واحد ، ويشمل الصغار والكبار . والرجال والنساء . . لأنه تدريب لهم على الصراع الأكبر . . الصراع الدائم . . صراع الحياة ، التي يمارسها الجميع وتقع تبعاتها على الجميع .
الحياة كلها صراع . وليست الحرب وحدها هي الصراع الذي يحتاج إلى التدريب وتحمل المشاق .

وأبسط ألوان هذا الصراع أن الحياة لا تعطي أحدا كل أمنياته ، مهما بدا مستمتعا بطيبات الحياة . فالنفس البشرية خلقت هكذا واسعة المطامع والأحلام ، لا تقنع بما تجدد ، وتسعى دائما إلى جديد ، ليكون هذا حافزا من حوافز النشاط الدائم على الأرض . وباعثا على التعمير والنماء .

ولكن هذه الخصلة التي ركبت في طبيعة البشر لمنفعتهم وصالحهم تنقلب شرا وشقاء إذا لم تعرف كيف تقف عند حد ، وكيف تقنع أحيانا بالموجود لأنه لا مطمع في غير الموجود .

وذلك أمر يحتاج إلى تدريب .

وخير تدريب هو الامتناع الاختياري عن بعض الشهوات وبعض الضرورات فترة من الوقت . فهذا هو الذي يعطى النفس القدرة على تحمل الامتناع الإجباري عن تلك الشهوات والضرورات حين تحكم بذلك ظروف الحياة .

فكما أنك تكسب عضلات جسمك القوة المطلوبة بتدريها على تمرينات مماثلة لما يمكن أن تقوم به وقت الحاجة العملية من ثني ومد ورفع وخفض ، ومصارعة وملاكمة . . الخ ، فكذلك تكسب عضلات نفسك القوة المطلوبة بتدريها على مثل ما قد يتطلب الأمر القيام به وقت الضرورة من امتناع عن طيبات الحياة .

وليس هذا هو اللون الوحيد من الصراع الذي يعرض للناس في حياتهم . . فالحياة مملوءة بالشر . والمسلم مطالب بمقاومة الشر أين وجدته . وهذه المقاومة قد تعرضه أحيانا للأذى . فكيف يمكن أن يحتمل الأذى إذا كان لا يقوى على احتمال الجوع والعطش بضع ساعات ؟

وكما أن الجندي لا يؤخذ من داره إلى ميدان المعركة في يوم وليلة ، وإلا حكم عليه بالفناء العاجل . .

فكذلك هذا الجندي في صراع الحياة الأكبر ، لا يجوز أن يواجه المعركة الدائمة بغير إعداد . والصوم إحدى وسائل الإعداد .

ولا عجب إذن أن يكون الصيام قد فرض عام فرض القتال !

ولمنفعة الفرد في الحياة الدنيا إذن قد فرض هذا الصيام ، في ذات الوقت الذي يجزى عليه في الآخرة أعظم الجزاء .

وهو كرم الله السابغ الذى يمنحنا من الفرائض ما يصلح به حالنا على الأرض ،
ثم يحزبنا به الثواب والمغفرة يوم يقوم الحساب .

* * *

والحج من العبادات التى تبرز فيها الدنيا بالآخرة ، والأرض بالسما .
والذين يذهبون إلى الحج صافية قلوبهم لهذه الفريضة ، يحكون ويحسون عجا .
إن حالات « الوجد » التى تستجيشها فى وجدانهم زيارة الأماكن المقدسة
وأداء الفريضة فيها لمى حالات عجيبة نادرة المثال فى واقع الحياة . حالات ترتفع
فيها النفوس البشرية عن ملابسات الأرض ، ومطامع الأرض ، وشهوات الأرض .
وتتجرد لله خالصة ، تتوجه إليه أن يتقبلها فى عباده ويمنحها مغفرته ورضوانه .
والشفافية التى يحسها الناس هناك ، وهم يسرون حيث سار الرسول صلوات
الله وسلامه عليه ، ويصلون حيث صلى ، وحيث تنزل الوحي ، وحيث جاهد
وصبر ، وحارب واتصر . .

لأنها مشاعر عميقة تهز الوجدان هذا ، وتصل إلى أعماقه . . تصل إلى الكيان
الخالص المصنئ من الأدران ، إلى الجوهر المشرق المستضىء بنور الله هناك
حيث أودعه الله ليتصل به ويلقاه . . .

ذلك من حيث هى عبادة .

وذلك من حيث أثرها فى تطهير النفس وتخليصها من كثير من أوسارها .
ومع ذلك فقد أشار القرآن الكريم إلى « المنافع » فى الحج . منافع أخرى
غير لإصلاح النفوس وربطها بالله والرسول . من تبادل التجارة والتعارف
بين المسلمين ، وقيام هذا المؤتمر السنوى الذى يتلاقون فيه بمختلف ألوانهم
وأجناسهم ولغاتهم ، لينهلوا من معين واحد ، ويلتقوا على قبة واحدة . .

ثم يستعرضوا مشكلاتهم ويتدارسوا أحوالهم ، لينظموا شئونهم على هدى وبصيرة ، واتصال في الوشائج والأفكار .

* * *

تلك هى العبادات الإسلامية .

ليس فيها عبادة واحدة خالصة للآخرة . ولا عمل واحد لا يعود على الإنسان بالنفع الحاضر القريب .

إن الله لم يفرض هذه العبادات من أجله سبحانه .

صحيح أنه يقول : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . وصحيح أن حق ألوهية الله على عبودية البشر هو العبادة الخالصة لله . ولكن الله سبحانه غنى عن عبادة العباد وتقوى المتقين . والله يقول : « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه . إن الله لغنى عن العالمين » . فليس لفائدة الله سبحانه تقوم هذه العبادات ، وإنما هى لصالحنا نحن أبناء البشرية ، فى ذات الوقت الذى هى فيه أداء لحق الله على العباد .

وهو كرم الله السابغ - كما قلنا - الذى يمنحنا من الفرائض ما يصلح به حالنا على الأرض ، ثم يجزينا به الثواب والمغفرة يوم الحساب !

الفرد والمجتمع

الفرد أم المجتمع ؟ أيهما الذى يوجه الحوادث ويصنع التاريخ ؟
كان القدماء يعتقدون أن الفرد هو الذى يوجه الأحداث . الفرد الممتاز
بطبيعة الحال . وأن المجتمع - أو الدهماء - لا دور لهم إلا الانقياد للزعيم ،
والسير فى الطريق الذى يوجههم فيه .

وقام المحدثون يعارضون هذه النظرية فى عنف ، ويقولون إن المجتمع هو الذى
يستطيع أكثر من غيره أن يتفهم التيارات التى تسرى فيه فيتمشى معها ويعمل
على إنضاجها ، وأن الفرد العادى لا يقل أهمية عن الفرد الممتاز فى هذا المجال .
ولم يكتف هؤلاء المحدثون بأن يفسروا التاريخ الحديث وحده هذا التفسير ،
- أى فى الفترة التى صار فيها للفرد العادى كيان متميز - بل راحوا يزيدون أن
الفرد والجماعة كليهما محكومان منذ فجر التاريخ بالتطور المادى أو التطور
الاقتصادى ، وأن هذا الأخير وحده هو الذى يصنع التاريخ ؛ وهو يصنع
التاريخ فى اعتقادهم من خلال الجماعات لا من خلال الأفراد !

والواقع أن إصدار حكم واحد ينطبق على جميع الحالات أمر عسير .
والأصح والأقرب إلى العدالة فى نظرى أن نقول إن هناك تفاعلاً دائماً بين
الفرد والمجتمع فى كل حركة كبيرة من حركات التاريخ ؛ كلاهما يأخذ ويعطى .
واسكن الدفعة الإيجابية قد تكون أبرز فى أحد الجانبين منها فى الآخر . فيبدو
هذا الجانب راجع الكفة ، وإن كانت الكفة الأخرى لا تصل فى حالة من
الحالات إلى حد الخواء .

المجتمع يبرز مرة ، والفرد يبرز مرة . والتفاعل موجود دائماً فى جميع الحالات .
والرد على المتطرفين الذى يلغون دور الفرد الممتاز فى التوجيه والقيادة ،

ويجعلونه قوة سالبة بالنسبة لقوة المجتمع ، أو لقوة المادة والاقتصاد . . الرد البسيط على هؤلاء أن تصور بعض أحداث التاريخ التي ارتبطت بحياة فرد ، ثم نفترض أن هذا الفرد لم يوجد ، أفكانت الأحداث تسير على نفس النسق وتؤدي نفس النتيجة ؟ إذا كان الجواب نعم ، فهذا الفرد إذن ليس له دور إيجابي في الموضوع . وإذا كان الجواب لا ، فمن أين جاء الفارق ، والمجتمع هو هو في الحالتين ؟

خذ نابليون . فلعله من أبرز الأفراد ، الذين لعبوا دورا في التاريخ . وتصور لحظة أنه ليس هو الذي يلعب على المسرح ، وإنما هو شخص آخر ليست له أطماع نابليون ، ولا تركيبه العصبي والفكري والجسدي ، ولا عقده النفسية ، ولا مشاعر شعوره ، ولا أخفايا « لا شعوره » . . هل كان يسير تاريخ فرنسا في ذات الخط الذي سار فيه صعوداً وهبوطاً ونجاحاً وخيبة ؟

الذي يقول نعم لا شك يغالط نفسه ويغالط التاريخ . وخذ من التاريخ الإسلامي شخصية عمر . . . عمر الفذ في التاريخ الإنساني كله . هل كانت الدولة الإسلامية التي صارت فيما بعد « العالم الإسلامي » تسير على نفس النسق بوجود عمر وعدم وجوده سواء ؟ الذي يقول ذلك يغالط نفسه ويغالط التاريخ .

فصفات عمر الشخصية بارزة إلى حد يهر النظر في كل أحداث تلك الفترة من تاريخ الإسلام وتاريخ العالم المعروف كله في ذلك الحين . وخذ مثلاً حادثة كهول خالد بن الوليد .

فهذه حادثة تبرز فيها شخصية عمر على أشدها . من غيره كان يجرؤ على عزل خالد ؟ ومن غيره كان يمكن أن يحدث هذا الأمر ثم يمر مأمون العاقبة لا يؤدي إلى فتنة كبرى تزلزل العالم الإسلامي كله وتهد الدولة من قواعدها ؟ صحيح أن إيمان خالد ، وعظمته البالغة ، لهما حسابهما الكبير في الموقف ،

ولكن هذا لا يغير وجهة النظر التي نحن بصددھا . نأخذ « فرد » آخر ممتاز ،
وتصرفه راجع إلى شخصه . ثم إن شخصية عمر الفذة كان لها رغم كل شيء الأثر
الحاسم في الموقف ، فربما كان خالد رغم إيمانه وعظمة نفسه قينا أن يثور ويتمرد
لو أن من عزله لم يكن عمر بالذات . . .

ورب قائل أن يقول إنه ليس عمر الفرد الفذ هو الذي صنع تاريخ تلك
الفترة من الزمان . وإنما هي « الروح الإسلامية » . وذلك حق ليس فيه شك .
ولكن فضيلة عمر ومزيمته « الشخصية » ، أنه استوعب الروح الإسلامية
بكل خصائصها ، واستوعبها « بقوة » تناسب قوة نفسه ، وسار معها مستقيما
لا ينحني ولا يضعف ولا تضطرب في يديه مقاليد الأمور .

ونظرة واحدة إلى تاريخ الإسلام بعد عمر - في فترة عثمان - ترينا أن الفارق
الضخم هو فارق الشخصيتين ، هو الفارق بين فرد وفرد في توجيه الحوادث
وقياد الأمور .

وليس معنى ذلك أننا مع عمر - أومع غيره من عظماء التاريخ - نلغى دور
المجتمع ونجعل كية سالبة مطلقة السلبية . فهناك دائما هذا التفاعل المشترك بين
الفرد والمجتمع . فلولا ما كان المجتمع أيام عمر مسلما ، متشعبا بالروح الإسلامية ،
مستجيبا لوحيا وأهدافها ، لاستعصى على عمر - بعظمته الشخصية وحدها -
أن يسير به إلى القمم العالية التي وصل إليها . ولما كان قينا أن يصرف جزءا
من طاقته الجبارة في الصراع مع الناس ، مع الجماهير التي لا تريد أن ترتفع ،
أو التي تشكل عن التكليف . فدور المجتمع إذن واضح في مساندة عمر ، وتيسير
مهمته في بناء الدولة الإسلامية ، وتوفير الجهد كله لهذا البناء ، بدلا من توزيعه
بين الهدم والبناء . كل ما هناك أن الطاقة الإيجابية المتمثلة في شخصية عمر
من الضخامة بحيث تبهز العيون .

وكذلك الأمر مع أبي بكر في وقفته الخالدة من حرب المرتدين . إنه موقف

فد في التاريخ . موقف رجل واحد تتخلى عنه كل قوى الأرض . المسلمون كلهم بما فيهم عمر نفسه . فيستطيع بقوته الروحية الغدة التي تستمد قوتها من الله أن يحول دقة الموقف ويخوض الحرب التي غيرت وجه التاريخ .

إنه شخص أي بكر القوة الفعالة في الموقف . ولكن هذا لا يلغى دور المجتمع ولا يجعله كمية سالبة . وما قلناه عن دور المجتمع مع عمر يصلح بنصه هنا مع أي بكر .

ونهيض في مدارج الأشخاص حتى نصل إلى نابليون .

إنه دون شك هو القوة الفعالة في الفترة التي ظهر فيها على مسرح الأحداث . ولكنه - وحده - لم يكن ليفعل ما فعل من معارك وفتوحات . فلو لا تطلع الشعب الفرنسي للذابة والفتح ، والطاقة المنبثقة من الثورة ، لذهبت عبقرية نابليون الحربية مع الريح ، لأنها تكون إذ ذاك عبقرية بلا رصيد . ورصيدا كان تلك الدفعة المتطلعة في نفوس الشعب ، المستعدة للبذل والجهد وتحمل مشقات الحروب . ولو كان نابليون قد ظهر مثلاً في الحرب الأخيرة ، والشعب الفرنسي متميع منحل الأخلاق مشغول بشهواته وملذاته ، فأغلب الظن أن عبقريته الحربية كانت ستفقد قيمتها في الصراع . وكل ما كان يمكن أن يحصل عليه هو هزيمة مشرفة بدل تلك الهزيمة المنكرة التي لوئت وجه فرنسا في تاريخها الحديث .

كذلك الأمر مع ستالين ، الذي راحوا يحطمون تماثيله ويشوهون سمعته . .
بعد أن مات !

إن دوره في بناء قوة روسيا دور غير منكور ، دور يرجع إلى شخصيته غير العادية ، وإلى أفسكاره الخاصة وطريقة إدارته للأمر . وهم يقولون اليوم إنه خائن لمبادئ ماركس ولنين ، ولعل مزيته في نظرنا هي هذه : الخيانة ، التي عدل بها بعض أسس الشيوعية فأخضعها لمنطق الواقع واقترب بها من التفكير المعقول . ولكن الذي يعنيننا هنا أنه لم يكن قينا أن يقوم بهذه الخيانة ، لولا تفرد شخصيته

وبروزها ، والطاقة الإيجابية التي تشتمل عليها ، والقدرة على القيادة والتوجيه .
وقد يصعب علينا أن نرى دور المجتمع ، مع ستالين . فالذى يظهر للعين هو
السلبية الكاملة من الشعب إزاء دكتاتورية ستالين المطلقة .

ومن المضحك أن تصاب النظم الجماعية ، صاحبة الفكرة القائلة بأن المجتمع
هو الأصل ، وأن الفرد ليس له كيان مستقل ولا توجيه ، ولا دور في صناعة
التاريخ . . من المضحك أن تصاب هذه المجتمعات « بالزعامة الفردية » ، بمثلة في
ستالين ، لهدم نظرياتها من أساسها ، ويكذب في عالم الواقع ما تقول في عالم
النظريات !

ولكن الدور الذى لعبه المجتمع الروسى موجود على أى حال . فالرغبة الجامحة
في إنشاء روسيا الكبرى وجعلها قوة فعالة في توجيه الحوادث هي الحافز الإيجابي
الذى استند إليه ستالين . . . كل ما هنالك أن شخصيته هي القوة الظاهرة على
مسرح الأحداث .

* * *

التفاعل إذن موجود دائماً بين الفرد والمجتمع . ولكن الأمثلة التي ذكرناها
كانت واضحة الدلالة على الدور البارز الذي قام به أفراد في صناعة التاريخ .
وليس الأمر واحداً في جميع الأحوال .

فهناك حركات تاريخية يبرز فيها دور المجتمع بوزاً واضحاً ، كبروز الأفراد
في الأمثلة السابقة .

خذ مثلاً الثورة الفرنسية . . . والثورة الشيوعية .

الجاهير هنا هي القوة الفعالة . القوة المدافعة . المركز الذى ينبثق منه النور
أو ينتفض منه اللهيب .

وأبرز ما تبرز الجماعة في الثورة الفرنسية في عمليات التدمير والتخريب . وفي
التقلبات المفاجئة في الموقف . واندفاع التيار الشعبى إلى اليمين تارة ، ثم إلى اليسار
تارة أخرى بنفس الحماسة ونفس القوة .

ذلك طابع الجماهير . وتلك كانت ثورة الجماهير .
وقد كان للثورة زعماء . ما ينسكروا أنهم كانوا ذوي أثر في توجيه الثورة .
ولكنهم في هذه المرة ليسوا القوة البارزة على المسرح ، إن دورهم أقرب إلى دور
عامل الإشارة الذي يوجه القاطرة على الشريط ، ولكن القوة الدافعة ليست في يد
محول الإشارة . وإنما هي في الرجل المنطلق كالجنون .
ولعل هذه الثورات هي التي أوحى لعلماء الاجتماع المحدثين بنظريتهم القائلة
إن الجوع هي العنصر المحرك . وهي القوة الفعالة في أحداث التاريخ .
ولكن قياس التاريخ كله على بعض أجزاء منه خطأ على . فالواقع يشمل هذه
الأمثلة وتلك . والحقيقة المشتركة هي وجود التفاعل الدائم بين الفرد والمجتمع ،
مع بروز أحدهما على الآخر هنا أو هناك .

* * *

وهلتر ؟ ما مكانه في هذا الجدل القائم بين الفرد والمجتمع ؟
لعل هلتر من الأمثلة النادرة في التاريخ ، التي يكاد يقسارى فيها دور الفرد
ودور المجتمع في توجيه الأحداث وتسيير دفة الأمور .
ولاشك أن المعجبين بهلتر سيقولون : كلا إن شخصيته الفذة كانت هي محور
الأحداث كلها في تلك الفترة من الزمان .
ولكن أنصار نظرية المجتمع سيقولون من جانب آخر : إن هلتر لم يكن
إلا منفذاً للدوافع الكامنة في المجتمع الألماني عقب الحرب الأولى ، وعقب الهزيمة
الظالمة التي أصابت ألمانيا في تلك الحرب .
الروح العسكرية المتغلغلة في الشعب الألماني . الكبرياء الجريحة في معاهدة
فرساي . المطامع والمطامع التي تملأ مشاعر الشعب ، ويغذيها الإحساس بتفوق
الجنس الألماني في العلوم والفنون والحرب . . .
كل تلك العوامل هي التي خلقت هلتر في نظر هذا الفريق من المؤرخين
وعلماء الاجتماع .

ولكن هؤلاء وأولئك متطرفون .

فلنأخذ كل هذه العوامل الإيجابية في نفوس الشعب الألماني ، ولنحذف وجود هتلر ، ولنضع بدلا منه شخصا آخر ، أو لنضع أحدا في مكانه ، هل تكون النتيجة واحدة ؟

الفرق يساوى شخصية هتلر .

ومن جانب آخر فلنأخذ هتلر بكل عبقريته ومزاياه ولنضعه في غير ألمانيا أو في ألمانيا في غير تلك الفترة وفي غير هذه الظروف . هل تكون النتيجة واحدة ؟ الفرق يساوى الشعب الألماني في عهد هتلر .

وهذه القضية تصدق في كل حالة . هذا حق . ولكن لا تتقارب النسبة في الحسبتين في جميع الحالات كما تتقارب في حالة هتلر . فالميزان يميل أحيانا هنا وأحيانا هناك . ولكنه في هذه الحالة يكاد يسوى بين الكفتين بعد تأرجح بسيط هنا أو هناك .

* * *

والخلاصة من هذا كله أن المسألة متروكة للمصادقات المصادقة هي التي تبرز الزعيم الفذ القادر الموجه . والمصادقة هي التي تجعل الشعوب تثب وثباتها الجبارة !

وليس هناك كبير ضمان !

الروح الإسلامية الجبارة تحطمت - جزئيا على الأقل - على يد بنى أمية ابتداء من عهد عثمان .

والروح الشيعية « الجماعية » ، القائمة على أسس عليية (١) تحطمت - جزئيا على الأقل - على يد ستالين .

وليس في وسع أى شعب أن يقول إنه يستطيع أن يربى زعماءه على مبادئ معينة ، ليضمن قيامهم على تنفيذ هذه المبادئ وعدم الانحراف عنها حين توضع في أيديهم مقاليد الأمور .

وليس كل يوم يولد عبقرى يترجم الطاقة الكامنة إلى عمل حى ، والمشاعر إلى حقائق .

ومع ذلك فليس هناك ما يدعو إلى اليأس من أمر البشرية !
هناك شيء ولو قليل من الضمان !

لإثارة وعى الشعوب يجعل انحراف الزعماء أصعب ، واستجابتهم لدواعى العدالة فى الحكم أقرب إلى التحقيق . وكلما زاد وعى الشعب زاد استقرار حياته وأمن الانكسارات المدمرة .

وتلك مهمة الدعاة .

وهى مهمة دائمة لا تنتهى ما بقيت الحياة على الأرض .

وخير الدعوات ما يربط القلوب بالله ، أى بالقوة المتحركة فى قوى الأرض ،
القاهرة فوق قوى الأرض .

وواجب الدعاة ألا يأسوا ، مهما وجدوا أمامهم من صعاب ، ومهما تحملوا
من تضحيات ومشاق . وليخرجوا من حسابهم أنهم يعملون للناس . وليجعلوا
فى حسابهم أنهم يعملون لله !

المرأة والحضارة

من أبرز سمات هذا العصر ما يسمونه «تحرير المرأة» .

فماذا كسبت المرأة وماذا خسرت من هذا التحرير ؟

لا شك أن وضع المرأة في كثير من أرجاء العالم كان في حاجة إلى تصحيح . كانت المرأة في حاجة إلى رد الاعتبار للإنسانى إليها ورفعها عن أن تكون جارية للرجل أو وسيلة من وسائل إمتاعه ، ولكن الطريقة التى مُصَحِّح بها وضعها لم تكن فى ذاتها صحيحة . كما أن الظروف التى لا بست عملية التحرير فى أوروبا قد جرفت المرأة فى تيار عنيف أفسد كثيرا من جوانب طبيعتها ، كما أفسد كثيرا من مفهومات الحياة فى العصر الحديث .

وقد كانت قضية المساواة بين المرأة والرجل من أكبر القضايا التى شغلت هذا الجيل . والذى يشهد النتائج التى وصل إليها الغرب فى هذا الباب على رضا منه أو على كره ، يجد أن المرأة قد اكتسبت كثيرا من رذائل الرجل الفطرية من غير أن تكسب شيئا يذكر من فضائله الحقيقية ، بينما هى تختل فى الوقت ذاته عن كثير من فضائلها الفطرية .

فالرجل بفطرته غير مخلص فى علاقاته العاطفية المتصلة بالجنس . والسبب فى ذلك أن ذكور الحيوانات جميعا أقل من الإناث . لأسباب مختلفة ، ليس أقلها اقتتال الذكور فيما بينهم للحصول على أنثى ، وما ينتج عن هذا القتال من فقد عدد من ضماف الذكور ، ولا يبقى إلا الأقوى (وتلك من حكمة الخالق فى خلقه) . فلو لم يكن فى تركيب الذكر استعداد فطرى لأن يلقح أكثر من أنثى واحدة ، لظلت كثير من الإناث معطلات لا يؤدين مهمتهن الطبيعية من إنتاج الحياة جيلا بعد جيل . بينما الأنثى لا تحتاج فى فطرتها إلى الالتقاء بأكثر من ذكر واحد ، لأنها تحمل مرة واحدة فى المرة الواحدة ، ومن لقاح واحد فقط ، فيكون

اللقاء بالذكور الآخرين عملية لا معنى لها لأنها لا تؤدي وظيفة بيولوجية .
ومن ثم لم يركب الخالق في فطرتها هذا الطبع .

وفي الإنسان بجنسيه امتداد لهذه الفطرة الموجودة في غيره من الخلق .
فالرجال أقل عددا من النساء في مجموع الجنس البشرى . لأسباب مختلفة ،
منها أن الحروب تقتل من الرجال أكثر مما تقتل من النساء . ومنها أن جسم المرأة
أكثر احتمالا وأكثر مناعة من جسم الرجل ، ليساعدها ذلك على احتمال آلام
الحمل وتبعاته ، ومن ثم يموت في جميع الأمراض والأربثة عدد من الرجال
أكثر من النساء ، فضلا عن تعرضهم لحوادث العمل والطريق بنسبة أكبر ،
حتى لو تساويا في العدد ، لأن المرأة أكثر حرصا ومن ثم فهي أقل تعرضا للإصابة .
والنتيجة لكل ذلك أن عدد الرجال كما قلنا أقل من عدد النساء في مجموع
الأرض . فلو لم يكن في الرجل - كبقية ذكور الحيوانات - استعداد فطري
لالتقاء بأكثر من أنثى واحدة ، لظلت كثير من النساء - اللواتي فقدن
ما يوازنهن من الرجال - معطلات عن أداء مهمتهن الطبيعية من إنتاج الحياة .
بينما لا تحتاج أنثى الإنسان إلى الالتقاء بأكثر من رجل لأن مهمتها تتحقق بقاء
رجل واحد .

وعلى هذا كانت المرأة مخلصة بفطرتها للرجل الذي تلتقي به لتحقيق مهمة
الحياة . ولم يكن الرجل مخلصا بفطرته مثل هذا الإخلاص . لأن في طبيعته
استعدادا فطريا للقاء بأكثر من واحدة . ولو ترك على طبيعته لما قنع قط
بواحدة . ولكن الدين والأخلاق والتقاليد هي التي تهذب هذا الميل الفطري
في طبيعته ، وتربطه إلى أسرة منتظمة العلاقات ، وإلى امرأة واحدة لا تعدو عيانه
إلى غيرها . والدين والأخلاق والتقاليد على أي حال لا تقسره قسرا ضد طبيعته .
ولأنها هي تعتمد على خيوط أخرى في نفسه ، تستغلها للصالح البشرى كله ، منها
شعور الألفة العميق في نفس الرجل ، ومنها حب السكن والاستقرار . . .
والإسلام بالذات من بين النظم جميعا لا يقاوم هذا التركيب الفطري

في طبيعة الرجل للقاء مع أكثر من أنثى ، لأنه يحتاج إليه أحيانا لسد النقص في عدد الذكور - وهي حالة دائمة في البشرية كما ذكرنا - وإنما يهذب هذه الطبيعة فقط ويقيدها لحين الحاجة إليها . ومن ثم فهو يبيح للرجل نظريا أن يتزوج منى وثلاث ورباع ، ليتمشى مع فطرته ولا يكبتها ، بينما يضع القيود الكثيرة في طريق التنفيذ العملي ، مما يجعل الرجل في النهاية زوجا لامرأة واحدة لا غير ، إلا في الحالة الاستثنائية التي ذكرناها من قبل - حالة نقص الرجال عن النساء - ولا تتعدى النسبة في مصر مثلاً ٣٠٪ من مجموع الزيجات .

هذا الاستطراد نخلص منه بنتيجة بارزة هي أن الرجل بفطرته غير مخلص في علاقاته العاطفية ، وإنما هو يتعلم الإخلاص بهذيب الدين والأخلاق والتقاليد لطبيعته . أما المرأة فمخلصة بفطرتها لأن ذلك هو الذي يتناسب مع طبيعتها . وكذلك سارت الأمور أجيالا طويلة بعد أجيال .

ولكن المرأة في العصر الحديث قد تغيرت فهي تريد أن تتساوى بالرجل . تريد أن تخرج إلى المجتمع . لا تريد أن ترتبط ببيتها - على الرغم من أن هذا شعور فطري لا تقسر عليه المرأة قسرا ، بل هو كامن في طبيعتها - وهي تريد أن تثبت أنها مثل الرجل تماما وقادرة على القيام بكل ما يقوم به من أعمال .

وتعلبت المرأة في هذه الحى ألا تستقر في علاقاتها العاطفية تجاه رجل واحد ، وأن « تدور » على الرجال كما يدور الرجل على النساء . بل تعلبت ما هو أسوأ وأخش فصارت تجرب اللقاء الجنسي كله أو بعضه بلا حياء ولا غضاضة مع عدد كبير من الرجال - بحجة اختيار زوج المستقبل - ثم تعودت ذلك حتى صار جزءا من حياتها لا تستغنى عنه . وبذلك تخلت عن فضيلاتها الفطرية في هذا الجانب واكتسبت رذيلة الرجل الفطرية التي سعى إلى تهذيبها الدين والأخلاق والتقاليد . والمسألة هنا ليست مسألة الأخلاق بمفهومها الضيق - وإن كانت تلك من الخطورة بمكان - ولكنها أشمل من ذلك وأعمق . إنها مسألة تدمير الكيان

الأنثوى من أساسه ، والانحراف به انحرافاً خطيراً عن طبيعته ، في سبيل لاشيء ..
إلا متعة جسد عابرة لا تدوم طويلاً ، ولا تترك النفس مع ذلك بلا جراح !
وهذه البيوت المخطمة العديدة التي لا يمسكها في أوروبا إلا القوانين التي تمنع الطلاق ،
والتي لا يمسكها شيء في أمريكا حيث يباح الطلاق فيصل إلى نسبة ٤٨ ٪ من مجموع
الزيجات وهو أكبر رقم في العالم وأخطر رقم .. هذه البيوت المخطمة هي نتيجة
هذا الانحراف في فطرة المرأة ، والفساد الذي طرأ على كيانها ، فأصبح الزوج
الواحد ، لا في نظرها ، وأصبح التغيير متعة تتلصق له الأسباب . كما أن ذلك
قد أتاح للرجل فرصة عظيمة يرتد فيها إلى فطرته ، ويتخلى عن تهذيب الدين
والأخلاق والتقاليد ، إذ صارت المرأة سهلة التناول بالنسبة إليه ، تذهب بنفسها
إلى عتبة داره ولا تحتاج منه إلى جهد في البحث !

وبعض المخدوعين هنا في الشرق يفتحون أفواههم في بلاهة من شدة الإعجاب
بحوادث الطلاق الأمريكية التي يطلب غالبيتها النساء . ويقولون لك : انظر إن
المرأة هناك قد تحررت وشعرت بالمساواة . إنها تطلب الطلاق من زوجها
لأنه لا يخلق لحيته كل يوم ! أو لأنه لا يشركها في شئونه .. الخ . وهم ينسون
في بهرتهم أن المرأة لا تتلصق هذه الأسباب الواهية إلا لأنها قد ملت ، ولأنها
ترى صيداً آخر في الخارج يبدو جميلاً لأنه جديد .

* * *

والخز والتدخين من رذائل الرجل الفطرية .

طبيعة الرجل وعمله الذي يقوم به يساعدان على تراكم قشرة صلدة تحجب
إشراق روحه وده تغيب ، صفاءها . فهو يعمل في مجال احتكاك دائم . احتكاك
مع ماديات الحياة ومعنوياتها ، مع المعادن الصلبة التي يطوعها للإنتاج ، ومع غيره
من الأحياء في صراع الحياة الكبير . ومن ثم يلجأ حتماً إلى شيء يذيب تلك
القشرة الصلبة كلما تراكت على روحه ، وشعر بها تضيق أنفاسه وتحجب

عنه النور . وحين يكون طبعه مستقيماً وقلبه مهتدياً إلى النبع الأصيل فإن العبادة المخلصة هي التي يجد فيها ضالته ؛ هي التي تفسح أوصار نفسه ، وتزيل غبشها ، فإذا هو مشرق الروح شفيف النظرات . ولكنه حين يكون بعيداً عن النبع ، لا يهتدى بهدى الدين ، يلجأ إلى الخمر وأشباهها^(١) يحاول بها أن يستعيد إشرافه ، فتمنحه الإشراف الصناعي لحظة ، وتطمس روحه بعد ذلك لحظات .

على أى حال فالخمر من رذائل الرجل التي تفرد بها أجيالاً طويلة في التاريخ ! ولم تكن المرأة قط في حاجة إليها ، فطبيعتها المتوفرة المملوءة بالحياة ، الحاضرة العواطف والانفعالات ، لا تحتاج إلى منبه صناعي كالذي يحتاج الرجل إليه . ولكن المرأة اليوم تحررت ! وأقبلت تطالب بالمساواة الكاملة مع الرجل . فلم لا تشرب الخمر ؟ هل الرجل أحسن منها ؟ فلتشرب ولتسكرك حتى لا ينفرد الرجل دونها بشيء ! والتدخين كذلك .

وسواء صدق فرويد في تفسير الميل إلى التدخين أم كذب^(٢) ، فإن التدخين كان من رذائل الرجل . كان يرضى به غروره ، ويحس بالزهو الفارغ وهو ينفث الدخان حوله ، فيشعر شعوراً كاذباً أن كيانه قد كبر وامتد في الفضاء بقدر ما يمتد ما ينفثه من الدخان ! وكان الرجل المستقر عاطفياً ، الواثق من كيانه ، المطمئن إلى وجوده ، المحقق لذاته ، لا يحتاج إلى التدخين ، أولاً يسرف فيه . أما المرأة فلم تكن تحتاج إلى تحقيق ذاتها عن طريق الدخان المنعقد في الفضاء ، وهي تملك وسائلها الأخرى ، من حيوية فائضة ، ومن أبناء تحس أن كيانهما متحقق في كيانهما ، وأنها « موجودة » في الحياة بقدر ما أوجدت من الأحياء . ولكن المرأة اليوم قد تحررت ! ولم تعد تجد كيانهما في تلبية فطرتها الطبيعية .

(١) من البديهي أن الخمر ليست الوسيلة الوحيدة للرجل الذي لا يهتدى إلى الله . فلها أشباه كثيرة من الغييات عن الوعي . كما أن بعض الرجال يلجأ إلى التهريج والصباح كوسيلة للتنفيس .

(٢) من المعلوم أن فرويد يرد جميع تصرفات الإنسان بلا استثناء إلى أصل جنسي .

ومن ثم أحست بالنقص الذى تكلمه نكيلا زائفا بسحاب الدخان فى الهواء !

* * *

والرجل خشن بطبعه وليس شديد الحياء .

وهو منطوق مع كيانه ومهمته التى هو مكلف أداها . مهمة الصراع الخارجى مع الحياة والأحياء . فلو أنه كان ليناً رقيقاً ناعماً حياً لعجز عن أداء مهمته ، وضعف إنتاجه المادى ، ووقف تبعا لذلك تقدم الحياة .

والدين والأخلاق والتقاليد تهذب هذا الطبع الفطرى فى الرجل ولكنها لا تتعرض له حيث يكون ضرورة لازمة . فالإسلام يطلب من الرجل أن يكون ليناً مع إخوانه رقيقاً فى معاملتهم ، حياً فى المسائل التى تنصل بالأعراض والبيوت ، فهو يصف المؤمنين بأنهم « رحاء بينهم » ، « أذلة على المؤمنين » ، ويقول : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » . ولكنه فيما عدا ذلك يشجعه على القوة والشدة والخشونة ويأبى منه الضعف واللين .

والمرأة ليست فى حاجة إلى الخشونة وقلة الحياء . لأن مهمتها تختلف عن مهمة الرجل ، وطبيعتها غير طبيعته . والرق والليونة سواء فى بناء جسمها أو بناء نفسها هى المنطقية مع وظيفتها الحيوية ، فهى تسهل لها مهمة الحمل والولادة ، كما تسهل لها القيام بالأعباء النفسية للأمومة . وقد كان الحياء طابعا فطريا فيها يتناسب مع كل ذلك . كما كان إحدى الوسائل الفطرية التى تجتذب بها الرجل ، إذ تخطر أمامه ثم تختفى ، وتتركه هو يسعى إليها ، وتسبر غوره فى أثناء الطريق !

ولكن المرأة الحديثة المتحررة ، قد تحررت من الحياء أيضا إذ تحررت من كيانهما الأثوى كله ، وصارت تشارك الرجل فى تجربته وتوقعه ، واسكن فى غير المجال الذى يابىء الرجل إلى ذلك ، ويكون منطقيا فيه مع كيانه ووظيفته . فصارت تطلب الرجل بنفسها كما يطلبها ، وصارت لا تستحى من أمور كثيرة قد يتحرج منها بعض الرجال ! فضلا عن خشونتها التى صارت لازمة لها ما دامت تعمل فى

المصنع والمتجر والطريق ، وتعرض للصادمات والمنازعات .

* * *

وماذا كسبت المرأة حين خسرت كل ذلك؟

لست أتحدث هنا عن تصحيح وضعها الإنساني والاجتماعي . . . لسبيين :
الأول : أنه لا يملك إنسان له ضمير أن يعارض في حق المرأة في أن تكون
إنسانة ، وتشعر بكيانها كإنسانة .

والثاني : أن تصحيح وضع المرأة لم يكن يقتضى كل هذا الانحراف الذى
حدث في الغرب . وقد تحدثت في كتاب « الشبهات » ، في فصل « الإسلام والمرأة » ،
عن الطريقة التى رد بها الإسلام إلى المرأة كيانها الإنسانى دون أن تفقد طبيعتها
الأنثوية ، ودون أن يضطرها إلى عرض نفسها في الطريق ، وتحويل الحياة إلى
ماخور كبير كما صنع الغرب بعد تحرير المرأة .

ولكنى أتحدث عن جانب واحد من هذه القضية ، هو محاولة المرأة التشبه
بالرجل لتحدث المساواة .

لقد شاركت المرأة الرجل - كما رأينا - في بعض رذائل الفطرية ، وبعض
طبائعه التى لا تعد عيبا فيه ولكنها عيب حين توجد في امرأة ، كالخشونة والغلظ
والاقتحام في غير ضرورة -

فهل شاركته مشاركة حقيقية في فضائله ومزاياه الفطرية ؟

إن للرجل عبقريتين رئيسيتين في الحياة ، أو هي عبقرية واحدة ذات وجهتين :
عبقرية الإنتاج المادى ، وعبقرية السياسة : سياسة المجتمع ووضع نظمته وإدارة
شؤنه السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وذلك في مقابل عبقريتين رئيسيتين
للمرأة ، أو هي عبقرية واحدة ذات شعبتين : عبقرية الأمومة - أى الإنتاج
البشرى - وعبقرية إدارة البيت وحل تبعاته الضخام .

وحين تخلت المرأة عن كيانها الأصيل ، وعن عبقريتها الحقيقية أرادت أن

تشارك الرجل في عبقريته . فلأى شئ وصلت في هذا السبيل ؟
أما الإنتاج المادى فقد يخيّل للناس أن المرأة لم تشارك فقط ، بل برعت وبرزت
الرجل في ميدان الإنتاج . لماذا ؟ لأن المرأة تعمل على بعض الآلات الدقيقة أبرع
بما يعمل الرجل ، وهى كذلك أصبر في العمل عليها من الرجل . كما أنها في روسيا
وغيرها من البلاد تعمل في معظم المصانع مع الرجل جنباً إلى جنب بلا فارق
سوى الانقطاع في فترات الحمل والإرضاع . . .

وهذه الحقيقة الظاهرية لا يجوز أن نخدعنا عن شيئين مهمين :

الأول أن عملية الإنتاج الحديثة قد صارت آلية ومتخصصة إلى حد أنها لم
تعد تحتاج إلى « إنسان » يديرها ، بل هى فى حاجة إلى « آلة إنسانية » تراقبها
وتزودها بالمادة التى تحولها إلى مصنوعات . وهذه الآلة يستوى أن تكون رجلاً
أو طفلاً أو امرأة ، لأن الإنسان لا يتعامل مع عملية الإنتاج الحديثة بكيانه
الشامل كجنس ، أو كإنسان ، بل يتعامل معها ككيان آلى ، يدق مسامراً ،
أو يضع قضيباً من الحديد ، أو يهرز جزءاً من الآلة على فترات منتظمة . والإنسان
الآلى فى طريقه أن يحل محل الإنسان الحى فى كثير من عمليات الإنتاج .

فليس قوزاً ضحكاً للمرأة كما يتوهم الناس أنها استطاعت أن تشارك فى عملية
الإنتاج الحديث . بل قد يكون صبرها عليها دليلاً سيئاً فى حقها ! فقد تكون
دلالتها أن المرأة أكثر آلية من الرجل ، وأقدر - معاذ الله - على تحويل الحياة إلى
نشاط آلى منظم ورتيب ! لولا أننا نعلم علم اليقين أن فى المرأة من الحيوية الفياضة
ما يخالف هذا الظاهر ، ولكن المرأة الحديثة تريد لنفسها هذا المصير .

والأمر الثانى : أن اشتراك المرأة فى عملية الإنتاج الآلية الحديثة لم يشجعها
كثيراً على الاشتراك فى العملية الحقيقية التى برع فيها الرجل ، وهى اختراع الآلة
التي تنظم الإنتاج . وكلليات الهندسة فى العالم مفتوحة للنساء ، وشعور التحدى
الذى تملك المرأة موجود بصورة حادة فى كثير من أقطار الأرض وخاصة فى

أمريكا. ومع ذلك فعدد الفتيات اللواتي يقبلن على تعلم الهندسة الميكانيكية والهندسة الكهربائية ضئيل جداً بالنسبة لعدد الفتيان. ولا يقال في هذا إن المرأة جديدة على الميدان. فقد كانت جديدة على الميادين كلها في مبدأ الأمر بنسبة واحدة. وهي تعلم - في أمريكا على الأقل - أن المصانع والشركات ترحب بالمرأة أكثر مما ترحب بالرجل، لغاية في نفس يعقوب! فالتشجيع لا ينقصها، والباب ليس موصداً أمامها. فعزوفها إذن له دلالة لا سبيل لإنكارها.

أما عبقرية السياسة : سياسة المجتمع، سياسة الحكم والاقتصاد والسلم والحرب، ووضع النظم والجهاد في سبيل إقرارها... فلعل مشاركة المرأة فيها لا تختلف كثيراً عن اشتراكها في ميدان الإنتاج : أي أنها تشارك في التنفيذ، ولا تشارك في الابتداء.

وليس اشتراك بضع نساء في برلمانات العالم، أو وظائفه الكبرى، أو اشتراكهن في عملية الانتخاب إلا لعبة طريفة يتلهى بها العالم الحديث وليس ذلك هو الذي نعينه.

إن وضع سياسة للمجتمع يحتاج إلى طباع خاصة لا تتوفر كثيراً في المرأة، لأنها بفطرتها لا تحتاج إليها، بل لأنها - حين توجد فيها أحياناً - تهق كيائها العصبي وتحمله فوق طاقته، لأنها ليست من حاجاتها الطبيعية في مهمتها الأصلية.

خذ مثلاً مسألة الجهاد في سبيل فكرة عليا تنظم حياة البشر على الأرض، وتصحح أوضاعهم الفاسدة...

لست أقول إن المرأة عاجزة أو عازفة عن المشاركة فيها. فهذا يخالف الواقع. ولكن المرأة - في الغالب - تشارك بقدر ما يصيبها من جزئيات هذه الفكرة - هي كفرد، أو هي كجنس - ولكنها نادراً ما تشارك في الفكرة ككل شامل يصيبها أو لا يصيبها سواء.

ثم إنها إذا شاركت في الفكرة ككل، فهي تشارك فيها بطبيعتها التي تنجح إلى

طلب النتيجة المباشرة لآى عمل أو فكرة، ولذلك لا تصبر على الفكرة التى لا تتحقق وصاحبها حتى ، لأنها فى حاجة إلى جيل أو أجيال حتى تؤتى ثمارها ؛ وسرعان ما تيبأس وتنفض يدها من الصراع .

وتمت حقيقة هنا لابد أن تسجل : هى أن كثيرا من الرجال كذلك ييأسون وينفضون أيديهم من الصراع .

نعم . ولكن البقية القليلة التى تبقى ، أو الفرد الواحد الذى يبقى ، هو الذى ينشئ الحوادث ويكتب التاريخ !

والذى حدث حتى اليوم أن هذا الفرد كان رجلا ولم يكن امرأة .

حتى جان دارك القديسة الثائرة ، قد نارت لقضية مباشرة هى تحرير شعب . ولكن لم توجد بعد من تؤدي مهمة الرسل والمصلحين ، الذين يبدرون البذرة اليوم لتتحقق غدا وهم فى عالم الخلود .

ولا يقال كذلك إن المرأة جديدة على الميدان ، فإن ذلك لم يمنع العبقريات من الظهور حين وجدت ، كما ظهرت جان دارك على مسرح التاريخ .

وليس معنى ذلك - كما قلت - أن المرأة لا تشارك فى المسائل العامة .

كيف يقال ذلك وفى تاريخ الإسلام نساء كهائشة وأسماء وسمية . . وشهيدات ومقاتلات ؟

كلا ! وإنما أتحدث عن أمر معين : هو عبقرية وضع المناهج والخطط والأفكار لسياسة البشرية .

* * *

لكل جنس إذن عبقرياته الأصلية ورذائله الأصلية . وأنا أحسب كما قلت فى كتاب « الإنسان ، أنها متكافئان ولكنهما ليسا متشابهين . وقد أرادت المرأة أو أريد لها - فى صراعها المجنون مع الرجل فى الغرب - أن تنشئ فلسفة جديدة وتثبت « حقائق » جديدة . .

وهذه - حتى اليوم - هى نتيجة الصراع ! ومع ذلك فأنا على استعداد حين تتغير الحقائق أن أغير الأفكار !

التطور والانشكاس في تاريخ البشرية

كنت في حفل أقامته إحدى مدارس البنات بمناسبة « أعياد الربيع » . . وكان البرنامج كله رقصا . رقصا تقوم به البنات من المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية على المسرح أمام المدعوين من الرجال . أخواتنا وبناتنا يرقصن ورقصا توقيعيا ، أمام جمع من الشباب المتعطش الذي يتابع كل حركة بنهم ، ويكملها في خياله على هواه ، وتتبع عيناه الجائعتان كل حركة وكل ثنية وكل قطعة من اللحم المعروض على المسرح ، ويمد نظراته إلى القليل الذي تستره الملابس ، ينضى عنه غطاءه ويتصوره عريان .

ولكن تحويل المدرسة إلى مرقص لم يرعنى بقدر ما راعنى تعليق رجل من الحاضرين ، إذ قال والحجاسة تملؤه وتفويض منه : « الحقيقة هذا تطور . تطور عظيم . غير منظر . من كان يتصور قبل عشر سنوات فقط أن يتم هذا التطور العظيم ؟ حفلة كهذه تمر بسلام لا في القاهرة أو الاسكندرية بل في إقليم من أقاليم القطر . وفي الصعيد بالذات . لا . هذا تطور . تطور عظيم . رائع ، .

• • •

ما أعظم الخرافة التي يعيش فيها هذا الجيل من البشرية ، وما أفتقع الهوة التي ينحدر إليها . .

الخرافة التي تخيل له أن البشرية تسير في خط تطور دائم . . يرتفع دائما إلى أعلى ، وأن أعلى ما وصلت إليه البشرية هو ما وصلت إليه في هذا الجيل ، لأنه أحدث الأجيال .

والهوة التي ينحدر إليها وهو يظن أن التطور هو الانسلاخ من قيود الأخلاق

والتقاليد ، باعتبارها قيوداً سخيصة من نراث الماضي العتيق ، ينبغي أن ننبذها
و ننتحرر ، منها لزيادة الاستمتاع بالحياة .

* * *

هل صحيح أن البشرية تتطور دائماً إلى أعلى ؟ بجميع خطوطها واتجاهاتها ؟
من أين نشأت هذه الخرافة ؟

لقد نشأت دون شك من تطور البحوث العلمية ، والاتصارات الباهرة التي
حققها العلم والاختراع وخاصة في العصر الحديث .

وهذا الحظ من خطوط البشرية - خط العلم - قد تطور حقاً إلى الأمام
بصورة دائمة منذ فجر التاريخ . ولا عجب في ذلك . فطبيعته ذاتها هي التي تؤدي
إلى هذا التطور الدائم إلى الأمام .

هدف البحث العلمي والاختراع هو تبسير الحياة والتغلب على مصاعب البيئة
أوما يسمونه الصراع مع الطبيعة .

ومنذ طفولة البشرية حاول الإنسان أن يتفهم أسرار الطبيعة ليسيطر عليها
ويسخرها لمصلحته . كان من قبل يظنها آلهة وقوى خفية فراح يسترضيها
ويتعبد لها لئلا تمنحه سلطانها أو تقيمه شرها . وتعلم السحر لنفس الغاية . ثم تعلم
الطبيعة والكيمياء والفلك والرياضيات والطب ، وهو لم يبرأ بعد من السحر ،
فزج بينها وبينه ، فكان العلم كهانة وعلماء في ذات الوقت أيام قدماء المصريين .
ولا ذلك البحث عن حجر الفلاسفة على يد العرب لتحويل المواد كلها إلى ذهب .

ثم سار العلم خطوة على يد أوربا فدخل ميدان التجربة العملية .. ومن هناك
انفتحت أبواب هائلة كانت مغلفة من قبل ، وكأنها يد السحر عادت من جديد .
كل ذلك كان تطوراً إلى الأمام . وكان طبيعياً لاغرابة فيه .

فلنصور الرجل العبقري الذي اخترع المديّة الحجرية في ما قبل التاريخ .. لقد

كانت فتحا هائلا في عالم الاختراع . آلة يستطيع أن يذبح بها الطير ويسلخ الجلد ويقطع اللحم . ومنذ استخدمها الإنسان فلن يرجع عنها إلى الطريقة البدائية التي كان يستخدمها قبل هذا الفتح العلى . . أن يرجع إلى الوراء . قط . فليس من المعقول أن يجد الطريقة المبسرة ثم يعود إلى الطريقة المتعبة ذات الإنتاج الأقل . ومن هنا يسير الكشف العلى دائما إلى الأمام . وتنتشر المخترعات الجديدة ، وتتطور دائما إلى أحسن . وتسير في خط دائم الصعود . لأن البحث يجرى دائما لتحسينها وزيادة الفائدة منها ، والدافع من وراءها موجود دائما مندفع دائما إلى الأمام .

ولكن هذا التقدم الدائم في ميدان العلم قد أعزى العلماء ، بخطأين عظيمين الأول : الاعتقاد بأن جميع الخطوط البشرية تتقدم دائما إلى الأمام شأنها شأن التقدم العلى ، وأن الواقع البشرى قد حقق هذا التقدم ، جنبا إلى جنب مع التقدم العلى أو نتيجة له .
والثاني : الاعتقاد بأن التطور قوة فاهرة ، مستقلة عن كيان الإنسان وإرادته ، تدفعه دائما إلى الأمام رضى أو أبى ، وأنه لا قبل لأحد ، فرد أو جماعة ، بوقف التطور أو الوقوف في سبيله .

* * *

ونبدأ بالفقرة الأولى من المبدأ الأخير ، أن التطور قوة فاهرة مستقلة عن كيان الإنسان وإرادته .

أصحاب هذا رأى هم أصحاب التفسير المادى والتفسير الاقتصادى للتاريخ ، ويجاريهم فيه لفيف من علماء الاجتماع والمحايدين . . وأهم ما يعتمدون عليه لتأييد دعواهم هو الحقيقة الظاهرة للعيان ، وهى أن اختراع أى آلة جديدة يحدث تغييرات كبيرة أو صغيرة في علاقات الناس بعضهم ببعض ، وعلاقتهم بالبيئة (أو بالطبيعة على نطاق واسع) وهذه التغييرات تكيف حياتهم وأفكارهم

ومشاعرهم على نحو جديد لم يكن معروفاً لهم من قبل ، ولا حيلة لهم فيه إلا اتباعه عاجلاً أو آجلاً ، رضوا أو كرهوا .

العالم قبل اختراع البارود غير العالم بعد اختراعه .
والعالم قبل الآلة البخارية غيره بعد هذه الآلة .

والعالم قبل السينما والراديو والتلفزيون شيء آخر غيره بعد هذه الأشياء .
من الناحية الفكرية والخلقية والاقتصادية . الخ .

وإذ كانت الاختراعات تسير بطريقة لا يمكن وقفها ، فالتطور الناشئ منها لا يمكن وقفه ، وهو بالتالي قوة قاهرة خارجة عن إرادة الإنسان .

وحين توضع المسألة بهذه الصورة فهي تبدو منطقية جداً وحقيقية للغاية .
واكنا نترك مؤقتاً مسألة قهر التطور للناس ودفعهم إلى الأمام - حتى نأتى بشواهد من التاريخ - ونبحث في حقيقة هذه القوة التي تسمى التطور ، هل هي مستقلة حقاً عن كيان الناس . أم هي في الواقع جزء من طبيعتهم ..
ونعود إلى حقيقة ذكرناها قبل سطور ...

ما الذي دفع بالعلم قدماً إلى الأمام؟ من الذي اقتحم به أسراراً بعد أسرار؟
أليس هو د رغبة ، البشر في كشف المجهول وتسخير قوى الطبيعة ؟
هل كان العلم قيناً أن يوجد أصلاً ، أو يتقدم خطوة بعد خطوة لولا هذا الدافع الملح في النفس البشرية ؟ الرغبة الدائمة في معرفة الأسرار المجهولة ؟ وعدم الاكتفاء بأى شيء د يعرف ، والسعى دائماً وراء الجديد ؟ أليست هذه الرغبة جزءاً من كيان الإنسان؟ ومنها ينتج التطور العلى الذى ينشئ بدورته في زعمهم - كل التطور الخلقى والفكرى والاجتماعى والاقتصادى؟ فكيف يكون التطور إذن قوة خارجة عن كيان الإنسان وهي كامنة في أعماقه ؟

أما أنها خارجة عن إرادته فقول يمكن أن يفهم على معنى واحد : هو أن الرغبة في معرفة المجهول قوة قاهرة في داخل الكيان البشرى لا حيلة للإنسان فيها ،

لأنها جزء من خلقته ، كالحاجة إلى الطعام والحاجة إلى الجنس . ولكن القول مردود حتى على هذا المعنى الواحد ، لأن الإنسان يتحكم بعقله وإرادته في تلك الحاجات الفطرية التي لا حيلة له فيها ، فينظمها ، ويوجهها الوجهة التي يريد . وبذلك تتحقق إرادته حتى إزاء « القوى القاهرة » في داخل كيانه .

على أنهم حين يقولون هذا القول لا يقصدون هذا المعنى الذي قبلناه من حيث المبدأ ، ورددنا عليه بما يفسره ، وإنما يقصدون أن التطور قوة مستقلة عن الإنسان أصلاً ، ليست خاضعة لوجوده ، وإنما هي كائنة بذاتها ، وهي تؤثر في الإنسان من خارج نفسه ، فتطور به على مدى الأجيال ، وهو قول يحتاج إلى قليل من التعقل ليتبين مدى ما فيه من خرافة يؤمن بها كبار السادة العلماء .

* * *

ونعود إلى المبدأ الأول : أن البشرية تتقدم بجميع خطواتها إلى الأمام ، ولا ترجع أبداً إلى الخلف . وأن الواقع البشرى قد حقق هذا التطور الدائم مع التقدم العلى أو نتيجة له .

الخطأ الأول هنا هو الاعتقاد بأن السكيان النفسى فى مجموعهم يسير مع التقدم العقلى ، المتمثل فى العلم والاختراع .

وبمقتضى هذا الاعتقاد يكون البشر قد تقدموا نفسياً باستمرار مع تقدم العقل والعلم .

أى أن المستوى النفسى للبشرية فى القرن العشرين أرقى مما كان فى القرن التاسع عشر ، وهذا بدوره أرقى مما كان عليه فى القرن الثامن عشر ، والسابع عشر والعاشر . . . والعاشر قبل الميلاد .

أى أن هذه الأحقاد التى تأكل قلب البشرية فى القرن العشرين ؛ هذا الصراع الجبار المدمر المخرب الرهيب المتمثل فى حربين متتاليتين فى ربيع قرن ، والثالثة على الأبواب ؛ هذه الانانية البغيضة والتفكك العاطفى الذى يجعل كل إنسان جزيرة

وحده ، لا يلتقي بالآخرين إلا حيث تكون المنفعة القريبة أو المتاع الحسى . -
هذا هو أرقى ما وصلت إليه البشرية من الناحية النفسية على مدار التاريخ ١١
فن يقول هذا الكلام وفي نفسه ذرة من التعقل ، أو ذرة من الإخلاص
للبحث العلى الصحيح ؟

ولرب قائل ينتفض متحمسا ويقول : لعلك مستحدثنا عن الأديان ودعواتها ،
والفترات التى ارتفع فيها البشر على أيدي الأنبياء والرسل ؟ بربك دع عنك هذه
الخيالات ولعش فى الواقع : البشر هم البشر من لدن آدم إلى اليوم . الصراع هو
الصراع . والبغضاء هى البغضاء والمنفعة هى المنفعة . وما استطاع الرسل والأنبياء
أن يصلحوا إلا أفرادا قلائل - على مدى الأجيال . والباقون على حالهم يخافون
ولا يستحون . تحكمهم بالقوة فيرتدعون ، وتتركهم فيعيشون مفسدين !

ولنقبل هذا القول على علاته !

فأين إذن ذلك التطور المزعوم فى النفس البشرية ؟ أين التقدم الدائم إلى الأمام ،
الذى يسير جنبا إلى جنب مع التطور العلى والاختراع ؟

والعجيب أن من بين المؤمنين بالتقدم الدائم أولئك الذين يقسمون حياة
البشرية إلى مراحل متميزة : هى الشيوعية الأولى ، والرق ، والإقطاع ،
والرأسمالية ثم الشيوعية الثانية . ويقولون إن الشيوعية الأولى - قبل تملك أدوات
الإنتاج - كانت أسعد فترات البشرية وأقربها إلى حياة الملائكة ! لاضغائن ولا
أحقاد ولا صراع . وتعاون وحب وسلام يشمل الجميع ... وأن البشرية انتكست
بعد ذلك حين بدأ اختراع أدوات الإنتاج والصراع عليها . فكيف يتفق هذا
الرأى مع الإيمان بالتطور الدائم إلى الأمام ؟

ألا إنها الخرافة الكبرى ، يؤمن بها السادة من كبار العلماء فى العالم الحديث !

* * *

ومن هذه الخرافة تنبع الخرافة الأخرى التى تقول إننا نتطور خلقيا كذلك

إلى أحسن ، بصورة دائمة ! وإننا ما دمنا في القرن العشرين « متطورين » أكثر مما كنا في القرن التاسع عشر ، والثامن عشر ، والسابع عشر ، والعاشر ، والعاشر قبل الميلاد ، فقد لزم أن تكون أخلاقنا اليوم أرقى مما كنا في الأجيال السابقة . وإذا كانت أخلاقنا اليوم هي التحلل من قيود الأخلاق ، فالتحلل إذن هو التطور ، وهو الرقى وهو التقدم إلى الأمام !

وقد بينا في الفقرة السابقة مدى الزيف الذى تشتمل عليه تلك الخرافة الهائلة التى تزعم أن البشر اليوم أرقى نفسياً عما كانوا فى أى وقت مضى ، ورأينا أن المسألة أوضح من أن تحتاج إلى تعمق فى التفكير . وإنما تحتاج فقط إلى أن يفتح الإنسان عينيه على الواقع ليرى أن المشاعر التى يتبادلها هذا الجيل من البشرية ربما كانت أسوأ ما أحس به البشر على مدار التاريخ !

وإذا انهارت خرافة الرقى النفسى التى تبنى عليها خرافة الرقى الخلقى فى القرن العشرين ، فقد انهارت هذه الخرافة الأخرى ولم تعد تحتاج إلى تدليل . . من ذا الذى يزعم أن هذه الفوضى الجنسية الضاربة أطنابها فى الغرب ، وهذه الأسر المنهارة التى تصل نسبتها فى أمريكا إلى أكثر من ٤٨ ٪ ، والتفكك الذى أصاب فرنسا حين أغرقت فى شهواتها قهوت بها إلى الحضيض . . هو « الرقى » الذى تنشده الإنسانية ، والذى ينبغى أن تسير فيه إلى النهاية ؟

على أننى أريد أن أبين حقيقة أخرى تنفى هذه الخرافة الضخمة من جانب آخر : فمن قال إن هذا « التطور » الخلقى الذى يشهده العالم فى القرن العشرين شيء جديد فى حد ذاته حتى يظن أحد أنه جميل لأنه جديد ، أو أنه راق لأنه جديد ؟ أهو جديد حقاً ؟ أولم تعرفه اليونان القديمة وروما القديمة وفارس القديمة ؟ هو هو بخذافيره . . . اتخاذ الخليلات والخللان « بحرية » ودون انتقاد من المجتمع . وإفراغ الطاقة الجنسية فى صداقات « بريئة » (بريئة واهة !) لإراحة الأعصاب من تحملها . والاختلاط بين الجنسين . والرقص فى الساحات الشعبية

والمواكب والحفلات ، بل في المعابد أيضا . . . والسعى إلى الاستمتاع بالحياة من كل سبيل .

هل من جديد ؟

فأين إذن خرافة التطور بالتجديد ؛ وهذه هي البشرية قبل ما يقرب من ألفي عام تصل في رقيها ، الخلق ، إلى دعارات القرن العشرين ؟
ألا يراجع الناس التاريخ قبل أن يحشوا أفواههم بالألفاظ ورد وسهم بالآوهام ؟

* * *

الخلاصة إذن أن الكيان البشرى لا يتطور كله إلى الأمام . وأن العلم وحده هو الذى يسير للأمام قدما لأن طبيعته تؤدي به إلى هذا الطريق .

أما الكيان النفسى والخلقى فليس حتما أن يتطور مع التقدم العلى . والبرهان هو وقائع التاريخ . وحين يتحدث الواقع فلا مجال لنظريات يصنعها أصحابها ويتحمسون لها بحسن نية أو بسوء نية . واحترام البحث العلى — وهو من ألوان التقدم التى وصل إليها البشر فى العصر الحديث — احترام البحث العلى ذاته هو الذى يدفعنا أن نقر بهذه الحقيقة سواء وافقت ميولنا أم خالفها .

والحقيقة أن البشر فى الناحية النفسية والخلقية لا يسرون على خط مستقيم من التقدم ، وإنما هم دورات من الصعود والهبوط . من التطور والانتكاس على مدار الأجيال .

وكما أن طبيعة البحث العلى هى التى أدت به إلى أن يسير فى خط مستقيم من التقدم ، فإن طبيعة الكيان النفسى للبشر هى التى أدت بهم إلى هذه الدورات الدائمة من التطور والانتكاس .

ونبدأ الدورة من أى جزء فيها ثم نكملها . .

فلنفرض أننا نعيش فى مجتمع منحل . مجتمع مفكك العرى ملوث الأخلاق ..
فما النتيجة ؟ النتيجة التى تكررت فى التاريخ أن هذه الموجة تنتشر حتى تصل إلى آخر

المدى ... حتى تنهار الأمة بكاملها في حرب داخلية أو خارجية . كما حدث لفرانس القديمة واليونان القديمة وروما القديمة .. وكما حدث لفرنسا في العصر الحديث .. التكاليف الشديدة على اللذات يصرف الأمة عن تكاليف الجدى في العمل ، وتكاليف الدفاع عن الكيان فتتهار ...

ثم تؤثر الهزيمة أو الصدمة العنيفة في أعصاب الناس فتفريقهم بمهام فيه . ويحسون أن تكاليفهم على الشهوات هو الذى أحل بهم الضعف والخزى والهزيمة . فتقوم الدعوة لوقف الفساد ورفع الهمم والترابط والتساند وجمع الصفوف المفككة المنهارة . وتظل هذه الدعوة تعمل عملها رويداً رويداً حتى تؤتى ثمارها بمرور الأيام فينشأ جيل فاضل . ولا نقصد أنه خال من الفساد . فإن وجه الأرض لم يخل قط من الفساد والجريمة . وإنما نقصد أن نسبة الفساد فيه هى الصغرى ونسبة الفضيلة هى الغالبة . ويستمر المجتمع على ذلك جيلاً أو أجيالاً حتى ينتعش ويروبو ، ويحس بالاطمئنان إلى كيانه وقوته . . . وعند ذلك يبدأ التحلل . يبدأ به أشد الناس انحلالاً ، والمجتمع كله مستنكر . ثم يسرى الانحلال رويداً رويداً ويخف استنكار المجتمع ، ويرضى بالامر الواقع . ثم يشارك الجميع فى الفساد الذى يصبح هو الدفعة الغالبة . . . إلا أقلية بسيطة تظل متزمتة . . . وهى التى تبدأ منها الدورة التالية الهادقة إلى التماسك والصعود !

وهكذا تدور البشرية فى دورات متوالية من الارتفاع والهبوط ولا تسير فى خط واحد مستقيم !

* * *

ذلك حين يتركون أنفسهم على سجيتهم . ويتركون « التطور » يتحكم فى إرادتهم ولا يتحكمون هم فيه .

وقد قالت أوربا إن التطور قوة قاهرة خارجة عن إرادة البشر مستقلة عن كيانهم ، لأنها تركت نفسها على سجيتهما ، فوجدت نفسها تندفع فى تيار فكرى

وخلقى معين ، كل خطوة فيه تؤدي إلى الخطوة التالية بلا قصد ولا تدبير !
ولكن هذا كان بعد أن ابتعدوا - بإرادتهم - عن الارتباط بالله في صورة
دين وعقيدة .

وحين يقطع الإنسان صلته بالله - فرداً كان هذا الإنسان أو جماعة -
فلا مصير له إلا هذا المصير: «أرأيت من اتخذ إلهه هواه ؟» ، والهوى هو الخضوع
للضرورات : هو المهبوط مع الجيظ الهابط ، وإهمال القدرة على الصعود .

وليس هنا مجال التفصيل للأسباب التي دعت أوروبا إلى التحلل من دينها
والكفر بعقيدتها ، فقد تحدثت عنها في أكثر من موضع في كتاب « الإنسان » ،
وكتاب « الشبهات » . ولكني أقول فقط إنه لم يكن حتماً على أوروبا حين نفرت
من دكتاتورية الكنيسة وبشاعة ما تفرضه على أرواح الناس وعقولهم وأموالهم
من أرزاء ، لم يكن حتماً عليها أن تنسلخ من دينها كله ومن الارتباط بالله . فقد
كانت تملك أن تحطم سلطان الكنيسة لتخلص الدين من قبضتها وترده إلى صفائه
وروحانيته واتصاله المباشر بالله .. وكانت أوروبا تستطيع - لو أرادت - أن تعتنق
الإسلام ، فيخلصها من دكتاتورية الكنيسة ، ويردها في الوقت ذاته إلى الله ،
ويزيل العداوة القائمة في أفكارهم وأرواحهم بين العلم والعقيدة ، وبين العقل
والدين . . . ولكن أوروبا لم تصنع شيئاً من ذلك ، وانسلخت من دينها وعقيدتها
وأخلدت إلى الأرض . . وسارت في طريق « التطور » ، وصعدت في ميدان العلم
والاختراع ، ولكنها هبطت هبوطاً مزمرياً في عالم المشاعر والأخلاق حتى وصلت
إلى درجة من الانحطاط ندر مثلها في التاريخ . فقد كانت نوبات الفساد السابقة
لا يسندها شيء إلا حب الناس للشهوات ورغبتهم في الاستمتاع بالحياة . أما النوبة
الحالية فتسندها نظريات علمية وسيكولوجية زائفة تقرر أن هذا الفساد هو الحق
الذي ينبغي أن يكون .

وأوروبا اليوم في قمة فسادها . أو على الأصح في الدرك الأسفل من الهبوط .

وسيفغر أناس أفواههم في بلاهة ويقولون : وى ! فى عصر الذرة والطائرة
الصاروخية والتليفزيون والمخ الإلكترونى . . وفى عصر التنظيم الآلى للإنتاج
والتنظيم العلى للسياسة والاقتصاد وكل شئون الحياة ؟ العصر الذى يكشف كل
يوم عجيبة ، ويحاول أن يصل إلى القمر ويتصل بالمريخ ؟ !

ونقول لهم : نعم . إنها الحقيقة الواقعة . إن العلم يسير فى خطه المستقيم
صاعدا أبدا نحو القمة . ولكن نفوس البشر تلتوى فى موجات هابطة وصاعدة
بصرف النظر عن التقدم العلى . وهى اليوم فى حضيض الموجة الهابطة كأسوأ
ما يكون عليه الإنسان .

ولكنها تستهدف إلى الصعود !

الدورة الطبيعية التى تحكم الحياة البشرية !

وقد بدأت أمارات قليلة من هذا الصعود تظهر على الأفق . . . ولكنها ضعيفة
ما تزال . فن أمريكا بلد الهوس الجنسى الذى يدعوته الحرية ، والانطلاق
المجنون الذى يدعوته التقدم ، تتعالى صيحات علماء التربية وعلماء الاجتماع وعلماء
السياسة أن أمريكا مشرفة على الخطر إن لم تضع القيود لهذا الهوس المجنون ،
وترتد إلى حظيرة الأخلاق .

وروسيا الملحدة تضطر لآى سبب من الأسباب إلى إباحة التدين .
والبقية تأتى . . .

سترتد البشرية إلى صوابها . ستعود إلى الصعود .

وقد لا نعيش نحن حتى نرى فرنسا الداعرة قد ارتدت متدبنة محافظة ،
ولا أمريكا المجنونة قد صارت إلى النعقل ، ولكن الموجة سائرة فى طريقها
المحتوم . والبشرية لا بد أن تصعد فى مستقبلها القريب ، لا بحكم الزمن والتطور ،
ولكن بحكم الموجة التى أخذت مداها من الهبوط فعادت إلى الارتفاع .

نهاية الشيوعية

الشيوعية في نظر أصحابها هي النظام الأخير للبشرية . . أى أنها النظام النهائي الذى ليس له فى ذاته نهاية !

ومع ذلك فإن الفلسفة الشيوعية ذاتها هي التى تحدد نهاية الشيوعية !
الغذاء والسكن والجنس . . تلك هي المطالب الأساسية كما حددها كارل ماركس فى الإعلان الشيوعى .

والغذاء والسكن والجنس هي الهدف الذى تسعى الحكومات الشيوعية لتحقيقه لمئات الملايين .

وهو هدف ضخم جداً بغير شك وجدير بأن يشغل الحكومات كلها شيوعية كانت أو غير شيوعية .

ولكن نقطة الخلاف بيننا وبين الشيوعيين ، أن هذه الأهداف وحدها لا يجوز أن تكون هي الشغل الأوحد لحكومة من الآدميين . وإلا فلو قامت بين الحيوانات حكومة ، أو لو أن بشرا قام يشرف على تنظيم حياة الحيوان ، فما الذى يمكن أن يسعى لتوفيره له إلا الغذاء والسكن والجنس ؟ فهل يليق بكرامة الآدميين ، وحكومات الآدميين أن تكون مطالبها هي ذاتها مطالب الحيوان ؟ وفيم إذن كان الإنسان إنسانا إذا كنا سنعود به إلى عالم الحيوان ؟

ولا نحب أن نظلمهم ولا أن نتجنى عليهم . فهم لا يرون الحياة البشرية تقف عند هذا الحد فى حقيقة الأمر . ولكنهم مع ذلك يقصرون وظيفة الدولة على ضمان تلك المطالب الرئيسية . ويدعون بقية الأمور تنبت نباتا تلقائيا بعد تنظيم الاقتصاد ، على الأساس الفلسفى الخاطئ الذى يؤمنون به ، وهو أن مجالات الإنسان العليا : من فكر أو فن أو - لا قدر الله - عقيدة ، إنما هي انعكاس

للموضع الاقتصادي القائم ، وليست شيئاً قائماً بذاته ، ناشئاً من جذور إنسانية أصيلة ، شأنها شأن عوامل المادة والاقتصاد .

ولن تغلح الشروح الشيوعية كلها في زحزحتنا عن عقيدتنا الفاسدة ، التي تجعلنا نؤمن أن العناصر الاقتصادية جانب واحد من جوانب الكيان الإنساني الواسع ، وأن هناك في هذا الكيان قima أخرى ليست اقتصادية في جوهرها ، ولا يهذبها إلا توجيه العناية إليها مباشرة ، ومدّها بغذائها الخاص الخارج عن عالم الاقتصاد ، وأن التوزيع الاقتصادي العادل - وحده - لا يغذي هذه القيم الأخرى ولا يهذبها ، وإنما كل ما يصنعه هو أن يهيئ لها جواراً صالحاً للتغذية والتهديب .. فقط ولا يزيد!

لن تغلح الشروح الشيوعية - العلية ١ - كلها في زحزحتنا عن هذه العقيدة الساذجة الفاسدة ، الموروثة من عقلية القرون الوسطى ، لأننا نرى في عالم الواقع لا في الكتب والنظريات حادثتين ضخمتين في العالم الشيوعي ، تكذبان هذه الشروح العلية كلها وتؤيدان ما نذهب إليه من أفكار .
بريا .. وستالين .

اتهم برياً - وأعدم من أجل هذا الاتهام - بأنه يتآمر مع الرأسمالية سرّاً لتقويض أركان الشيوعية . من أجل أن يتمتع هو بالسلطان !

والاتهام لا يخرج عن أحد أمرين . فهو إما صادق وإما كاذب .

فإذا كان صادقاً ، فقد وجد إذن بين الذين تربوا في ظل النظام الشيوعي ، وانطبعوا بانطباعاته كلها ، وجرّت عليهم حتمية التنظيم الاقتصادي التي تقضي بامتناع شهوة السلطان ما دام المجتمع غير طبق ولا يمارس الملكية الفردية .. وجد بين هؤلاء من يضرب بهذه الحتمية عرض الحائط ، ويبرز أمام الناس مثلاً بشعاً للخيانة وعدم الإيمان ، لأن هذه الشهوة النفسية - شهوة السلطان - لم تهذب بكل التنظيمات الاقتصادية ، ولم تنبت حولها الفضيلة نباتاً تلقائياً يغنيها عن توجيه العناية المباشرة إليها ، بغذاء لا يستمد من عالم المادة وعالم الاقتصاد .

غذاء العقيدة . . غذاء الروح .

أو يكون الاتهام كاذباً . . فالأمر سواء !

لقد وجد إذن في العالم الشيوعي المنظم تنظيمًا اقتصاديًا — علياً ! — من تسول له نفسه الكذب ، واتهام الأبرياء وإعدامهم ، وغبة في التخلص منهم ، والتفرد دونهم بالسلطان !

ذلك بعض ما نخلص إليه من الحادث الأول الخطير .

أما ستالين فشأنه أخطر . فقد كتبت عنه الصحف الروسية — لا صحف أعدائه — أنه كان مجرمًا فظا يحكم البلاد بالديكتاتورية والحديد والنار والتجسس ، وأنه كان يعبد شخصه ويسمى لفرض عبادة شخصه على الجماهير !

يا للهول ! وماذا بقي إذن للإسلام مثلاً ؟

معقول أن تقوم هذه الجرائم كلها في ظل نظام فاسد كالإسلام ، لا يقوم على أسس عليية، ويبيع الملكية الفردية، ويبيع نظام الطبقات، ولا يقيم وزناً للبروليتاريا، ويبلغ به التأخر أن يكون قائماً على عقيدة ، وأن يكون منزلاً من عند الله . . . معقول أن يكون في نظام الله كل هذه المفاصل والانحرافات (١) . . أما أن تتوفر كلها ، وبهذه الشناعة في نظام — على ! — فهذا كثير والحق يقال . . . إنه يدعونا إلى مراجعة هذه الدعوى العريضة من أساسها ، دعوى التنظيم الاقتصادي في تهذيب النفوس ونزع شهواتها السكافة ، وتحويل الناس إلى ملائكة مطهرين ! إن تأثير الاقتصاد في المشاعر والأفكار حقيقة أزلية خالدة لا ينكرها عاقل .

ولم يكن ماركس وإنجاز وعلماء القرن التاسع عشر والعشرين هم الذين اكتشفوها وحدهم على مدار الأجيال ، فإن رجلاً متأخراً جداً كعمر بن الخطاب، جاهلاً ، لم يدرس في الجامعة ، ولم يتخصص في علم الاقتصاد أو علم الاجتماع ، بل هو أشد تأخراً من ذلك لأنه يسير حافياً في الصحراء ، وأسوأ من ذلك أنه يؤمن بالله

(١) ردونا على هذه المزاعم كلها في كتاب « شبهات حول الإسلام » .

وبالعقيدة . . رجل بهذا التأخر هو الذى قال لعماله ولاية الأقاليم وهو يشرح لهم أساليب الحكم وحدود معاملة الناس . . . ولا تجيعوهم فتكفروهم ، ا
أدرك هذا الرجل المتأخر أن العقيدة لا تنبت فى المعدة الخاوية . وأنه لا بد من
إعطاء الناس مطالبهم الأساسية من الغذاء والسكن والجنس لكي تقوم العقيدة
فى نفوسهم على استواء .

ولكنه لم يكن مثقفا ثقافة عليية ، فنجا من الهوة الكبرى التى تنحدر إليها
الأفكار المثقفة فى القرن العشرين . ولم يعتقد أن ضمان المطالب الأساسية وحده
— وبطريقة تلقائية — يهذب الطباع ويرفع النفوس ويغنى عن العقيدة . فكان
يرسل للناس — وقد أمّنتهم على مطالب الجسد — من يهذب أرواحهم ويمنحها
غذاءها الحق من نور الله .

ذلك موضع الخلاف الأكبر بيننا نحن المتأخرين وبين الشيوعيين التقدميين .
هم يؤمنون بأن الاقتصاد حقيقة طردية وعكسية . ونحن نؤمن بأنها حقيقة
عكسية خسب . أى أنها حين لا توجد يختل البناء كله من أساسه وينهار (ولا
تجميعوهم فتكفروهم) ولكنها حين توجد لا تؤدى بذاتها إلى الرفعة الروحية
والخلقية والفكرية والإنسانية ، مالم يصحبها تهذيب مباشر غير مستمد من عالم
المادة وعالم الاقتصاد ، بل مستمد من العقيدة وارتباط القلوب بالله (١) .

* * *

ولكننا نتجاوز مؤقتا عن هذا الخلاف الرئيسى بيننا وبين الشيوعيين ،
لنتابعهم فى عالمهم المثقف الرفيع .
الغذاء والسكن والجنس هى المطالب الرئيسية ، وهى همّ الحكومة الشيوعية .
ومضى الزمن قدما . . وتحقق الحلم الشيوعى الأكبر : لكل بحسب حاجته ،
ومن كل بحسب قدرته .

تقدمت وسائل الإنتاج مع تقدم العلم ، وصار في مكنة البشر أن يعملوا ساعات قليلة من النهار ، بأقل جهد ممكن ، ويحصلوا على قدر كبير من الإنتاج ، يكفي كلا بحسب حاجته . .

ثم . . . ١٩

إن الشيوعيين لن يؤخذوا بهذا السؤال على غرة . فهم قوم مثقفون على أسس علمية . ولم يفتهم أن يبحثوا هذا الأمر . إن الشيوعية لن تنتهى حينئذ كما يظن المتأخرون قصار النظر فاسدو العقيدة .

إن هناك امتدادا للحلم الشيوعي الأكبر . .

عندئذ تقوم حكومة عالمية في كل الأرض لتمنع الحرب ، وتمنع التسابق إلى الغلبة والتسلح ، ما دام الإنتاج صار من الجميع بواسطة الجميع .

ثم . . . ٢٠

ومرة أخرى لن يؤخذوا بالسؤال على غرة . فالمادية الجدلية ترقب تاريخ العالم في المستقبل البعيد ، كما يرقب الفلكي بمنظاره أبعاد السكون البعيد . . . عندئذ تنتهى مهمة الحكومة كسلطة آمرة ناهية مدبرة . وأصبح مجرد تنظيم مدنى لتوزيع الخدمات على الملايين .

ويعيش الناس في عالم جميل بطل فيه الصراع وحلت محله المحبة والوفاء إلى إن يأذن العالم بانقضاء . . .

* * *

ولن تبلغ بنا الجرأة أن نبسط ألسنتنا بسوء الأدب في حق هذا «العلم» الذى « يبحث » و « يقرر » وهو كالأغائب فى المملوكات ، أو « المبسوط » من دخان الحشيش والافيون ١ ولن نقول إن الشيوعية الأولى الضاربة فى أطناى التاريخ قبل اكتشاف الزراعة والملكية الفردية لوسائل الإنتاج لم تكن ذلك الحلم الذهبى الساحر الذى تسمى الشيوعية الثانية إلى إعادته ، ولم تكن تخلو من صراع وحشى

بشع على شهوات أخرى غير شهوة السيطرة على وسائل الإنتاج المادى . فقد كان الصراع يقوم بين الرجال أحيانا من أجل امتلاك امرأة — رغم وجود الشيوعية الجنسية — أو يقوم تارة أخرى من أجل رئاسة القبيلة والتفرد بالسلطان ! وإن نقول كذلك إن تجربة الشيوعية فى مهدها الأصيل — روسيا — قد تسكشفت عن نصرين هائلين فى برىا ومساين !

كلا ! لن تبلغ بنا الجرأة وسوء الأدب أن نقول شيئا من هذه الأكاذيب ، ومنصدق ذلك الحلم الساحر الذى دسرح ، فى عقول الشيوعيين ؟
فعل أى أساس هو ؟

على أساس الغذاء والمسكن والإشباع الجنى ؟

على أساس مادية الإنسان وحيوانيته ؟

أم على أساس آخر من النظر إلى الإنسان والحياة ؟ !

فأما إن كان على أساس أن الإشباع الاقتصادى سيؤدى حتما — بطريقة ذاتية أو غير ذاتية — إلى ارتقاء الناس وارتفاعهم ، وتحليقهم فى الآفاق الإنسانية العليا التى أساسها المودة والإخاء والتهديب الخلقى ، والارتفاع عن عالم الضرورة وقيود الأرض . . فقد التقينا إذن على كل ما بيننا من خلاف . التقينا على تحديد الغاية العليا للإنسانية . والتقينا على القول بأن هذه الشيوعية — المادية — التى تحدد المطالب الرئيسية بالغذاء والمسكن والجنس — ليست فكرة أبدية ، ولا نظاما طويل الأمد ، وإن هى إلا فترة انتقال ، تنتهى — كفكرة وفلسفة ونظام — يوم يجد الناس مطالبهم الدنيا ، أى حين يتوفر القدر اللازم من الإنتاج . وتمكون نهاية الشيوعية رهينة بتلك اللحظة التى يستطيع فيها العلم تحقيق هذه الغاية التى أصبحت اليوم قريبا من قريب !

أما إن كان على الأساس الحالى نفسه ، الذى ينظر إلى الإنسان فظرفته إلى الحيوان سواء ، فهنا سوف تفاجأ الشيوعية بالحقيقة الكبرى ، يوم تحقق حلها

الأكبر من زيادة الإنتاج وتوزيعه على الناس باعدل والقسطاس !
سوف تفاجأ بمجوعة الروح بعد أن تشبع الأجسام .
تلك سنة « الطبيعة » التي نسميها نحن المتأخرين سنة الله ، لأننا لا نفهم شيئاً
منطقياً للعدول عن فكرة الله والقول بفكرة الطبيعة .

سنة الله في خلقه أن جوعة الروح تبدأ بعد اكتفاء الجسد ، إن لم تبدأ قبل ذلك .
العصفور حين تمتلئ بطنه بالحب يرفرف بجناحه ويصفر بغمه . . يريد
الانطلاق . حتى في غير موسم الجنس والإكثار .

والإنسان كذلك . حين تكفي مطالب جسده بدرجة معقولة يحس بحنين
آخر . . حنين إلى الانطلاق الانطلاق إلى عوالم أخرى غير عالم الأرض المحدود .
ولن تفلح كل وسائل الوعظ الإلحادي في القضاء على هذه النزعة البشرية ،
لأنها لا تخص البشر وحدهم ، بل هي فطرة الحياة كلها في جميع الأحياء !
ومعقول جداً أن تغرق الروح في ركام المادة حين تجوع الأجساد أو تتحرق
شوقاً إلى الضرورات . « ولا تجيعوهم فتكفروهم » ، ولكنه ليس من المعقول
أن تظل غريقة في ركام المادة حين تشبع الضرورات وتهدأ الحركات .
وسترند الإنسانية حتماً إلى العقيدة . .

سترند إليها في اللحظة التي يتحقق فيها الحلم الشيوعي الأكبر ، إن لم يكن قبل
ذلك بكثير .

سيفيق الإنسان إلى ذاته . إلى عظمته التي طمرت في تراب المادة وأوحال الاقتصاد .
سيفيق إلى أنه طاقة كبرى أوسع بكثير جداً مما أرادت له الشيوعية المادية التي
حددت مطالبه الرئيسية بالغذاء والمسكن والإشباع الجفسي . طاقة تشمل جسمه
وعقله وروحه كلها في كيان .

وعندئذ ستنتهي الشيوعية . ستنتهي لأنها أدت مهمتها . أوصلت الناس
إلى الغاية التي رسمتها لنفسها وحددت بها مطالبها .

أو تتحول إلى نظام آخر . .

نظام يشمل مطالب الجسد ومطالب العقل ومطالب الروح .
نظام يؤمن بالمادة ولكنه لا يخلق بصيرته عما وراء الكون المادى من
أنوار وطاقات .

نظام يؤمن بما ندركه الحواس ، ولكنه لا يغفل ما لا تدركه الحواس .
نظام يجمع الروح والمادة ، ويصل بين الدنيا والآخرة والأرض والسماء .
وذلك هو الإسلام !

وذلك هو النظام الخالد لأنه يتمشى مع كيان الإنسان الخالد . يعرف أنه
جسد وعقل وروح ، فيمده بمطالب الجسد ومطالب العقل ومطالب الروح .
لأنه يتعامل مع الإنسان كله . مع الجوهر الدائم الذى لا يتغير فى حقيقة
الجوهرية مهما تغير الإطار الخارجى من نظام للحكم أو نظام للجمع أو نظام للاقتصاد .
ويعرف حين يتعامل معه أن فيه عنصراً دائماً ثابتاً مقبلاً على الأجيال ،
وجوانب متغيرة متجددة متطورة على الدوام .

فيعطى الجانب الأول العقيدة . . .

ويعطى الجوانب الأخرى نظاماً مرناً فى الحكم والاجتماع والاقتصاد ، يضع
الأسس العريضة ويترك للعقل البشرى أن يجتهد فى حدودها بحسب درجته من
التطور والارتقاء .

ومن ثم لا ينتهى . .

وكيف ينتهى وهو لا يضع نظاماً لفترة معينة أو جيل من الناس . وإنما
يتعامل مع « الإنسان » إلى أن ينتهى الإنسان ؟
ومن أجل ذلك لا تؤمن بالشيوعية وتؤمن بالإسلام !

صناعة بشرية

كنا نتناول الطعام مرة ، وجاءت صحفة من « السلاطة » ، مكونة من خضر . طازجة لا توابل عليها ولا إضافات ، فقال أحد الحاضرين : أنا لا آكل من هذه الصحفة لأنها خضر خامة لم « تصنع » ، بعد !

عندئذ خطر في نفسي هذا الخاطر : إن الناس يرفضون أن يأخذوا شيئاً خاماً بلا صناعة . وأيما خامة وجدوها لم يتركوها على حالها . ولم يألوا جهداً في أن يصنعوا منها أشياء جديدة مختلفة الأشكال والألوان . ويحسون بالزهو الغامر كلما استطاعوا أن يبعدها عن خامتها الأولى ، وكلما استعصى على الناظر أن يكشف أصلها الأول عهد ذلك إنقانا للصناعة وشهادة لها بالتفوق والافتنان .

وقد قضى الإنسان آماداً متطاولة وهو منطقي مع نفسه في هذا الاتجاه فلم يكتف بصناعة المادة ، والابتعاد بها عن أصلها الأول ، وابتداع أشكال متعددة من الخامات الواحدة ، بل مضى على النهج ذاته في صناعة النفوس ! فلم يترك نفسه على خاماتها الأصلية الفطرية ، بل راح يهذبها ويصقلها ، ويخرج من ركامها وترابها ألواناً بدیعة من الصور الرائعة . راح يخرج من شهواتها النافرة ودوافعها الناشئة نماذج رائقة من المشاعر والأفكار متعددة تعدد أنماط البشرية .

وما من شك أن الخطي في صناعة المادة كانت أسرع من الخطي في صناعة النفوس . لأنها أطوع وأسهل ، وأكثر خضوعاً للتشكيل والتنويع . بينما النفوس — لحيويتها — لا تثبت على الوضع المطلوب لها بغير مشقة ، وبغير رعاية دائمة في الليل والنهار .

وما من شك كذلك أن الخطي في صناعة المادة كانت تسير قدماً ولا ترجع ، لأن العنصر المسيطر عليها - وهو العلم - يسير في خط صاعد أبداً ، يضيف كل يوم

جديداً في عالم المادة دون أن يضيع منه القديم ، بينما كانت الخطى في صناعة النفوس تتعثر وتضطرب ، وتصد وتهبط ، لأن مادة النفوس ، لا تثبت على قرار واحد ، ولا تفي تتردد كل هنية أو تشرد عن الطريق .

.. ولكنها كانت تسير على أى حال ! وكانت حين تتعثر وتضطرب تجد من يدعوها إلى العودة إلى الطريق السوى ، وتجد من يندد بانحرافها عن سواء السبيل . ولكن الإنسان في القرن العشرين يرتد في نكسة كبرى ، فينسى منطق وجوده وينسى اتجاهات كيانه ، وروح يسمى هذا التهذيب النفسى والخلقى نقاقا ! وروح يندد بصناعة النفوس ، ويقول : لماذا لا نرتد إلى الفطرة . لماذا لا نترك نفوسنا على «حقيقتها» . لماذا نقيم الحواجز المصطنعة . لماذا لا نعتز بالحقائق البيولوجية ؟ ! وى ! هل النفوس وحدها هى التى ينبغى أن تترك على فطرتها الحامة بلا تصنيع ؟ بل لأنهم لا يقولون ذلك بشأن السكيان النفسى فى مجموعهم .

فتناول الطعام فطرة البشر ، كما هو فطرة جميع الأحياء . . . فكيف يقول لك الأوربي المذهب المتمدين إذا رآك تفرس أصابعك فى اللحم فيسيل دهنه على يدك و «تتلغط» به شفاهاك !

Savage متوحش !

ولأنه ليزجرك ويندد بك . ويقول لك إن الإنسان صنع السكين والشوكة والملعقة «لهذب» ، تناول الطعام . لهذب الفطرة . ليبعدها عن خامتها الأولى إلى ألوان جديدة رائعة زاهية ، تخفى أصلها الأول وتبدو كأنها خلق جديد .

واللباس فطرة . . أو كأنه فطرة . فكيف يقول لك هذا الغربي المذهب المتمدين لو رآك تلبس قطعة من الخيش ، أو ثوبا غير مخيط ؟ متأخر ! لا تفهم الحضارة . لا تفهم أن الإنسان قد تفنن فى صناعة الملابس ، لينشئ «جمالا» زائداً عن مجرد الضرورة ، ولينح الحياة ثروة واتساعا بتنوع النماذج وتعدد الأنماط . وكذلك فى معظم شئون الفطرة ، ومعظم شئون الحياة .

... إلا الجنس ! تلك مشكلة القرن العشرين !

في مسألة الجنس ينسى هذا الغربي المذهب المتبعدين نفسه . ينسى قصة الصقل
والتهذيب ، ينسى قصة الجمال الزائد عن الضرورة . ينسى أنه لا يترك شيئاً في الوجود
كله على حاله الأصلية الفطرية . ينسى أنه يتناول الحامات كلها بالتحوير والصناعة .
ينسى الملعقة والشوكة والسكين . ينسى أنواع الملابس المختلفة . ويقول لك في تهيج:
الجنس مسألة بيولوجية فلماذا نخلطها بالأخلاق ؟ لماذا لا نترك نفوسنا على سجيتها ؟
لماذا لا نعود إلى الفطرة ؟

وى !

ولماذا يكون الإنسان وحشاً إذا غرس يده في اللحم ؟ وقذراً متأخراً
إذا غلط في يده أو قضى حاجته في الطريق ؟

ولماذا تنفرون منه وتتقزز نفوسكم ؟ أليس على الفطرة ؟ أليس على سجيته
بلا تصنع ولا صناعة ؟

كان المنطق يقضى أن نعود بكياننا النفسى كله إلى الغاب أو إلى ظلمة الكهوف .
هناك نكون منطقيين مع أنفسنا حين نعتبر الجنس مسألة بيولوجية لا ينبغي
خلطها بالأخلاق ، ولا يفرض عليها التهذيب . ونتعري كذلك من لباسنا ،
ونفوس أديتنا في اللحم ، ونقضى حاجتنا بلا تحرز ولا ستار .

ونترك كل صناعة البشرية . سواء في عالم المادة أو عالم النفوس .
أما أن نقشبك بالحضارة والمدنية ، ونتنفج في لباسنا وطعامنا ومسكننا
وحديثنا وتفكيرنا وتفلسفنا . ونسير على ذلك في كل أمورنا ، ثم نقف فجأة
بلا مقدمات ولا منطق ، ونلقى عن أنفسنا كل ذلك ، ونقف عرايا لا يستر
نفوسنا شيء . نقنحم عالم الجنس نقول : فلنكن على الفطرة . . ذلك خبل
لا يقدم عليه إنسان في رأسه عقل !

ومع ذلك يقدم عليه سادة ، علماء ، محترمون !

علماء في النفس وعلماء في الاجتماع وعلماء فيما لا أدري من ألوان الشرور !
علماء يتحدثون عن الكبت ، وعلماء يتحدثون عن التطور ، وعلماء يتحدثون
عن رجعية الأخلاق والأديان !

وكلهم يدعون الناس أن يعرفوا مشاعرهم الجنسية ويرتدوا بها إلى فطرتها ..
ويسمونہ التقدم . . . !

والصقل والتهديب ، والابتعاد عن الخامة النافرة الناشئة ، والجمال الزائد
عن الضرورة . . . اسمه الرجعية !

حين نحاول تنظيف الجنس من أن يكون كله متاع الجسد الملهوف . حين
نستخلص من طاقته الضخمة أفكارا ومشاعر ترتفع عن عالم الضرورة وقيودها
القاهرة ، لكي تصبح فنونا طليقة ، وعواطف خب ، ورباط أسرة ، ومشاعر
أبوة وأمومة . . حينذاك نكون رجعيين متأخرين غير متطورين .

وحين نفتتح عالم الجنس عرايا النفوس ، وأحيانا عرايا الأجساد ،
على الشرايط المعرّم عليها اللحم ، وفي السينات الداعرة والصحافة العارية
والصور المكشوفة ، ومقابلات الشبان والفتيات بإذن المجتمع أو بغير إذنه .
فكون متحضرين متحررين من القيود .

ولا يرى الإنسان بذلك أنه ناقض كيانه ، وانحرف عن منطق وجوده .

ولا يرى أنه منافق مخادع وهو يزعم لنفسه المدنية والتحضر .

بل يزيد تبججه فيقول إن «العلم» هو الذي يأمر بهذه الممجية الضالة المرادة
إلى وحشية الغابة وظلمة الكهوف .

- ويزعم الإنسان كذلك أنه تحرر إلى الأبد من وصاية الله عليه . لأنه شب
عن الطوق . وتسلم زمام نفسه ، وصار يكتب بنفسه لنفسه المصير .
لا جرم إذن يكون مصيره المحتوم هو الهاوية في آخر الطريق !

القيود والحُرّة

لماذا لا ننطلق من القيود ؟ ١

لماذا نعيش في الأغلال ، ونفسد على أنفسنا الاستمتاع بالحياة ؟

الفضيلة ؟ القيم العليا ؟ التسامى عن دفعة الغريزة ؟ ؟

ماذا يساوى ذلك كله ؟ ماذا يساوى إذا وضعنا في الكفة الأخرى تلك

القيمة الكبرى التي لا يعدلها شيء ولا توزن بشيء . . . الحرية . . .

حرية السلوك . . حرية التصرف . . حرية التفكير . . حرية الحياة . . الحرية !!

هل يمكن أن يوجد في الحياة شيء أضمن من الحرية ؟ ألم يكن جهاد الإنسان منذ

بُحر التاريخ إلى اليوم في سبيل التحرر والاطلاق ؟ ولقد حطم القيود واحداً أثار

واحد ، في عالم المادة وعالم الفسك ، في عالم الاقتصاد وعالم السياسة ، ولم يبق

إلا تلك التقاليد البالية التي يسمونها الفضيلة أو يسمونها الأخلاق . وهي قيد من

القيود العتيقة التي تحطمت تباعاً إزاء عناد الإنسان وإصراره على تحقيق ذاتيته . .

وستحطم تلك البقية البالية دون شك ما دام الإنسان مصراً على المضى في جهاده

النبيل نحو التحرر . . نحو الاكتمال . . نحو السيطرة على الوجود كله . . نحو

الترفع على عرش الكون . . ليصبح كما ينبغي له : القوة الفعالة في هذا الوجود !

* * *

تلك عقيدة القرن العشرين . . عقيدة أوربا والعالم الذي غلبت أوربا عليه .

يستوى في ذلك الشرق والغرب والشمال والجنوب . وهي عقيدة منطقية مع

أوربا ، ومع ظروفها التاريخية وخاصة في القرون الثلاثة الأخيرة .

ولكنها ليست عقيدة الحياة ، ولا العقيدة التي تتمشى مع الكيان الحقيقي للإنسان .

وهذا المنطق المغرّى . . منطق التحرر من القيود كلها لتحقيق أسى ما في الكيان

الإنسان من عناصر . . هذا المنطق ليس منطق الحقيقة !

والغرب اليوم في انطلاقة المجنون لا يتلبث ليرى الحقيقة .
إن الذى تلسعه النار ، يجرى . . يجرى كالمجنون لا يهمنه إلا أن يتبعه عن
مصدر الحريق ، ولا يتلبث خشية أن يقع فى الهاوية وهو يجرى كالمجنون !
أما السليم الذى يندفع كالملسوع . . ويرى الهاوية ثم يقع فيها . . فهذا هو
المجنون حقاً دون مبرر للمجنون .
والشرق الإسلامى اليوم هو المجنون الذى يندفع للهاوية . . بينما الغرب ذاته
قد أخذ يحاول أن يمسك للجام !

* * *

ينطلق الإنسان وراء رغباته الجاحشة ؛ كلما دبت رغبة أطلق لها العنان .
. . ويظن أنه متحرر من القيود ! متحرر لأنه لا يطيع خلقاً ولا ديناً
ولا عقيدة ولا قيماً واحداً من القيود المفروضة على السلوك .
ولا أريد هنا أن أناقش خرافة الحرية ، فى القرن العشرين ، وهو القرن
الذى شهد فى أوروبا خاصة أفضع دكتاتوريات التاريخ فى السياسة والاقتصاد ، والذى
يستعبد الفرد للدولة ، باسم التحرر من الجوع والصراع الطبقي ! ولا خرافة التحرر
من الخوف ، والعالم يعيش فى أسوأ فترة من الفزع والاضطراب مرت به منذ
نجر التاريخ . ولا خرافة السيطرة على قوى الكون ، والإنسان فى سبيل أن يدمر
حياته بنفسه ، بالصواريخ الموجهة والقنابل الذرية ، قبل أن تتم له السيطرة على
قوى الكوكب الضئيل الذى يعيش فيه ، فضلاً عن الكون الواسع العريض !
لن أناقش هنا هذه الخرافة . .
واسكنى فقط أناقش الخرافة الأخرى .. خرافة الشعور بالحرية حين ينفلت
الإنسان من قيود الأخلاق .
انظر إلى هذا الفتى المملوء بالقوة والحيوية . . وهذه الفتاة المتوفزة التى ينطلق
من جوارحها نداء الحياة .
لقد أحس بالرغبة فيها . . رغبة طبيعية . . رغبة الحياة وأحست كذلك بالرغبة فيه .

وانطلقت رغبتان متجاوبتان فأطاعتا هاتف الجنس ، وحققا كل منهما
كيانها متحررتين من القيود !

وهذا شخص آخر لا يشاركهما فيما ينطلقان إليه من « تحرر » ..
لا يشاركهما عن عقيدة . أو لا يشاركهما لأنه لا يجد « الآن » رغبة في هذا
اللون من المتاع . أو لا يشاركهما لأنه لا يجد السبيل !
لا يعني ! المهم أنه متفرج يسجل ما يرى أمامه من الأحداث .. فما الذى
يراه ؟ إنه يرى صورة أخرى لا يراها الفتى ولا الفتاة !

إنه يرى الحبل الممدود الذى ينجر منه الفتى وتنجر منه الفتاة ! حبل الشهوة .
حبل الرغبة الجامحة التى انقاد لها كل منهما بلا وعى . حبل غليظ لا يملك كل
منهما الفكك منه ، لأن قوتها ضئيلة بالقياس إليه ، أو لأنهما لا يقاومان !
هذا الحبل لا يراه الفتى لأنه بالنسبة إليه كالمغناطيسية قوة غير منظورة ،
يندفع إليها طائماً مختاراً لأنه هو الذى يريد ! ويراه الشخص المتفرج غليظاً
مجسماً ، لأنه بعيد - أو مبسّعد - عن مجاله ، فهو غير متأثر به ، ولذلك يراه !
أى الوجهين هو الحقيقة ؟

ثم نقلب الصورة ...

هذا فتى يواجه الإغراء بقلب رابط وقوة ضابطة . يراه وينصرف عنه .
ويوجه طاقته الفائرة فى مجال جديد . ويحس أنه « متحرر » ! متحرر من ضغط
الشهوة . متحرر من الانقياد لهذا الحبل الذى يخزم الأنوف فتتقاد ، متحرر
من إطاعة هذا الهاتف . متحرر يتوجه بطاقته حيث يريد !

وهذا شخص آخر يتفرج من بعيد دون أن يشارك هذا الفتى عقيدته ...
فما الذى يراه ؟ إنه يرى صورة أخرى لا يراها هذا الفتى « المتحرر » ..

إنه يرى القيد مجسماً غليظاً . يرى الحبل الذى يكتف هذا الفتى فيمنعه
من الحركة ويخرج عن الانطلاق . هذا الحبل الذى لا يراه الفتى ، لأنه يحس أنه

قيّد نفسه باختياريه . . هو الذى يريد ذلك . لبس الحبل هو الذى يمنعه من إجابة الهاتف ، ولكنه هو يتجه بعيداً عنه لأنه لا يريد .

أى الوجهين هو الحقيقة؟ لا أريد أن أثير القارىء بين الوجهين المتناقضين . سأريجه . . سأقول له : إن كلا الوجهين هو الحقيقة !

القيد والحرية . . حقيقتان متجاورتان . بل حقيقة واحدة ذات صورتين ! هذا الفتى الجامع الذى أطاع هائف الجنس قد تحرر . . تحرر من قيود الأخلاق والدين والمجتمع ، وفك كل ضوابط الإنسانية . . وهو فى الوقت ذاته قد انقاد للشهوة الجامحة بهذا الحبل المخزوم فى أنفه ، لأنه - بالتجربة العملية - لا يستطيع أن يقاوم إغراءها . . وليجرب إذا أراد !

وهذا الفتى الرابط مقيد بقيد غليظ : هو الميثاق الغليظ الذى أخذه على نفسه مع الله ، فهو لا يريد الفكك منه ، وكلما توغلت فى نفسه العقيدة أصبح لا يملك الفكك . وهو فى الوقت ذاته متحرر من قيود الضرورة ، يحس بحرية حقيقية إزاء الدوافع الملحة ، وينطلق بطاقته إلى آفاق وضيئة من النور .

حرية إزاءها قيد . . وقيد إزاءه حرية . هذه هى الحقيقة البشرية . ليس القيد فى كفة وفى الكفة الأخرى الحرية . . وإنما كل حرية لها قيودها ، وكل قيد له حرياته . وفى كل من الكفتين حريات وقيود .

والمفاضلة فى واقعها ليست كما تضعها أوربا والعالم الذى غلبت أوربا عليه . ليست مفاضلة بين القيد والحرية . وإنما هى مفاضلة بين قيد وقيد ، وحرية وحرية . وهى فى حقيقتها المفاضلة بين حرية الإنسان وحرية الحيوان ، مقابل التقيد بقيود الإنسان أو التقيد بقيود الحيوان . . .

وقيود الإنسان اسمها الفضيلة أو اسمها العقيدة .

وقيود الحيوان اسمها الغريزة أو اسمها الشهوة . . أو اسمها المتاع الغليظ .

والإنسان حر بعدئذ فى أن يظل إنساناً أو يعود إلى حظيرة الحيوان !

الحقيقة؟!

أيهما الحقيقة ؟

نظرت مرة من مبنى المجمع العالى قرأيت «الكوبرى» . كوبرى قصر النيل .
نظرت لى هذا الخاطر : أهذا هو الكوبرى الضخم الذى أمر عليه وأشاهد طوله
واتساعه وحركة المرور الدائبة التى تمر عليه ؟ أهذا هو ذلك الشريط الضيق
المعلق فى الفضاء فوق النيل على دعائمه الصغيرة المتواضعة ؟

أيهما حقيقة الكوبرى ؟ أهى التى أراها الآن ، إذ أراه كله وحدة متكاملة
وأرى على جوانبه رقعة من الفضاء ، ولكنى أراه بالنسبة للرقعة الواسعة شيئاً
صغيراً محدود الآماد ؟ أم حقيقته هى تلك التى أراها وأنا عنده إذ أراه ضيقاً
يمتد الأبعاد ، لا أكاد أرى شيئاً غيره ، بل لا أراه هو إلا أجزاء تلو أجزاء ؟

تقول إن النظرة الثانية هى الحق لأنها ترى الواقع كما هو من قريب ؟
نعم . ولكننا نظرة جزئية لا ندرك الكل ، ولا ترى النسبة بين الأبعاد
على حقيقتها . والأولى هى التى تمكننى من رؤية حقيقة الكوبرى بالنسبة البناء
والشاطئين وبقية الفراغ !

أيهما أصدق ؟ النظرة الجزئية التى تكبر الأجزاء وترى كل تفصيلاتها ،
أم النظرة الكلية الشاملة التى تحدد أبعاد الأشياء كلها بالنسبة بعضها لبعض ،
ولكنها تهمل الجزئيات أو تضغطها فلا تكاد تبين ؟

أى النظرتين ترى الحقيقة ؟ أم إنها لا هذه ولا تلك ، وإنما هى نسب مختلفة
تبدولى بحسب موقعى من المكان ؟

أيهما الحقيقة ؟

هذه الفتاة الفاتنة التي تسلب اللب ، ولا يملك الفتى إزاءها نفسه ، يراها فلا يكاد يشبع من النظر إليها . كل شيء فيها فتنة . وجهها الساحر . عيناها المشرقتان . شفهاها الممثلتان بالحيوية والنداء . حركاتها . لفتاتها . ضحكاتها . بساطتها . تعبيرات وجهها المتباينة المتلاحقة . النور الذي يشع من كيانها كله ، والنار المتأججة من حولها . .

هل هذه هي حقيقةها؟ أم هي تلك الفتاة العادية التي يراها الفتى ذاته حين تهدأ الرغبة ويستقر الشواظ ؟ فتاة كسكل النساء . يا لها من متصنعة . ما هذه الحركات التي لا مبرر لها ولا ضرورة . ما هذا الثقل الظاهر في روحها إذ تحاول أن تلفت نظره إليها وهو لا يريد ؟

تقول إن الصورة الثانية هي الحقيقة لأنه يراها بلا هوى ولا تحيز ، ولكن الأولى كاذبة لأنه يراها بعين الرغبة المجنونة ؟

نعم . ولكن هذه الرغبة ذاتها : أليست حقيقة ؟

تريد أن تتأكد ؟ انظر إلى صورتها في نفسه مرة أخرى حين تعود الرغبة ذاتها من جديد ! حينئذ تختفي « الحقيقة » التي رآها بعينه الباردة مرة ، وتظهر « الحقيقة » الأخرى التي يراها بعين الرغبة والاشتعال .

أي الصورتين هي الحقيقة ؟ أم إنها لا هذه ولا تلك ، وإنما هي انعكاسات مختلفة بحسب مشاعره من الصورة ؟

* * *

أيهما الحقيقة ؟

هذا الرجل الذي تراه لأول وهلة فتستثقل ظله ، وترى عيوبه بارزة نافرة منفرة ؟

أم هو حين تألفه وتأنس إليه ، وترى لطف روحه ومزاياه التي لم ترها لحظة النفور ؟

تقول إن الثانية هي الحقيقة ، لأنك لم تأنس إليه إلا حين اكتشفت - على مهل وروية - أنك مخطيء في تقديرك الأول ، وأن هناك مزايا كانت خافية للنظرة الأولى ؟

نعم . ولكن انتظر حتى تبرد موجة هذا الحب ، وتنصرف عنه لآمر من الأمور

* * *

أيها الحقيقة ؟

هذا المنظر الذي تبصره العين لأول مرة ويتفتح له الوجدان ، فإذا كل شيء فيه سحر ، وكل معنى فيه جميل . يخفق له القلب كما تخفق العين ، وترف حوله الخواطر ، ويضطرب الوجدان بشق الأحاسيس ، وتهتز أوتار النفس كلها في امتزاج كامل بهذه التجربة الحية . . .

أم ذلك المنظر ذاته حين تألفه العين وتألفه النفس ، فيفقد حرارته ، ويمر عليه الإنسان دون اكتراث ؟

تقول إن النظرة الثانية هي الحقيقة ، لأنها بريئة من بهرة السحر واضطراب الوجدان ، فهي لذلك ترى الحقيقة بلا زيادة ؟

نعم . ولكنها تفقد كل جمالها وكل تأثيرها . تراها العين وحدها ولكن لا تبصرها النفس ، والقلب لا يتفتح لها ، والوجدان لا يستجيب . . فكأنها غير موجودة بالنسبة إليه . .

أيها إذن هي الحقيقة ؟ أم إنها لا هذه وتلك ، وإنما هي استجابات شتى وتأثرات مختلفة ؟

* * *

أيهما الحقيقة ؟

هذه الفكرة التي تملأ نفسى وتملك على مشاعرى ، وأرى أنها الحق كل الحق ،
والخير كل الخير ، وأن مصيرى كله معلق بتنفيذها ، ولا حياة لى سواها . .

أم الفكرة الجديدة التي نبتت فى نفسى بعد عشر سنوات ، فاستهجننت
بها الفكرة الأولى ، وسخرت من نفسى إذ كنت أتعلق بالضلالات والأوهام ،
وأعتقد أنها حقيقة ؟

تقول إنها الثانية ، لأن عشرة أعوام من التجارب قد زودتنى بالقدرة
على الحكم وحسن التقدير ؟

نعم قد يكون ذلك . ولكن كيف الحال وقد تعود إلى - لأسباب خارجة
عن حسابى - وفرة حارة من وفزات الشباب ، فاستهجن أفكارى الحكيمة
المتتدة ، وأستصوب من جديد ما كنت أستصوبه قبل عشر سنوات ؟

أيهما إذن هو الحقيقة ؟ وكيف الحكم وأنا ذاتى أمتلىء بالفكرة إلى حد
التشبع ، ثم أعود فأراها غير ذات موضوع ؟

* * *

ومع ذلك يركب الإنسان رأسه ، ويتشبث بما يعتقد أنه « الحقيقة » ،
ويزعم لنفسه بصرا بالأشياء لا يخطئ . ، ولا يأتية الباطل من بين يديه
ولا من خلفه !

ما الحقيقة الواحدة التي ثبتت عندها الإنسانية ؟ ذلك تاريخها كله : تحبب
من اليمين إلى الشمال ، ومن الشمال إلى اليمين ، وإيمان جازم فى كلتا الحالتين
أنها ترى الحق وتصنع الصواب !

حتى حقائق العلم ، المفروض فيها أن تثبت لأنها لا تتأثر بمواقف البشر

وانفعالاتهم ، حتى هذه الحقائق تتغير ، وتتغير معها نظرة العلماء إلى الكون والحياة والأشياء !

* * *

هناك حقيقة كبرى وصل لاينشتين إلى طرف منها ، وامكن روحه الجاحدة أبت أن تمضى معها إلى نهايتها .

كل الأشياء في هذا الكون نسبية : الزمان نسبي والمكان نسبي والحقائق نسبية . تلك قضية لا تنطبق على الكون المادى وحده ، ولكنها تشمل كذلك حياة البشر وأفكارهم ومشاعرهم . .

وثبت حقيقة واحدة مطلقة في هذا الكون العريض . هي الله .
الله وحده هو الحقيقة المطلقة ، لأن الحقائق النسبية كلها تنتهى إليه .
تنتهى إليه انتهاء مطلقا لأنه هو خالقها ، بينما لا ينتهى بعضها إلى بعض إلا بالنسبة ، التى قدرها الخالق بين بعضها وبعض .
والله وحده هو الذى ينبغى أن يعبد ويطاع ، لأنه الحقيقة الوحيدة الثابتة في هذا الكون .

وكلية الله هي العليا . . .

وحين يشرح لنا الله في الأرض ، فهو وحده الذى يرى الأشياء على إطلاقها ، ويقدرها بالنسبة لنا . بينما نحن لا نرى من الأشياء إلا زوايا مختلفة ، تختلف حين يتغير الموقف أو الشعور !

ولكن الإنسان يركب رأسه ، ويرفض أن يطيع الله ، ويزعم أن بصره بالأشياء أصدق من بصر خالقه ، لأنه شب عن الطوق ، وتكشفت له حقائق ، الأشياء !

فتى يثوب إلى رشده ، ويرى الحقيقة الواحدة المطلقة ، التى تحدد له موقفه الحق من الأشياء ؟

الطريق إلى الله

هل أحسست مرة وأنت تقدم مساعدة لشخص لا تعرفه ، فتقبله من عثرة ، أو ترفع له حملاً لا يقوى على رفعه ، أو تناوله شيئاً لا تناله يده ، أو تدله على حل لإحدى مشكلاته ، أو تقوم له بعمل هو في حاجة إليه . . هل أحسست بالخفة تملأ نفسك ، فتكاد تحمل جسمك حملاً في الهواء ؟ هل أحسست روحك ترفرف عالية مستبشرة ، ونشوة خفية تملأ جناحك ؟
إنها الطريق إلى الله . .

* * *

هل استأت مرة من صديق ، لأنه يقوم بعمل يؤذيك أو يتسبب في مضايقتك ؟ هل صمت أن تقاطعه فلا تكلمه بعد ذلك أبداً ؟ هل جمعت أمرك أن تلقها في وجهه كلمة قاطعة : لست صاحبي ولا أعرفك منذ اليوم ؟
ثم رددت نفسك في اللحظة الأخيرة وقلت : إنه بشر ، وكل البشر يخطئون . وأنا أيضاً أخطئ . أحياناً بغير قصد ، ثم يتبين لي ما أخطأت ؟ . . وهل أقبلت على صديقك تكلمه كأنه لم يسيء إليك ، بل تكلمه مقبلاً عليه وقد أعطيته نفسك وقلبك . . حقاً لا رياء . . حقاً ينبع من أعماق نفسك ؟
إنها الطريق إلى الله . .

* * *

هل أحسست نحو إنسان أنك تحبه ؟ تحبه ولست في حاجة إليه ولا تنتظر نفعا على يديه ؟ تحبه بلا ضغينة له في نفسك ولا غيرة ولا حقد ؟ تحبه فلا تقيس نفسك - سراً - إليه وتقول : ألم أكن أولى منه بما هو فيه ؟ تحبه فلا تحسده على مزاياء ومواهبه بل تحبها كأنها هي ملسك ، وتتمنى له المزيد ؟ تحبه فتجذب

إليه كما يجذب المغنطيس ، وتسرى روحك على موجات الجاذبية خفيفة مرفقة
نشوانة كالفراشة التي ترفرف للنور ؟
لأنها الطريق إلى الله . .

* * *

هل فتنتك هذه الفتاة المشوقة الساحرة النظرات ؟ هل أحسست رعشة
في كيانك وهزة في فؤادك ؟ هل اضطربت نفسك كلها كما تتحرك الرواسب الحامدة
في الماء الرائق فإذا كله قد اضطرب وماج ؛ نيارات صاعدة هابطة ، وذرات تذهب
وتجىء . والماء الرائق صار مختلط اللون قد امتلأ بالعكار ، ؟
ثم هل قد ذكرت أنها ليست لك ؟ وأنه ليس لك أن تتبعها بخطواتك أو
بنظراتك أو بمشاعرك ؟ هل أحسست - رغم الرغبة الجارحة التي تكاد تنزعك
من إطارك وتفلك بك من نفسك - أنك متنازل عنها . . عن الشهوة والفتاة ،
وأنت تسترد أنفاسك اللاهثة وخفقاتك المضطربة . . وتهدأ وتطمئن ؟
لأنها الطريق إلى الله . .

* * *

هل صفت نفسك في نور القمر ؟ هل سرحت طرفك في هذا الكون الحالم
الغارق في الضياء ؟ هل نسيت نفسك . وأحسست بالحواجر بينك وبين الكون
تذابوب وتختفي رويداً رويداً حتى إذا أنت جزء من العالم الواسع الفسيح ،
وهو خاطرة تملأ فؤادك ؟ هل نسيت أحقادك وضفائلك وما بينك وبين الناس
من صراع وتضارب ، وأحسست أنك والناس جميعاً ذرات خفيفة هائمة
في المسكوت ، لا ينبغي أن تتصادم - فالكون فسيح - بل ينبغي أن يخل بعضها
الطريق لبعض ، وأن تتجاذب لتسبح معاً منسابة في النور ؟ هل أحسست أنك
طليق كهذا الشعاع السارب في الفضاء ينقل بسمة القمر الحالم إلى وجه الأرض ؟

طليق من السلاسل التي تقيدك بالأرض ، طليق من شهواتك الجامحة ورغباتك
المجنونة ، ونوازع الشر الحبيسة ؟
لإنها الطريق إلى الله . .

* * *

هل أحسست بتلك القروش التي في جيبك كأنها ليست لك ؟ هل انقطعت
السلسلة المثينة التي تشدك إليها وتشدها إليك ؟ هل بطل الجذب العنيف الذي يربط
كلا منكبا بالآخر ؟ هل أحسست بدلا من ذلك أن يدك تعبت بها لتخرجها من
مكمنها ، نشوانة بما تفعل ، طليقة من الشح ، نشيطة إلى العطاء ؟ هل دسستها بعد
ذلك في يد فلان من الناس وانطلقت نشيط الخطوات خفيف الروح ، كأبك تخلصت
من ثقله كانت تشدك إلى الأرض ؟
لإنها الطريق إلى الله . .

* * *

هل أحسست بالآلم يعتصر قوادك ؟ ألم من كل نوع . . آلام شتى . كلها مؤلم
وكلها شديد . . هل أحسست أنك تنهارى تحت وطأتها وأنت لا تستطيع احتمالها ؟
هل أحسست وخزها يدفعك إلى الصياح . . إلى التأوه . . إلى الانفطار . . إلى
انهيار الأعصاب وانهيار السلطان على النفس ؟
ثم هل تمالكك نفسك رغم هذا ، وقلت تؤسى نفسك وتجمع شتاتها
تصبرها . . فليكن ذلك في سبيل الله ؟
لإنها الطريق إلى الله ؟

* * *

هل أحسست برغبة تدفعك إلى العبادة ؟ رغبة ملحة تقيمك وتقعديك ، ولا تجد
واحتها إلا ابتها لا إلى الله ، واستسلاما لله ؟ وهل خشعت نفسك وأنت تلبى هذا

الهاق الذي يدفعك إلى الله ، واهتز وجدانك وشعرت بالقشعريرة تسرى في
كيانك ؟ هل أحسست أنك لست في عالم الأرض . لست في تلك البقعة التي يحددها
الزمان والمكان المعلوم . وأنت لست أنت هذه الوشائج والعضلات والعظام .
ولنما أنت أمام الله ومع الله . وأنت كيان لا حدود له ولا رسم ، لأنك روح
تقبس من روح الله ؟

لأنها الطريق إلى الله . .

* * *

هل أحسست الشرح في الأرض ؟ هل أحسست بهزة الغضب وأنت ترى
الظلم يقع عليك وعلى غيرك من بني البشر ؟ هل رأيت أنه لا يجوز لك أن تسكت
وأنت ينبغي أن تتحرك وتثور ؟ وأنت أنت . . أنت قبل غيرك ، ينبغي أن تقول
لهذا الشر مكانك ، فقد جاوزت حدك . وهل علمت أنك لا شك متعرض للأذى
حين لا تسكت على الظلم ، وحين تأخذ على عاتقك أن تقاومه وتعرض سبيله ؟
وهل علمت أن الأذى قد يشتد عليك حتى ليسلبك الراحة والأمن ورغد العيش . .
وقد يسلبك الحياة . . ثم ظلت نفسك على غضبها ، وعلى عزيمتها في الوقوف للظلم
وصد العدوان ؟

لأنها الطريق إلى الله . .

* * *

هل ضاقت نفسك بالحياة فاعدت تطبيق آلامها وقسوتها ؟ هل تملكك
الضجر واليأس ، وأحسست بالحاجة إلى الشكوى ؟ هل تلفت حولك فلم تجد من
تشكو إليه ؟ لم تجد الصفي الذي يخلص لك حتى لتفتيح له نفسك دون تخرج وتطلعه
على كل خفاياك ؟ أو لم تجد راحة في شكواك إلى الناس ؟
ثم هل تطلعت إلى السماء وانفجرت بالشكوى ؟ هل وجدت الله وشكوت له

بك ونجواك ؟ هل أحسست أن هذا اللحم الذى تطوى ضلوعك عليه قد تدفق وتدفق ، وسال كليات على لسانك وعبرات فى عينيك ، وأنت أرسلتها كلها إلى القوة الكبرى القاهرة التى تملك كل شيء وتقدر على كل شيء ؟ وأحسست بالراحة والبرد والسلام إذ انطلقت تلك الشحنة الحبيسة ووصلت إلى غايتها ؟ وهدأت نفسك أنك أودعتها حيث ينبغى أن تودع وحيث لا تضيع ؟ إنها الطريق إلى الله . .

* * *

هل ألمت بذنب ؟ هل جمحت نفسك فانطلقت من عقالها ، وأنت تغالبها فتغلبك ، أو تسكت عنها منذ البدء فتنتقل إلى حيث يغويها الشيطان ؟ هل وقعت الواقعة وانتهى الأمر ولم يعد إلى مرد من سبيل ؟ وهل أفقت من غفوتك على لدعات ضميرك ؟ هل نكست رأسك خجلاً من نفسك أن ضعفت وتلاشيت أمام الإغراء ؟ هل أحسست أنك لا شيء ؟ أنك تافه لا تستحق التقدير والاحترام ؟

هل انقلبت خطيئتك سجناً يحيط بك من كل جانب ، لا مهرب منه إلا إليه .
وحيثما توجهت سد عليك الأفق وحجبه بالظلمات ؟
وهل ضاقت نفسك بالحياة ؟ . . .

ثم . . .

هل انفتحت كوة من عالم الغيب ودخل منها بصيص من النور ؟

هل استروحت نسيات تدخل إليك من عالم سحيق ؟

هل أحسست بسمه حانية تطل عليك من ملكوت الله ؟

هل أحسست يداً رفيقة تأخذ بك من كيوتك ؟

هل أحسست صوتاً يهتف بك : « والله يحب المحسنين » ، والذين إذا فعلوا

فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم - ومن يغفر الذنوب إلا

الله - ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم
وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين .
وصوتا آخر يهتف بك : « كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطاتين التوابون » .
وهل غمرتك غمرة من نور ؟
وهل اندفعت قائماً تذكر الله وتستغفر الله ، وتتوب إليه ، وتمسح الخطيئة
من ضميرك ، وتعزم عزيمة الواثق أن لن ترجع إليها . .
وهل أحسست أنك مندفع إلى الله أكثر حماسة مما كنت من قبل ، وأشد
تعلقاً به مما كنت من قبل ، وأكثر إقبالاً على نوره مما كنت من قبل . .
لأنها الطريق إلى الله . .

* * *

هل أحسست - وقد فرغت من عملك ومن جهاد يومك - أنك لا تملك من
أمر نفسك شيئاً ؟ وأنتك مهما عَنَيْتَها بشئون الحياة فليس من وراء ذلك إلا تعب
الخاطر ومشغلة الفكر ؟ وأن عليك أن تسعى ولكنك لا تملك نتيجة السعى
ولا تعلم أيا نمرسأه ؟
هل شعرت أن القوة الكبرى هي التي تدبر كل شيء وتمنع كل شيء ؟
هل شعرت أنك أديت واجبك كما ينبغي ، وفي حدود طاقتك ، وأنه ليس
في وسعك بعد ذلك إلا أن تنتظر أمر الله ؟
وهل حداك هذا إلى أن تسكل أمرك إلى الله وتضع في رعايته الحمل الذي يشغل
ظهورك والمشغلة التي تأكل فؤادك ؟ وهل أحسست أنك آ من على هذا الحمل حقاً
وهو في رعاية الله ؟ وأنه هناك كأنك أنت الساهر على حراسته ؟ وهل ملأت
قلبك الطمأنينة إليه ؟ ونمت وفي خاطرك أنه يركاك وأنت نائم ، ويدبرك
أمرك وأنت غاف عن الإدراك ؟
لأنها الطريق إلى الله . .

الفهرس

صفحة

صفحة

١٠٧	فروق الواقع
١١٦	النفس والجسم
١٢٦	الطاقة البشرية المحايدة
١٣٥	العبادات الإسلامية
١٤٥	الفرد والمجتمع
١٥٣	المرأة والحضارة
١٦٣	التطور والانتكاس
١٧٤	نهاية الشيوعية
١٨٢	صناعة البشرية
١٨٦	القيد والحرية
١٩٠	الحقيقة ١٩
١٩٥	الطريق إلى الله

٥	مقدمة الطبعة الثانية
٦	مقدمة الكتاب
٨	العقيدة
١٥	العلم والعقيدة
٣٤	العلم وحيرة البشرية
٤٦	الصراع
٥٦	مقياس الحياة
٦٥	الشرق والجنس
٧٤	الإنسان والآلة
٨٣	القرية والمدينة
٩٠	حضارة الكيلوواط
٩٧	النفاق الاجتماعي

بصدر عن دار الشريعة

في شرعية قانونية كاملة

مكتبة الاستاذ سيد قطب

- * في ظلال القرآن
- * دراسات إسلامية
- * مشاهد القيامة في القرآن
- * نحو مجتمع إسلامي
- * التصوير الفني في القرآن
- * في التاريخ فكرة ومنهاج
- * الإسلام ومشكلات الحضارة
- * تفسير آيات الربا
- * خصائص التصور الإسلامي ومقوماته
- * تفسير سورة الشورى
- * النقد الأدبي أصوله ومناهجه
- * كتب وشخصيات
- * مهمة الشاعر في الحياة
- * المستقبل لهذا الدين
- * هذا الدين
- * معركتنا مع اليهود
- * السلام العالمي والإسلام
- * معركة الإسلام والرأسمالية
- * طفل في القرية
- * العدالة الاجتماعية في الإسلام

* معالم في الطريق

مكتبة الاستاذ محمد قطب

- * الإنسان بين المادية والإسلام
- * قبسات من الرسول
- * منهج الفن الإسلامي
- * شبهات حول الإسلام
- * منهج التربية الإسلامية (الجزء الأول)
- * جاهلية القرن العشرين
- * منهج التربية الإسلامية (الجزء الثاني)
- * دراسات قرآنية
- * معركة التقاليد
- * تحت الطبع
- * في النفس والمجتمع
- * كيف نكتب التاريخ الإسلامي
- * التطور والثبات في حياة البشر
- * المستشرقون والإسلام
- * دراسات في النفس الإنسانية
- * مفاهيم ينبغي أن تصحح
- * هل نحن مسلمون

من كتب دار الشروق الإسلامية

الدعوة الوهابية	مصحف الشروق المفسر الميسر
الأستاذ عبد الكريم الخطيب	مختصر تفسير الإمام الطبري
مسلمون وكفى	تفسير القرآن الكريم
الأستاذ عبد الكريم الخطيب	الإمام الأكبر محمود شلتوت
المسلم في عالم الاقتصاد	الإسلام عقيدة وشرعة
الأستاذ مالك بن نبي	الإمام الأكبر محمود شلتوت
أنبياء الله	الفتاوى
الأستاذ أحمد بهجت	الإمام الأكبر محمود شلتوت
التعبير الفني في القرآن	من توجيهات الإسلام
الدكتور بكرى الشيخ أمين	الإمام الأكبر محمود شلتوت
أدب الحديث النبوي	إلى القرآن الكريم
الدكتور بكرى الشيخ أمين	الإمام الأكبر محمود شلتوت
دفاع عن أبي هريرة	الوصايا العشر
الأستاذ عبد المنعم صالح العلي	الإمام الأكبر محمود شلتوت
الحجة في القراءات السبع	الإسلام في مواجهة الماديين والملحدين
تحقيق وتقديم الدكتور عبد العال سالم مكرم	الأستاذ عبد الكريم الخطيب
الإسلام وتوزيع الثروات	اليهود في القرآن
الأستاذ ابراهيم البرايري	الأستاذ عبد الكريم الخطيب
مدخل الفقه الجنائي الإسلامي	أيام الله
الدكتور أحمد فتحي بهنسي	الأستاذ عبد الكريم الخطيب

الإسراء والمعراج
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي
القضاء والقدر
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي
قضايا إسلامية
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي
دراسة وتحليل للعهد العربي الأصيل
الأستاذ جميل بيهم
الإسلام في مفترق الطرق
الدكتور أحمد عروة
رحلتي من الشك للإيمان
(باللغة الفرنسية)
الدكتور مصطفى محمود
كيف أرى الله
الدكتور عبد الودود شلبي
خو النون المصري
الأستاذ السيد أبو ضيف المدني
قال الأولون
الأستاذ السيد أبو ضيف المدني
حياة محمد في عشرين قصة
الأستاذ عبد التواب يوسف

الإيمان الحق
المستشار علي جريشة
الجائز والمنوع في الصيام
الدكتور عبد العظيم المطعني
مناسك الحج والعمرة في ضوء
المذاهب الأربعة
الدكتور عبد العظيم المطعني
ونزل القرآن
الأستاذ أحمد فراج
أيها الولد المحب
الإمام الغزالي
الأدب في الدين
الإمام الغزالي
شرح الوصايا العشر
للإمام حسن البنا
خفايا الإسراء والمعراج
الأستاذ مصطفى الكيك
حقوق الإنسان بين الإسلام والمذاهب المعاصرة
الأستاذ عبد الله المحمود
الشيوعية والشيوعيون في ميزان الإسلام
الدكتور عبد الجليل شلبي

مطابع الشروق

بيروت: ص ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١١ - بوقيا، تلشروق - تلكن، SHOROK 20175 LE
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٥٤٣١٤ - بوقيا، تلشروق - تلكن، 93091 SHROK UN